الدكتور
أسعد أحمد علي
أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق



عِلمُ المعاني مِسْطَرَهْ
وذروةٌ لِلْبَرَرَهْ
مَنْ شاءَ مِن حضرته ..
فَلْيَمْتَثِلْ ما أمرَهْ

١ ربيع الأول ١٤٠٨
١٩٨٧/١٠/٢٣

الطبعـة الأولى

لتكمَّل صورة « علم المعاني ومقتضى الحال »
تأمَّلْ قِيَم « الخاتمة » ووعودَها (ص ٢٣٢) ..

بـه : تُعرَف أحوالُ اللفظِ العـربيِّ
التي بها يُطابِق مقتضى الحال ..

بـه : يُحترَزُ عن الخطـأِ في تطبيق
الكلامِ على ما تقتضي الحالُ ذكرَه ..

الايضاح : ٨٤

١٤٠٨ ـ ١٤٠٩ هـ
١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ م

مطبعـة الاتحـاد

علـم المعاني
و
مقتضى الحـال

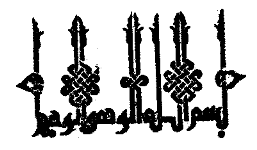
الجزء الأوّل

مقتضى حال المعاني
في
بلاغة الانشاء

وُجدت نسخة من كتاب « النفس » لأرسطو ، المعلم الأول ؛ مكتوب عليها بخط الفارابي ، المعلم الثاني : « قرأت هذا الكتاب مئة مرة » ..

استفتاء

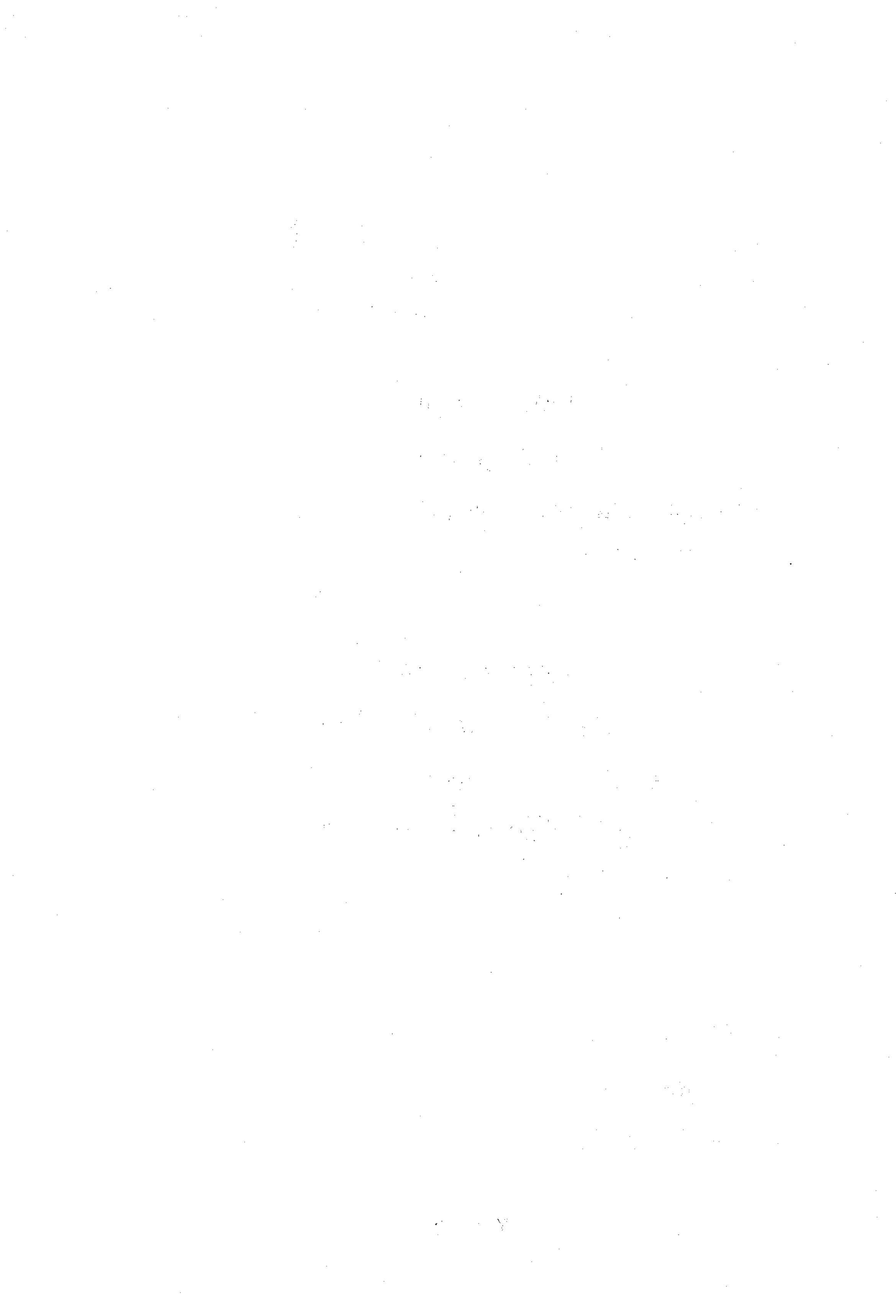
٦٨٪ اقترحوا أن نصدر الجزء الأول ثم الثاني ، من كتاب « علم المعاني .. » و ٢٨٪ اقترحوا أن يصدر الكتاب كاملاً .. و ٤٪ حياديون تركوا الخيار للمؤلف ..



أَلَمْ تَرَ : أَنَّ اللهَ
أَنزَلَ من السماءِ ماءً
فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ؟ ! ..
(فاطر : ٢٧)

هـذا قـديمٌ والحـديث تفتّـح
أرَجُ الغيوبِ على شهودكَ يَنفح
حـبُّ الحيـاةِ بعينها ويَقينها
حالُ الوجودِ على وجوبكَ أوضحُ
(رباعيات الأحد : حال)

صور من الاخراج
مع
المقدمة والاهــداء



صور من الاخـــراج

من الإخراج : ما يُحمَدُ ، ومنه ما يُذَمّ ؛ والمستويان يكونان في الإخراج الشكلي و « أحوال اللفظ » كما يكونان في الإخراج المعنوي و « مطابقة مقتضى الحــال » ...

فمن بديع الإخراج المرجوّ على مستوى الحياة والمعنى : آيــة « الإسراء » الثمانون ، التي افتتحنا بهــا « رسالة النداء » ، ص ٢٧ ؛ ومنها : « ربّ .. ! ؛ أدخلني مُدخل صدق ، وأخرجني مُخرج صدق .. » ..

ومن موجعاتِ الإخراج ، مثل ذلك التعبير الغريب ، الذي طالب فيه قــوم « لوط » بإخراج نبيّهم وآله ومن اتبعه ؛ لأنهم « قــوم يتطهرون » ؛ في الآيــة الثانية والثمانين من سورة الأعراف ، وتصوير القرآن للموقف : بالغٌ إعجــازه المؤثر ؛ ومنــه :

« ولوطاً ، إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشةَ ؛ ما سبقكم بهــا من أحــدٍ ، من العالمين ... (٨٠)

« وما كان جوابَ قومــه ، إلاّ أن قالــوا : أخرجوهم من قريتكم ؛ إنهم أناسٌ يتطهرون » ... (٨٢) ..

هذا مثال معنوي : من الأثر الكريم ، الذي أنتج الاهتمامُ به بحوثاً عديدة في « علم المعاني ، مثل : دلائل الإعجاز ، للجرجاني » ؛ وفي « علم البيان » ، مثل أسرار البلاغــة ، له أيضاً .. ومثل : تفسير الزمخشري ، الذي اعتمد قواعــد « المعاني والبيان » في تفسيره ..

إن الموازنة بـين فصل « حديث اللفظ » من « الدلائل •• » ، بإخراج محمد رشيد رضا (ص ٣٦٧ – ٤٠٣) •• وبـين باب « البيان » للجاحظ ، في « البيان والتبيين » ، (جـ ١ / ص ٧٥ – ٨٧) : تعطي فكرة عن مستوى كل منهما في « إخراج المعنى » •• والحكم بينهما في : قسم « الخبر » من كتابنا ••

في أحدث مناقشة دكتوراه ، بجامعة دمشق [١] : أثيرت مسائل من إخراج المعنى بألفاظ تفسّره ؛ وكان البحث « منهج التفسير اللغوي عند الطبرسي ، في تفسيره مجمع البيان لعلوم القرآن » •••

مُثّلَ لذلك بأمثلة كثيرة قدمها المناقشون ، وهم الدكاترة : مازن المبارك ؛ سعيد رمضان البوطي ؛ نور الدين العتر ؛ شاكر الفحّام •• وباعتباري كنت مشرفاً على عمل الطالب « ناصر كاظم السراجي » ، فقد اكتفيت بالإصغاء حتى النهاية ، فختمت بكلمتين من « سورة الكهف » ؛ هما في الآيتين (٦١ ، ٦٦) :

أ – سَرَباً ؛ من قوله تعالى : « ••• نسيا حوتَهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً »

ب – رُشْداً ؛ في الآية (٦٦) : « قال له موسى : هل أتبعكَ ، على أن تُعلّمني مما عُلّمْتَ رُشْداً » ••

في التفسير القديم ، للطبرسي : أخرج « سَرَباً » إخراجاً مفصّلاً ومؤيداً بعبارة نبوية ، اعتمدها البخاري في صحيحه ، عن ابن عباس وغيره ؛ فقال :

« وثب – الحوتُ – في الماء ؛ وجعل يضرب بذنبه الماء : فكان لا يسلك طريقاً في البحر ، إلاّ صار ماء جامداً ؛ فذلك معنى قوله : « فاتخذ سبيله في البحر سرباً » •••• ثم أيد معنى المعنى بما حدّث به رسول الله (ص) عن لقاء الخضر وموسى [٢] ، عليهما السلام ؛ ومن العبارة النبوية : مايُضيءُ معنى الكلمة«سرباً»••

---

١ – عشية ٢٨ صفر ١٤٠٨ = ١٩٨٧/١٠/٢١

٢ – انظر حكاية « موسى والخضر » في « الإهـداء » ، ص (١٢ – ١٣)

قال النبي (ص) : « واضطرب الحوت في المِكتَل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ؛ « واتخذ سبيله في البحر سرباً » ؛ وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثلَ الطاق » .. (مجمع البيان ، جـ ٣ / ص ٤٨٠ – ٤٨١) ..

وفي تفسير مطوّل من التفاسير الحديثة المتطورة : أخرج معنى الآية بالشكل التالي : « والأرجح كذلك أن هذا الحوت كان مشوياً ، وأن إحياءه واتخاذه سبيله في البحر سرباً : كان آية من آيات الله لموسى ، يعرف بهما موعده ، بدليل عجب فتاه من اتخاذه سبيله في البحر ، ولو كان يعني أنه سقط منه فغاص في البحـر ما كان في هذا عجب » ...

لم يَظهر بهذا الإخراج معنى « سرباً » .. وجيء بمعنى آية أخرى بعدها ، هي الثالثة والستون ، ومنها « واتخذ سبيله في البحر عجباً » ..

هذا المثال من أسلوب « في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، جـ ٤ / ٢٢٧٨ » .. يختلف عن أسلوب « مجمع البيان » في إخراج معنى « سرباً » بألفاظ محددة[1] ..

ومثل هذا الاختلاف بكلمة « رشد » ؛ فقد جاء في تفسير مطوّل آخـر ، من التفاسير الحديثة المتطورة : « الرشد خلاف الغي ؛ وهو إصابة الصواب .. والمعنى : قال له موسى هل أتبعك اتباعاً مبنياً على هذا الأساس ؛ وهو أن تعلمني مما علمت لأرشد به ؛ أو تعلمني مما علمت أمراً ذا رشد » ..

الطبرسي في مجمع البيان ، كعادته : حدد معنى الرشد ، ولم يقابله بالغيّ ؛ لأن السياق المعنوي يتطلب ما أورده لمقتضى حال المتكلم ، وهو كليم الله موسى ؛

---

١ ـ الناس مستويات في الفهـم ؛
فقد بلغني بعد المناقشة رأيان يصوران اختلاف المستويات في الفهم والانتباه ؛ ففريق : رأى أن هذا التوضيح للكلمة « سرباً » أوضح « منهج الطبرسي » وبين فضله وتفوقه السابق للتفاسير الحديثة المتطورة .. وفريق ؛ لم ير أية علاقة بين موضوع المناقشة وهذا التوضيح.. ونحيل الأمر إلى « أساليب التعجب » ؛ وسبحان من له في خلقه شؤون .. !!

فأورد مؤيدات تثير التأمل بهذا « الرشد » الذي يطلبه موسى ؛ فهو : « علم ذو رشد ؛ والرشد : العلوم الدينية التي ترشد إلى الحق ؛ وقيل : هو علوم الألطاف اللدنية التي تخفى على الناس » •• (مجمع البيان / جـ ٣ : ٤٨٣) ••

نلاحظ ، هنا ، مستوى آخر للمعنى ، بأحوال لفظية مقنعة ، غير تلك الأحوال اللفظية ، التي أوردها « الطباطبائي ، في الميزان جـ ٣٤٢/١٦ » ••• لأن كليم الله : لا يطلب رشداً خلافَ الغيِّ ؛ ونستغفر الله لنا وللمفسر الكريم ؛ فهـو لا يقصد هـذا ؛ إنما الإخراج اللفظي : أومأ به •• وما يقي من مثل هذا إلا التزام عـلم المعاني ؛ فقـد قيل في تعريفه « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ؛ ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطـأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره » •• (الإيضاح : ٨٤) ••

ما تقتضي الحال ذكره في سياق قصة « موسى والخضر » ، في سورة الكهف : ليس رشداً خلاف الغي ، كما أخرج اللفظ في « الميزان » •• بل هو رشد المتصرف بالوقائع ؛ وقد ظهـر واضحاً في القصة نفسها ؛ فقـد تصرف الخضر أمام موسى بتصرفات هي نماذج « الرشـد » الذي أعطي للخضر ، وطلب تعلمـه موسى •• كخرق السفينة •• وقتل الغلام •• وعمارة الجدار ••

أليس ختَم صاحبُ « دلائل الإعجاز » كتابه ، « ببيان أن العمدة في إدراك البلاغة : الذوق والإحساس الروحاني » ••• (٤١٨ – ٤٢٨) •• ؟ !

إن الالتزام « بمِسطرة » عـلم المعاني المستقيمة : يحرر من أخطاء كثيرة ، في الإخراج ، لفظيِّه ومعنويِّه ، وفي كل مجال ؛ وربما في مجال البلاغة قبل غيرها ، كما رأينا في « أسلوب النداء •• ورسالته » ••

إن تقنيات الإخـراج العالمية : كل يوم في تجدد ومزيد ؛ ولأننا مشغولون عن هذا « العالم الجمالي » بـ « ما لا يضرنا جهله » [1] ، على حـد تعبير الإمام

---

١ ـ لاحظ : المقدمة الإخراجية لفـن الكتابة .. ص (ط ـ ١٣) ..

الكاظم (ع) •• لذلك أقدم نماذج من صور إخراجية : ليست في المتناول ؛ لأنها تباع كما تباع اللوحات النادرة ، ولأن هواتها كذلك نادرون •• وتقدمتها المجانية : قربان ذوقي : أقدمه لطلاب علم المعاني ؛ لكي لا أُشكى لرئيس قسم اللغة العربية ، إذا طالبتهم بإخراج « حلقات بحث علم المعاني » إخراجاً حسناً ، كما فعل بعضهم من قبل [1] •• ولكي تقدر هذه التقنيات العالمية :

١ – لاحظ ما ذكر عن إخراج « حديقة الورد » لسعدي ، باللغة الفرنسية ؛ تفاصيل ذلك في كتابنا « السبر الأدبي » •• (ص ٤٥) ••

٢ – ولاحظ « بحور » ، تعاون في إخراجه ثلاثة : صَوَّرَ صوره « آلان مازاران » ؛ واختار شعره « سليمان زغيدور » ؛ وكتب خطوطه « حسن المسعود » ؛ وأصدروه بفرنسا ١٩٨٤ ، بشكل لوحات ؛ ونحن نقرب فكرتهم بأخذ نص « أبي العلاء » والصورة المقابلة له ، بلا تلوين ؛ لأن حجم إخراجهم مختلف ؛ وعملنا للتذكير بالإخراج الجميل •• وتأمل قولهم : « بحور ، إنما هو بادرة إكبار وإجلال للشعر العربي المذهل في ثرائه ، هو الشعر الذي لا يني ماثلاً حيّاً في ذهن وقلب كل رجل عربي وكل امرأة عربية •• إن اقتران هذه الأبيات المأثورة ، هذه الخطوط العريقة ، بصور لا زمنية بحتة ، إنما هو احتفال بتلاقي ثقافتين ، بتقارب شعورين فنيين ، في مكان هو البحر ، حيث يتاح التعاطف لسائر البشر ، أياً كان انتسابهم ومهما تكن مصائرهم [2] » ••

٣ – لاحظ فروع الرقم الثالث الخمسة « أ ، ب جـ ، د ، هـ » من المقدمة ؛

---

١ – لاحظ : مقدمة هذا الكتاب عن الطلاب . ص (٧) ..

٢ – لقد أخرجت النصوص منفردة مع لوحاتها ، بشكل وحدات ؛ الوحدة الأولى منها أربعة نصوص (1 — 4) ، فيها عشرة أبيات ؛ الأولى منها لأبي العلاء المعري ، أربعة أبيات ، وهو الذي صورناه . والثلاثة الأخرى : لابن المعتز ، والسريّ الرفاء ، وعبد المحسن الصوري ؛ وبكل منها بيتان . . . وثمن هذه الوحدة (486) فرنكاً فرنسياً ؛ يعني ثمن كل نص يعادل (546,75) ليرة سورية .. ونعتبر ذلك مثيراً للتقدير والتفكير .. ! وفي الكراس الثالث الذي احتوى هذه النصوص الأربعة نص لابن الرومي من أربعة أبيات .. ومقابله لوحته ..

ففيها إيضاحات مبسطة لكيفيات إخراجية مثيرة ؛ على مستويات : تحقيق البلاغة الحر •• أو نشر التراث المجمعي •• أو نشر المقرر الجامعي •• أو المحاولة الإبداعية الفردية في نص تراثي ، كنهج البلاغة [1] •• أو المحاولة الاستلهامية لسور القرآن جميعها بسبعة أحوال « الخوف ، الرجاء ، الطهارة ، التجربة ، الثورة ، الرحمانية ، البصيرة » •• (ص : ٩ — ١١) [2] ••

٤ — كما أن الهدوء مع ما وراء الأرقام السبعة في المقدمة : قد يجني « ثمرات » يخرجها إلى المتأني : ماءُ انتباهه ، الذي نرجوه متنزلاً عليه من سماء ذوقه •• ومن بركات منزل الماء من السماء ••

٥ — المقدمة والإهداء : تؤديان وحدة القاعدة النظرية والممارسة العملية ؛ وواضح أنهما تخاطبان مستوى من خلق الله ، موثوق برفعة ذوقه ، وسلامة خلُقه•• وفيهما ، كما في الأرقام الثمانية الأخرى : تتحقق « نظرية الأناقة » ، جملة وتفاصيل ؛ كما يمكن أن نسمي تمنيات البلاغيين للمتكلم ؛ ألم يختم القزويني كتاب « التلخيص في علوم البلاغة » بقوله : « ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون : أعذبَ لفظاً ، وأحسنَ سبكاً ، وأصحَّ معنى •• أولها : الابتداء •• وثانيها : التخلص •• مع رعاية الملاءمة بين السابق واللاحق من المعاني •• وثالثها : الانتهاء •• » وجميعُ فواتح السور ، وخواتمِها : واردةٌ على أحسن الوجوه وأكملها ؛ يظهر ذلك : بالتأمل مع التذكر لما تقدم » ؟ ! •• (صناعة الكتابة : ٥٥٨) ••

عبارة التلخيص : تعني تمنياتنا للقارىء الكريم ، أيضاً ؛ فقد حاولنا تأدية دورنا في ما قدمناه « تقنية وتأنقاً » ، ليس في : « البدء والتخلص والانتهاء » ؛ بل في كل فاصلة ونقطة وعلامة تعجب أو استفهام ••

---

١ — انظر التمثيل لهذا الإخراج في ص (٣٠٠ — ٣٠١) من هذا الكتاب .. وارتقب ما وعدنا به من تصوير النص عن إخراجه الأصلي في الجزء الثاني ، إن شاء الله ..

٢ — انظر تعريفاً سريعاً بهذه الأحوال وقيمها الإخراجية ، مادية ومعنوية ، بأول عمل صدر عن مؤسسة « الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية » بباريس ، ١٩٨٢ (ص ١٦) من هذا الكتاب.. وارتقب الجزء الثاني لما وعدنا به من مثال الإخراج..

فهــل يتتبع « أحــوال إخراجنا » محبو المعــاني ، متمهلين ؛ ليتعرفوا إلى « الحضرات وراء الكلمات » ؟ !

قيل : « للبلاغة طرفان : أعلى إليه تنتهي ، وهو حــد الإعجاز وما يقرب منه •• وأسفل منه تبتدىء ، وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه : التحق ، عنــد البلغاء ، بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب •• وبين الطرفين : مراتب كثــيرة متفاوتة •• وللبلاغة وجــوه كثــيرة •• تُورث الكلام : حُسناً وقَبولاً » [1] ••• (الإيضاح : ٨٢ – ٨٣) ••

كذلك بلاغة الإخراج : صوتيه وعينيّه ؛ أليس : تجويد القرآن وترتيله من الإخراج الذي يوصل معاني القرآن على نحو أفضل من القراءة العادية •• ؟ قد يكون للتأمل والهدوء : تجويد وترتيل أبلغ •••

وعلى مستوى الرؤية والقراءة : رأينا لكتاب الله صوراً بديعة من الإخراج ، وبلغات متعددة •• وفي القسم الثاني من كتابنا ، سنعطي أمثلةً من بعض سوره ••

يشعر المتتبع : أن أهل الذوق ، في العالم ، يتسابقون إلى سر وراء الحروف ؛ فيتغنّون بتركيبات الحروف ؛ والبسملة : مثالٌ واضحٌ ؛ فكم عدد الأشكال التي أخرجت بها •• وتظــل تلهم مجددات أجمل •• حاول : محمد ماجــد •• وغني العاني •• وسمير سلامة •• سنة ١٩٨٠ : إخراج بسملة يعتمدها « الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية ، بباريس » : شعاراً ، أو سمةً له ؛ وقد وفق محمد ماجد إلى ذلك ؛ ووضعت في أول أعمالهم ، وعلى غلافه ، أعني : « في أضواء القرآن » ••• ولم يمر وقت طويل على ذلك ، حتى بدأ الناشرون يقلدونها ، معدلة أو كما هي ••

---

١ – وكذلك لاحظ : مقدمة « دلائل الإعجاز » فقد اعتبر الجرجاني من لا يهتمون إلاّ بصحة الإعراب « ضيماً لعلم البيان » ؛ لأنهم سطحيون ، ولا يرون أبعد من أنوفهم ، كما يقال ؛ لاحظ كلمات الجرجاني بعبارته هو ، وقارن ما يجري في عالمنا الحديث المتطور .. وواسِ الجرجاني بالبكاء معه (ص ٥ – ٧) واحذر معاشرة مــن حذرك الجاحظ منهم ؛ لأن سخفهم اعدى من الجــرب (البيــان والتبيين ، جـ ١ / ٨٦)

ففي ١٩٨٥ : رئيت بسملتنا معدلة على كتاب « سر الصلاة أو صلاة العارفين » للإمام الخميني •• عرّبه وعلق عليه : السيد أحمد الفهري ؛ وقد أخرج عن « دار طلاس » ، بدمشق •••

وفي ١٩٨٧ : رئيت بسملتنا بلا تعديل ، على كتاب « الأسس السياسية والمذهب الواقعي » للشيخ الركابي •• وهو فيه يعرض مبادىء « الحكومة الإسلامية » من مخطوط للإمام المنتظرى ، كما أخبرني •• وأخرج الكتاب عن « الدار الإسلامية » ببيروت ••

لا أدري إذا كانت تستخدم « بسملة الإخراج الاتحادي » في دور أخرى •• ولكتب أخرى •• ولا أدري ما سيكون موقف « الاتحاد الأوروبي » من هذا •• والذي أريده : هو تأليق نظرية الإخراج وفق « علم المعاني ومقتضى الحال » [1] ••

ومثل هذا محسنات الصوت الإخراجية ؛ ففي سنة ١٩٧٧ : أخرجت للناس « برنامج اللغة والحياة » من إذاعة دمشق •• وشاركت بإخراجه الصوتي آخرين من أصحاب اللهجات الجذابة : كعدنان شيخو •• وأمل دكاك •• ثم آخرين وآخرين •••• وبعد أربع سنوات من إذاعة اللغة والحياة : بدأت البرامج الأخرى تتفتح على نحو منه ، في « اللغة والحضارة » للدكتور الربداوي [2] •• وفي « لسان العرب » للدكتور الداية •• وفي عناوين أخرى •• وعندما سافرت وعدت بعد ثلاث سنوات : وجدت زميلنا الدكتور رضوان الداية ، استقر على العنوان نفسه

---

١ ـ انظر شكلها في بداية : « السبر الأدبي » .. وفي بداية « جامعة الإمام الحسين لحقوق الإنسان » .. فهما الاستعمالان الثاني والثالث لها ، بصورة رسمية مأذونة من قبل الاتحاد .. وما يرى في غيرهما : فهو تقليد لها ، أعني « البسملة » ، بالصورة « الشجرية » ، أو « النافورية » الصاعدة .. لتمثيل قوله تعالى « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .. فاطر / ١٠ »

٢ ـ لاحظ ما كتبه « عادل اليازجي » في جريدة البعث ؛ ع ٤٧٣١ ؛ تاريخ ١٩٧٨/٧/٢٢ .. ، أو مراقب ..

« اللغة والحياة » في برنامجه الإذاعيّ الموفق •• وحوّل برنامجه « لسان العرب » إلى شبه مقالة لغوية ، كما كان يفعل الدكتور مسعود البوبو ، قبل سفره إلى اليمن•• لاحظ الزاوية في : جريدة البعث•• وربما نلاحظ في رصد الحركة اللغوية : أسماء كريمة وعديدة ، أخذت طرقاً مجدّدة في إخراج المادة اللغوية ، مصوتة ومصورة ، كما في « اللغة والناس » ليوسف الصيداوي [١] ••

حديث البسملة •• وحديث اللغة والحياة : يهز طلاب « علم المعاني » إلى الاقتداء بهؤلاء الأفاضل والعلاة الذين يسعون وراء الإخراج الأجمل والأقوى على الإيصال [٢] ••

في المقدمة : تفاصيل الموجبات لهذا الحض ••

وفي الأشكال الإخراجية التالية : ما يعرض معرِض الإثارة للتخير والنزول على المستوى الذوقي الأكمل بين طرفي البلاغة ومراتب ما بينِهما في الإعجاز والإخراج •••

فلنتأمل بلاغة إخراج الأشكال التالية •••• ولنعتبرها ثقافة للعين [٣] •• ثم نفكر بما تعين عليه للصعود في معارج التدرج من أساليب الإنشاء ، في هذا القسم •• إلى مدارج العروج من أساليب الخبر •• حيث نرى مستويات « الإعجاز والإخراج » على نحو آخر •• إن شاء الله ••

---

١ ــ انظر تفاصيل حول « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » عبر « معالجات ندائية » من هذا الكتاب ، ص ٢٥٩ ــ ٢٨٦

٢ ــ انظر رسالة الطلاب حول « حلقة بحث علم المعاني بشكل ذي إخراج حسن » (ص ٧) . . وارتقب تفاصيل شكرنا لمن احسن إلى إخراج « علم المعاني ومقتضى الحال » ، في جزئه الثاني . . بحول الله وقوته . .

٣ ــ نتأمل بما تيسّر لنا إخراجه في هذا الجزء . . ونرتقب ما تيسر لنا من امثلة الإخراج في القسم الثاني . .

والآن أفتح الباب إلى مستويات بين طرفي البلاغة •• وأنا أكرر ضمناً « لكل نجمة سكانها [1] » •• وأتذكر من أغنية تستثير الحماسة « حبك نجم يرتفع •• وأنا فلكي أتبعه [2] » ••

نعم ؛ إن اتباع الرفيع المتعالي : يمنح رؤى اليقين •• فيعلم المتبع : أصول الإخراج وتنوعاته السالبة والموجبة •• بما يتلقى اقتناعاً بمبدعي « المنهج والاختصاص » •• وحذراً من « المدعين بهما أيضاً » •• والفرق بين المبدعين والمدعين : حرف إخراجي واحد •• فانظر ما يحمد وما يذم من إخراج المبدعين والمدعين •• وتعجب من آيات البداية ومن نظائرها المدهشة •• فأي شيء يكافيء موسى (ص) لصبره على من قست قلوبهم ؛ « فهي كالحجارة أو أشد قسوة !•• وإن من الحجارة : لما يتفجر منه الأنهار •• وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء •• وإن منها لما يهبط من خشية الله •• » •• ؟

أليس اتخاذ موسى كليماً لله : مكافأة اختصاص يميزه باتباع « الشرعة والمنهاج » المستقيمين إلى نعمة من هو « مخرج » ما كان يكتم من « قست قلوبهم فهي كالحجارة » ؟ •• (البقرة : ٧٢ - ٧٥) ••

وأي شيء يكافيء خاتم النبيين ، محمداً (ص) لصبره على من « اتخذوا القرآن مهجوراً » ••• أو من حملوه حملاً ليهاجر من مكة إلى المدينة ، اجتناباً لمحاولة اغتياله ، التي افتداه منها ابن عمه ، وربيبه ، علي ، (ع) •• ؟

أليس اتخاذ محمد حبيباً لله ورحمة للعالمين : مكافأة اختصاص يميزه ويميز

---

١ ـ مما قيل بإخراج نسخ الشرف العشرين المرقمة (٦ ـ ٢٥) من الأثر « في أضواء القرآن » .. وانظر ما أجمل بتعريفه في الصفحة الأخيرة من « الإهداء »، ص١٦.. وارتقب ما ندخره إلى ختام الكتاب من : أحاديث « مقتضى الحال » .. مع اعتقادنا بمغزى هذه الرباعية :

أعز من الحديث حبيب روحي	أزمله بخارقة الفتوح
بخضر الله يتبعه كليـ	بمجمع بحره الهادي مسيحي

٢ ـ من مجموعة « أغاني الأعماقية » .. مخطوطة ..

متّبعيه بأن الله « يُصلّي عليهم وملائكته » •• ويخاطبهم بالغـاية مِن صلاته الرحمانية عليهم وقصدها ، فيقول :

« يا أيهـا الذين آمنوا •• اذكروا الله ذِكـراً كثيراً •• وسبحوه بكرةً وأصيلاً •• هو الذي يُصلّي عليكم وملائكته (ليُخرِجَكُم من الظلمات إلى النور) •• وكان بالمؤمنين رحيماً •• تحيتُهم ، يوم يَلقونه ، سلامٌ ، وأعدَّ لهم أجـراً كريماً » •• ؟ (الأحزاب : ٤١ – ٤٤)

ثم يخاطب « النبي •• المنيرَ » فيقول :

« يا أيها النبيُّ •• !

إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً ••

وداعياً إلى الله بإذنِهِ وسراجاً منيراً

وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ••

ولا تطعِ الكافرينَ والمنافقين ••

ودَعْ أذاهُمْ ••

وتوكّل على الله ••

وكفى بالله وكيلا •• » •• (الأحزاب : ٤٠ – ٤٩) ••

إن إخراجَ الناس الى النور المنير : لا يميز بين إنسان وآخر ، والأهم الاتباع المنجي من الانحراف والانجراف بغرور الادعاء وكذب المستمعين لِ « إبليس » ••

إن رسول الرحمة الكلية : يخاطب محبّي النور جميعاً ، ويدلهم إلى سبيل النور المحب ، فيقول لكل المحبين :

« إنْ كنتم تحبونَ الله

فاتبعوني

يُحببكم الله •• » •• (آل عمران : ٣١) ••

إن الجرجاني ، في «دلائل الإعجاز » وفي « أسرار البلاغة » •• وغيرَه ممن اهتموا بالبلاغة العربية وعلم معانيها : تأملوا طويلاً بكيفات إخراج الكلم بصور تؤدي المعنى ؛ ليكون مخرجاً لمن يتلقاه من « ظلمات نفسية واجتماعية » يعرفها أصحابها •• ويعرفون كيف تأثروا بالهادي الذي أخرجهم منها إلى النور •• أليس مقتضى الحال : يستدعي المقال المطابق •• ؟ ••••

حيَّيتُ ربي العظيم ••

وهو السخيُّ الكريم •••

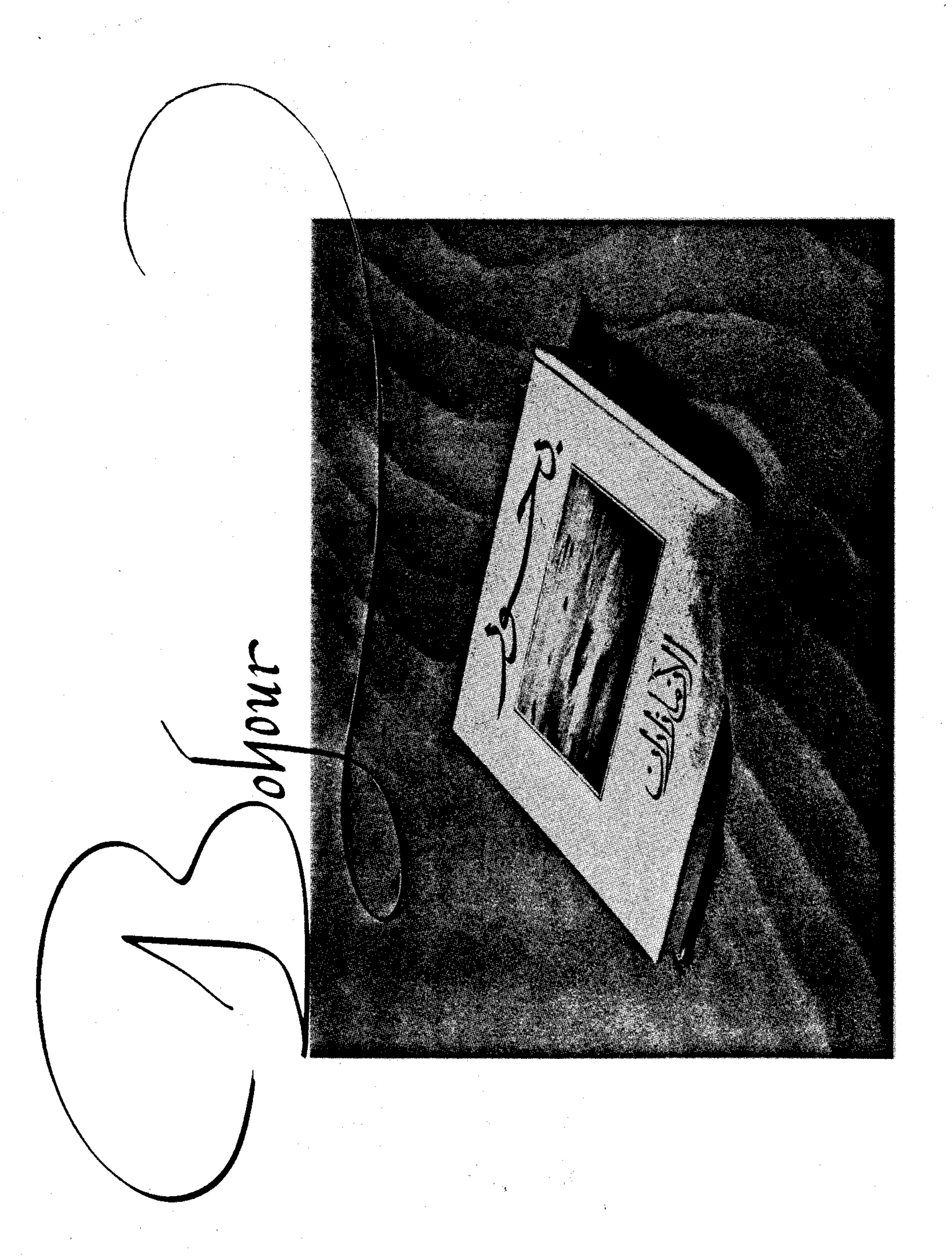
يَحْيَاكَ زاكي المعاني

فاذكرْ بريش النجوم

وأسأل الله القبول •••

١ ربيع الأول ١٤٠٨

١٩٨٧/١٠/٢٤


Bohour

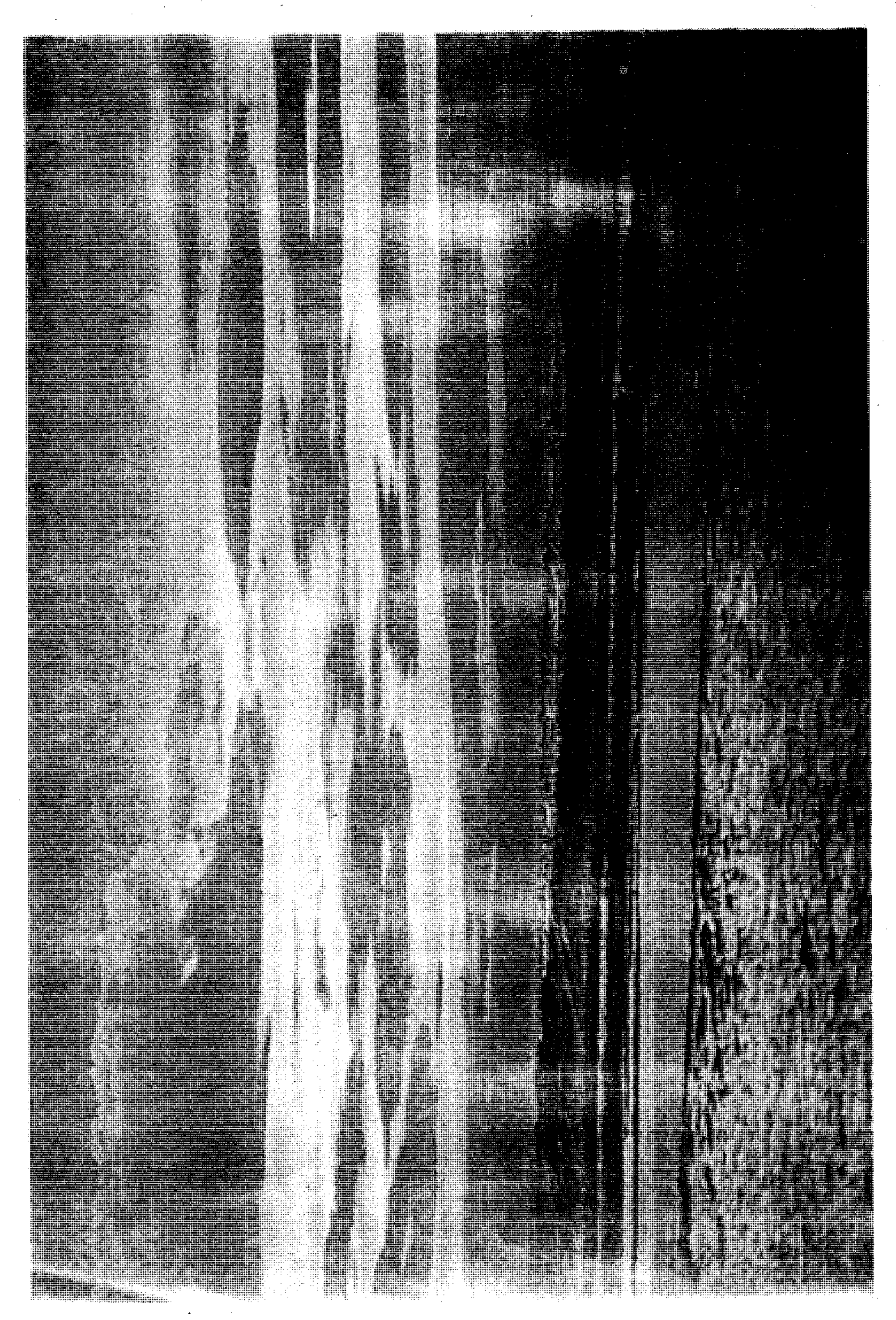
أعارِضَ مُزْنٍ أوْرَدَ البَحْرَ ذَوْدَهُ، فلمّا تَروّتْ سارَ شَوْقًا إلى نجْدِ

سَما نحْوَهُ مَلْكُ الرّياحِ بجُنْدِه، فمَزّقَهُ دُونَ الإرادَةِ والوُدّ

بَكَيْتُ له، إذْ فاتَهُ مايُريدُهُ، وما شَوْقُهُ شوْقي، ولا وَجْدُه وَجدي

كذاكَ اللّيالي لايجُدْنَ بمَطْلَبٍ لخَلْقٍ، ولا يُبقِينَ شيئًا على عَهْد

أبو العلاء المعرّي



بسم الله الرحمن الرحيم

كنتَ – حفظ اللهُ عليكَ دينكَ ، وقوّى في ولاءِ العترةِ الطاهرة يقينَك – سألتَني :

أن أصنّف لكَ كتاباً ، يشتملُ على « خصائص الأئمة الاثنيْ عشرَ » ؛ صلواتُ الله عليهم وبركاته ، وحنانه وتحياته ؛ ..

على ترتيبِ أيامهم ، وتدريجِ طبقاتِهم : ذاكراً أوقاتَ مواليدهم ، ومُدَدَ أعمارهم ، وتواريخ وفياتِهم ، ومواضعَ قبورهم ، وأسامِيَ أمهاتهم ، ومختَصَراً مِنَ فضل زياراتِهم ؛ ثم مُورِداً : طُرَفاً من جواباتِ المسائِلِ التي سُئِلوا عنها واستُخرجتْ أفاويلُهم فيها ؛ ولُمَعاً مِن أسرار أحاديثهم وظواهِرِ وبواطنِ إعلامهم ؛ ونُبَذاً من الاحتجاج في النصّ عليهم ، وحقيقةِ البرهانِ في الإشارة إليهم ؛ مُوضِحاً مِن ذلك : ما يَزيدُ المخلصَ إخلاصاً في موالاتِهم ، وصفاءَ عقلٍ في محبتِهم ؛ ويصدع عن عين عدوهم العَمى ، ويكشف عن قلبه الغُمَّى ، حتى يستشفّ أنوارَهم : فيَسعى إليها ؛ ويَستوضحَ أعلامَهم : فيتتبعها ؛ ويقتفيها ؛ ... سالكاً في جميع ذلك طريقَ الاختصار ، ومائلاً عن جانب الإكثار ؛ لأنّ مناقِبَ موالينا الطاهرين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين : لا تُحصَى بالعدد ، ولا تقف عند حدٍّ ، ولا يُجرَى بها إلى أمَدٍ ؛؛

فإنني أعتقد : أن جميعَ أعداءِ هؤلاء الغُرَر

– الذين هم قواعد الإسلام ، ومصابيح الظلام ؛ والذين خفض اللهُ الخلق عن منازلهم ، وقصر الألسنَ والأيديَ عن تناولهم ، وميَّز بين العالَمِ وبينهم ، وأماط العيبَ والعار عنهم –

بين مغموسِ القلبِ في الجهالة .. وبين عالمٍ بفضلهم .. يكتم معرفته معاندةً [1] ..

---

1 – الصفحة المقابلة : مصورة عن « خصائص الأئمة » (ع) للشريف الرضي ؛ بتحقيق وتعليق الدكتور « محمد هادي الاميني » ؛ صدر التحقيق عن « مجمع البحوث الإسلامية » ؛ آستان قدس رضوي .. بمناسبة مرور الف عام على وفاة الشريف الرضي ؛ ربيع الثاني ١٤٠٦ هـ ..

بسم الله الرّحمن الرّحيم

كنتَ - حفظ الله عليك دينك، و قوّى في ولاء العترة الطاهرة يقينك - سألتني أن أصنّف لك كتاباً يشتمل على خصائص أخبار الأئمّة الاثني عشر صلوات الله عليهم، و بركاته، و حنانه، و تحيّاته» على ترتيب أيّامهم و تدريج طبقاتهم، ذاكراً أوقات مواليدهم، و مُدَدِ أعمارهم، و تواريخ وفاتهم، و مواضع قبورهم، وأسامي أمّهاتهم، و مختصَراً من فضل زياراتهم، ثمّ مُوردًا طرفًا من جوابات المسائل الّتي سئلوا عنها، و استخرجت أقاويلهم فيها، و لُمَعًا من أسرار أحاديثهم، و ظواهر و بواطن أعلامهم، و نُبذًا من الاحتجاج في النصّ عليهم، و حقيقة البرهان في الإشارة إليهم، موضحًا من ذلك ما يزيد به المخلص إخلاصاً في موالاتهم، و صفاء عقد في محبّتهم، و يصدع عن عدوّهم العمى، و يكشف عن قلبه الغمى، حتّى يستشفّ أنوارهم فيبلغوا البهاء، ويستوضح أعلامهم فيتتبّعها، و يقتفيها سالكاً في جميع ذلك طريق الاختصار ومائلا عن جانب الإكثار، لأنّ مناقب موالينا الطّاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، لا تحصى بالعدد، ولا تقف عند حدّ، ولا يجري بها إلى أمد، و إنّي أعتقد أنّ جميع أعداء هؤلاء الغرر الّذين هم قواعد الاسلام، و مصابيح الظّلام، والّذين خفض الله الخلق عن منازلهم، و قصر الألسن والأيدي عن تناولهم، و ميّز بين العالم و بينهم، و أماط[1] العيب و العار عنهم، بين مغموس القلب في الجهالة،

---

[1] - أماط: أذهب، أزال.

ولا يتمنى بـ (هل ، ولو ، ولعل) الا في المجزوم بعدم وقوعه حتى لا تحمل على معانيها الأصلية .

٥- النداء : هو طلب الاقبال بحرف ناب مناب أدعو – لفظاً أو تقديراً كقوله تعالى (يا يحيٍ خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (يوسف اعرض عن هذا)

وأدوات النداء ثمانية – الهمزة ، وأيِ ، ويا ، وآ ، وآي ، وأيا ، وهيا ، ووا .

وهي في الاستعمال قسمان :

١ – الهمزة ، وأيِ لنداء القريب .

٢ – باقي الأدوات ، لنداء البعيد ، واختلف في (يا) فقيل إنها للقريب والبعيد .

وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة وأيِ إشارة الى أنه لشدة استحضاره في ذهن المتكلم صار كالحاضر معه .

كقول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان

المعاني المستفادة من النداء :

١ – الإغراء : وهو الحث على لزوم الشيء كقولك : يا مظلوم تكلم – الغرض حثه واغراؤه على التكلم ، ولو ناداه باسمه ما افاد هذا المعنى .

٢ – التحسر : كقوله تعالى (يا ليتني كنت ترابا)

وأكثر ما يظهر في نداء الاطلال والرسوم ، والقبور .

قال الشاعر :

أيا منزلي سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللاتي مضين رواجع ؟

٣ – الاختصاص : وهو تخصيص حكم ، باسم ظاهر ، صورته صورة المناد أو المعرف بأل ، أو بالاضافة أو بالعلمية . وذلك نحو :

هذه الصفحة : مصوّرة من "علم المعاني"، للدكتور: مزيد نعيم ؛ صدر عن جامعة دمشق (١٩٨١=١٤٠١). وانظر ملاحظات الكتاب، في المقدمة، مثلاً...

١ – قالوا قديماً : اللفظُ جَسَدٌ رُوحُه المعنى ..

ونحن نُدركُ من هذه المقالةِ ما تَعنيه « صناعةُ الكتابة » . فالصِّناعةُ ، هيَ : الجَسَدُ . والكتابةُ ، هي : المعنى .. ولما كان المعنى يُقابِلُ الرُّوحَ فإنَّ الكِتابةَ تقابلُ القِيَمَ الداخلية للعملِ الأدبيِّ ، أي العناصر الوجدانية ، من : عاطفةٍ أو انفعال ، ومن سماتٍ شخصيةٍ وخصائصَ ذاتية .. ولمّا كانَ اللفظُ يُقابِلُ الجسدَ فإنَّ الصِّناعةَ تقابِلُ القِيَمَ الخارجيةَ للعملِ الأدبيِّ ، أو العناصر الشكلية ، من : كلماتٍ ، وجُمَلٍ ، وفِقَرٍ ، وقِطَعٍ ، وأعمال أدبية متميّزة ، كالقصيدة ، والملحمة ، والمسرحية ، والمقالة والقصّة بكلٍّ أنواعها ، والخاطرة ، والترجمة ، والسيرة ، والرّسالة ، والبحث ؛ والخطبة ، مكتوبة أو ملفوظةً ..

٢ – عندما نُضيف الكتابةَ إلى الصناعة ، في مصطلح « صناعة الكتابة » فإننا نُشيرُ إلى قيمة الوسيلة أو الشكل ؛ فالصِّناعة وسيلةٌ تُجسِّدُ الكتابة . وقل : الكتابةُ روحٌ جسدُه الصِّناعة . أو مخلوقٌ حيٌّ مسكنُه الصِّناعـــة .. وكل ذلك يُشيرُ إلى أوّليةِ اللغةِ ؛ فاللغة : مادة الصِّناعة وأدواتُها ؛ بدءاً بالحروفِ ، فالكلمات ، فالعبارات ، فالفِقَر ، وانتهاءً بالبناء الأدبيِّ ، وما يُرافقُ كلَّ ذلكَ من إيقاعٍ موسيقيٍّ ومن وسائلَ تصويرية كعلامات الترقيم .

فالحروف ، هي : العناصرُ الأولى ، أو الخلايا التي تكوِّنُ جسدَ الكلمة . وكلّما كانت متآلفةً ، مُتَباعدة المخارج ، كانت الكلمةُ فَصيحةً ، أي مُريحةً لجهاز النطق وجهاز الصوت ؛

والكلمات ، هي : الأعضاءُ المتكوّنةُ من خلايا الحروف . والكلمـــةُ

تؤدّي عملاً كالعضو في جهاز الكائن الحيّ . فكلمة : ذاكرة ، مثلاً ، تؤدي معنىً يتعلّقُ بالإنسان وعلاقاته بغيره من الناس ومن الأشياء ..

والجُمَلُ ، هيَ : الأجهزةُ التّامةُ المتكونةُ من الكلمات الأعضاء . والجملةُ مُصَغّرُ العمل الأدبيّ ، لأنّها تؤدّي عملاً مستقلاً . فقولُنا : « تُشرقُ الشمسُ » معنىً تامٌّ ، له إيحاءاتُه ، سواءٌ أكانت الجملة : فعليّة أم اسمية ، من حيث النحو .. خبريةً أم إنشائية ، من حيث الغرض المعنوي .. حقيقية أم مجازية ، من حيث التصوير البيانيّ .. الخ

والفِقَر ، هي : مجموعةُ جُمَلٍ تتألفُ لتكوّنَ جهازاً مميّزاً في العمل الأدبيّ . ومثالُها البيتُ الشعري في القصيدة عندما يتمُّ فكرةً .. ومثالها في النثر ما يُنهي فكرةً ، يَعودُ الكاتبُ بعدها إلى البداية ، تماماً كالفقر السّابقة التي تناولت الحروف ، والكلمات ، والجمل ..

أما القطع ، فهي : مجموعة فِقَر . فالقطعة تتألّفُ من فِقَرٍ متعاونةٍ لتصويرِ معنى عقليٍ أو انفعالي وجدانيٍ ..

وأمّا العمل الأدبيُّ ، فقد يطولُ أو يَقصر ، وهو : الشكلُ الأخير ، أو البناء المشيّدُ من القطع .. وهو بناء من كلماتٍ ، لكنّه مثل البناء الذي يُعمّر بالحجارة والحديد ؛ لا بُدَّ فيه من عمقٍ أساس ، ومتانة التحام ، وسلامة هندسة ، ليكونَ بناءً يُسكن.. فالعواطف والانفعالات والأفكار مثل الأحياء ، الأحياء ، يَسكنون في المنازل الصحيحة البناء .. أما المنازل الخربة أو المتداعية فلا يَسكنها غير البوم والغربان والمخلوقات الدنيا المتخلّفة ..

وكمّا يتخلّلُ موادَ العمارة أمورٌ تمتّنُها وتزيّنُها .. كذلك يتخلّل موادَّ صناعة الكتابة مقوّياتٌ ومزيّناتٌ منها علاماتُ الترقيم : كالنقطة ، والفاصلة

والقاطعة ، والنقطتان ، وعلامة الاستفهام ، وعلامة الانفعال ، والشرطة ، والشرطتان ، والقوسان ، والقوسان المركنان ، وعلامة الحذف .. الخ . ومردُّ استعمال هذه العلامات إلى الذوق والمِران ، ولكن العاملين بصناعة الكتابة ، حدّدوا مبدئياً ، طريقة استعمالها ، فقالوا عنها :

(.) النقطة ، توضَعُ في نهاية الجملة التامة المعنى ، المستوفية كلَّ مكمّلاتها اللفظية ، وكذلك توضع عند انتهاء الكلام وانقضائه ..

(،) الفاصلة ، وتُوضع بعد لفظ المنادى .. وبين الجملتين المرتبطتين في المعنى والإعراب .. وبين الشرط والجزاء ، وبين القسم والجواب ، إذا طالت جملة الشرط او القسم .. وبين المفردات المعطوفة اذا تعلّق بها ما يطيل بينها فيجعلها شبيهةً بالجملة في طولها ..

(؛) القاطعة ، ويَستعملونها عادةً ، بعد جملةٍ ، ما بعدها سبَبٌ فيها .. وبين الجملتين المرتبطتين في المعنى دون الإعراب ..

(:) النقطتان ، وتُوضعان بين القولِ والمَقول .. وبين الشَّيء وأقسامه وأنواعه .. وقبل الأمثلة التي تُوضِحُ قاعدةً ككلمة : مثل ، وأمثالها ..

(؟) علامة الاستفهام ، تُوضَع عقب جملة الاستفهام سواء أكانت أداته ظاهرة أم مقدّرة

(!) علامة الانفعال ، تُوضع في آخر جملةٍ يُعبّر بها عن فرحٍ ، أو حزنٍ ، أو تعجبٍ ، أو استغاثةٍ . أو دعاءٍ ، أو تأسّفٍ ..

(—) الشرطة ، توضع في أوّلِ السّطر في حال المحاورة بين اثنين إذا استغنيَ عن تكرار اسميهما .. وبين العدد والمعدود إذا وقعا عنواناً في أوّل السّطر ..

(— ... —) الشرطتان ؛ تُوضعان لتفصلا جملةً أو كلمة معترضةً ، فيتّصِلُ ما قبلها بما بعدها ..

« » الشولتان المزدوجتان ؛ وتُوضَع بينهما العبارات المنقولة حرفياً من كلام الغير ، والموضوعة في ثنايا كلام الناقل ، ليتميّز كلامُ الغير عن كلام الناقل . ولهذا إذا كانت العبارات المنقولة غير موضوعة في ثنايا كلام الناقل فلا داعي لوضعها بين الشولتين المزدوجتين ..

( ) القوسان ؛ وتوضَعُ بينهما عبارات التفسير والدعاء القصير ..

[ ] القوسان المركّنان ؛ توضَعُ بينهما زيادة قد يدخلُها الشّخصُ في جملة اقتبسها ..

(....) علامة الحذف؛ وهي نقط أفقية.. وتوضع مكان المحذوف من كلام اقتبسه الكاتب .

٣ — هذه العناصر والعلامات هي الجسَدُ اللفظيُّ للروحِ المعنويّ ، أو هي شكل المعنى وصورته . وهذه دلالةٌ اكيدةٌ على قيمة المضمون ، أيْ الروح .فجسَدٌ لا روحَ فيه : جثةٌ منفّرةٌ ، مهما كانت صورته وتقاطيعه جميلة . لماذا ؟

لأنّ الجسَدَ كلّهُ تُنشئه الروحُ الفاعلةُ فيه من الداخل . والعملُ الأدبي الأصيل ينشأُ بفعل الانفعال الداخليّ الصحيح ؛ فالتعبير بالصورة الأدبية يكونُ موحياً ومؤثّراً بما فيه من قِيَمٍ شعورية ، أي من روحٍ حيٍ فعّال .

وهذا الروحُ الحيُّ الدّاخلي هو الذي يُنشىء العمَل الأدبيّ ويُعطيه صورتَه . فجمالُ الصّورة يتألّقُ من حيويّةِ الرُّوح ، وحيويّة الرُّوح تشعُ من تقاطيع الصورة : حروفاً ، وعبارات ، وفواصل ، وعلامات .. الخ .

مجمـــل المحتويـــات

القسم الأول

ويليـــه : القسم الثاني

جنـــاح الخبر : ماهيته وخفقة

المقــدمة

نظــرةٌ في الأرقام العشرة

نظرةٌ إلى محتوياتِ هذا الكتاب : قبل قراءةِ مقدمته ؛ ففي أرقام المحتوى العَشرة : دعوةٌ إلى العِشْرةِ ، وفق مقتضى الحــال •• فإنْ رأى الناظرُ أن « عنواناً » كبيراً أو فرعيّاً : استماله أكثر ، فَلْيُجِبْه ، وليتمهّلْ في قراءته ؛ فقد يكونُ دليلَه إلى سائر أنحاء الكتاب ؛ وقد يجد في العودةِ إليه ، بعــد كل نزهة في غيره ، أُنْساً ومساعدةً وتوعيةً ••

المقدمة •• والإهداء •• والخاتمة : ثلاثة تحتضن السبعة الباقية ما بينها ••• وتلك السبعة : تمثل جوهر هذا الجزء من « عــلم المعاني ومقتضى الحال » •• وهو جزء الإنشاء ، كما اقتضاه المعنى الجوهري لحال البلاغة المجدّدة ••

سيرى الناظرُ المستبصرُ ما بين الرقم الثالث والرقم التاسع : تناغماً جمالياً إجمالياً ؛ يشبه أن يكون مثل التناغم بين أم وابنتها ولو كانت البنت أمّاً بدورها ، أو جدة لأمهاتٍ كثيراتٍ ؛ فمن هي الأم ؟ ومن هي البنتُ ؟ ولماذا ؟ ••

الجواب في « ماهية جنــاح الإنشاء وخفقه » •• ثم في « تاج الإنشاء على مبادىء التجميل وجمال التراث » •• فليسألهما الطامح إلى معرفة « أمّه » التراثية « وابنتها » ؛ لعلّه يتعرّف نسبه في « التراث •• والبلاغة » •• !

إن البحث عن الذات : يبدأ من التوجه المتعرّف •• ومن يحب معرفة ذاته الإبداعية : يجاهد لتحقيق محبته ، وينهض من نومه ومألوفه ؛ فقد يكون الخَدرُ لذيذاً •• لكن التيقظ ، عنده خزائن السعادة وإكسير الخلود •• فأيهما تفضل ؟ !

كذلك بين الرقم الرابع •• والرقم الثامن : يرى الناظر ، ويسمع •• ما لم يكـن في حسبانه ؛ وصدمته ستكون من الموجب مرّة •• ومن السالب مرة •• فمن يصدم الصدمة الموجبةَ ؟ •• ومن يصدم الصدمة السالبة •• ؟ •• !

الجواب في « رسالة النداء » •• ثم في « معالجات ندائية » •• وقد يسمع صدى « البرق » في « أسلوب النداء وعشر فِقَره التي تمثل إحيـاء التراث » من الرقم الخامس (ص ١٧٣ – ١٩٢) •• فلئن كانت « رسالة النـداء » بمثابة ماء الحياة ؛ لأنها : تستنزل الغيث ، بشراً ومطراً •• فإن « المعالجات الندائية » : بمثابة المنابع المألوفة ؛ لأنهـا تمكّن من ذاتهـا بالثقافة والتدريب ، في كتاب ، أو إذاعـة ، أو صحافة ••• بينما سابقتها : عاليـة متعالية ، لا تبلغ إلا بالموهبة والذوق ••

ولئن كانت « رسالة النداء » : بداية من الأعلى ••• فهي « حضرات وراء كلمات النداء » •• لكنها « حضرات إعجاز » لا قِبَل لأساليب البلغاء بحقائقها التي تحقق التصرف والتأثير في جو وجودي : ينفتح بـه الغيب على الشهود •• ويُسمع حوار زكريا ومريم والأنبياءُ : مع الله والملائكة •• كما يسمع حـوار الأنبياء مع شعوبهم •• وحوار الأولياء مع ربِّهم ؛ ففي « خطبة السقيا » : نسمع وليّ الله ، علي بن أبي طالب ، يطالب بالمطر لأبناء التراب ، حتى « للوحش المهملة وللبرية المرملة » •• وبأسلوب تحريضي ، يوشك أن يناول أبناء التراب كؤوس السقيا من لدن العزيز الوهاب ، الذي يثني عليه ويصف له أحوال الناس والدواب : بصور تستثير اهتمام أم عجـوز وحماستها وغيرتها •• فكيف لا يحقق تلبيـة أكرم الأكرمين •• وهو يفتح يديه ، مستغيثاً لخلقه ، قائلاً مثل هذا القول بأسلوب النـداء الأعلى :

« اللهم •• خرجنا إليك •• فارحم أنين الآنّة ، وحنين الحانّة

« اللهم سقيا منك •• محيية •• عامـة •••

تنعش بها الضعيفَ من عبادك •• وتحيي بها الميت من بلادك •••

فإنــك تنزل الغيثَ من بعــد ما قنطوا •• وتنشــر رحمتك وأنت الوليُّ الحميد •• »

كثيرون من شهداء الحق : قدموا دماءهم بتأثير مثل هــذا الكلام الصادق •• وكثير من المعجزات تمت بكلمات صادقات •• وقد أغنيت « رسالة النداء » بنماذج منها •• فليرد « فمَ النبع » من يحب الشراب الطهور •••

مقابل « رسالة النــداء » : يظهر « أسلوب النداء » ، وفيه : « رعــد من صدى البرق » •• لكنــه مُحوِّل تحويل إخصاب ، يعلّم كيفية « نفــخ بوق الإحياء » •• أو كيفية تسيير الجرافات في أرض بور تحتلها صخور الدهور ••••

أما الأرقام الوسطى « الخامس ، والسادس ، والسابع » : فتمثل مظاهــر المعاني في مقتضى حال الإنشاء ، وقد جاءت على أمزجة من مقتضى الحال ؛

ففي الرقم الخامس « أساليب الإنشاء الطلبي » : كانت الحركة هدوئية ، كمن يحرث أرضه بمحراث قديم •• ظلت التربة محتفظة بلونها الترابي ، وإن كان الشق قد أحدث فيها دروباً للبذور •• وذلك مع أساليب « التمني ، والاستفهام ، والأمــر ، والنهي » •• فلقــد ظلت أصوات القزويني والسكاكي والجرجاني : واضحة •• حتى كأنهم وحدهم في براري البلاغة ••• في أسلوب النداء : اختلطت الأصوات •• وسمعنا حواراً مع القزويني •• ثم سمعنا محاسبة له •• ويبدو أنــه صمت ليسمع عجباً من إبطال دعواه في « قضية النداء » •••

وفي الرقم السادس : كنا كمن يحول أرضاً بوراً جرداء إلى أرض معمورة خضراء ؛ ففي « أساليب الإنشاء غير الطلبي » : كُشِــفَ « زمزم » القسم [1] •• والتعجب •• والعقد •• والرجــاء •• والمدح •• ونعمت هاجــر أم اسماعيل : بنجدة ابنها وانبعاثه أباً للفصاحة العربية والأمــة وخاتم النبيين (ص) كذلك ••• كما نعِمت سارة أم اسحاق : بإصلاح رحمها وتَحقّقِ البشارة الملائكية بابنهــا المعروفَ بخُلُق الرضى ، وجَدِّ « موسى •• وداود •• وعيسى » •• (ص) •• [2]

---

١ ــ لاحظ : أساليب المدح والذم ص ٢٥٣ ؛ ٢ ــ أسلوب التعجب : ص ٢٢٨

في الكشف والإنعام : هيمن جوّ المعجزة والإعجاز ، على مستوى الطبيعة والإنسان •• فبدت « أساليب الإنشاء غير الطلبي » : عالماً جديداً لبلاغة المعنى اقتضته الحال من « آنات الزمان المتجاذبة » ؛ فكأن هــذه الأساليب « برزخ » بين مستقبليّ الطلب الإنشائي •• وبين ماضويّ الاستقرار الخبري •••[3]

أعطيت هذه الكينونة المجدّدة لبعث هذا العلم المتعرف إلى « أحوال اللفظ العربي[4]» : بتجلياتٍ جديدة اقتضتها حال المعنى الراغب بصدق المطابقة بين الداخل والخارج ؛ بين البيان والجنان من جهــة ، وبينهما وبين الواقع الكوني الخارجي من جهــة ثانيةٍ مقابلة •••

يتضح مصير هذه الكينونة بتجليات المعنى في أحوال الخبر والجمل ، حيث نكون قد وصلنا إلى الجــزء الثاني من « علم المعاني ومقتضى الحال » ؛ وهو : « مقتضى حال المعاني في بلاغة الخبر » ••

قبل ذلك : دعانا الرقم السابع « خاتمة الأساليب » ، لوقفة قصيرة ؛ لكننا تعرفنا بهــا إلى أسلوبين جديدين من أساليب الإنشاء الطلبي ، هما : « العرض والتحضيض » •• وكأنما جــاءا ليذكّرا بالمستقبل ثانية •• وفي هــذا التذكر : سُمعت أصوات مختلطة من « الطلبي وغير الطلبي » ، أي من المستقبلي والحاضر•• وكأنما فهمت من الاختلاط : الدعوة الحاضة المحرضة على « إقامة سنن التفكير » ؛ لأن ساعة التفكر : ذات خير عميم ، كما في العبارة النبوية الشريفة ؛ « ساعة تفكر خير من عبادة ستين أو سبعين سنة » ••

فهل استجبنا •• ونجيب : لهذه الإقامة المنتظرة ، الآن وغــداً ، كما كانت هادية فيما مضى ؟

---

٣ ــ هذه الاشارات الى الوقائع المعالجة : اقتضت هذا التعبير المركز ، وتفاصيله في الأساليب ذاتها .
٤ ــ تعريف السكاكي والقزويني لعلم المعاني في « الإيضاح » : ص ٨٤ ــ ٨٨

هذه مقدمة التعريف بالأرقام العشرة •• فهل ظل ما يحتاج تقدمة وتعريفاً في هذا الجزء من « مقتضى الحال » ؟

نعم : إن البوابات الإخراجية تحتاج التفاتاً تأملياً ؛ لأنها ثمار من مواسم « علم المعاني » المتنوعة تنوع الفصول ، باعتبار « مقتضى الحال » : لا يكف عن دغدغات الخيال ؛ كأنه تموجات بحر الزمان في تنغيمات الساعة أو خفقات القلب •• أو دغدغات العطور المتخفية بألطاف النسمات •• قد لا يصح وصف هذه « الأسرار الإعجازية » التي تقتضيها الحال في مطابقات بين القلب والحرف : لا تتاح لغير الذائقين •• ولو شرحناها مراراً وتكراراً •• وإنا محاولون ، ثقة بمن قال : « لئن يهدينّ الله بك إنساناً واحداً : خير لك مما تطلع عليه الشمس وتغرب •• »

ومع ذلك فواجب الوجود : يفترض فرائضه وسننه ؛ ليمنح حسناه وزياداته على الحسنى ، لمن يشاء من جهتين : جهة العبد الذي يشاء فيعطى •• وجهة الرب الذي يشاء فيلبي النداء •• وفي تاريخ الكرماء : ما يهز النخل الميت فيُرطِب •• وما يداعب الصخر فيورق ويدمع ••• وفي أخبار الخضر من الأنبياء •• وعلي الهادي من الأئمة : ما يضع في جو من الإعجاز المعجز ؛ أيشعر شاعر بلهفة دخول إلى حضرة من يتأثر بالكلمة حتى يجود بنفسه [1] ؟ ••

كنت أستسلم لنداء الحال ، أحياناً ؛ وكنت أراقب مقتضياته ؛ لكنني كنت أذهل عن المراقبة ، أحياناً أخرى ؛ ثم أكتشف آثار حريته في النصوص المتلقاة ؛ فأقول : لكنه تجاوز مألوفاتي وحدودي المظروفة بمكاني وزماني وعاداتي الثقافية •• أشير إلى مثالين افتتاحيين ؛ وهما المثالان الأولان في بوابة « رسالة النداء ، ص ٢٧ » •• وفي سابقتها ، بوابة « مقتضى حال المعاني في بلاغة الإنشاء ، ص ١٧ » •• ماذا نجد من تجاوزات مقتضى الحال في هاتين الرباعيتين ؟

---

١ ــ لاحظ : حكاية « الإهداء » .. ص ١٢ ــ ١٦

في رباعية « المقتضى » : امتزج وزنان في سياق واحد ؛ في الأشطار الثلاثة الأولى : جاء الوزن من الخفيف « فاعلاتن •• مستفعلن ، فاعلاتن » ••• وفي الأشطار الخمسة التي تلتها : جاء الوزن من الوافر « مفاعلتن ، مفاعلتن ، فعولن » •••

لم أنتبه إلى هذا الامتزاج في حينه : لكنني فهمت منه مزاج « مقتضى الحال » في مزج التفاعيل عند المدخل المشترك بين أساليب الإنشاء الطلبية وغير الطلبية •• وكأنه يومىء إلى المطابقات بين الموسيقى وحركات المعنى في الصور الأسلوبية ••

هذا تجاوز للعادة المألوفة من ثقافتنا العروضية ••

التجاوز الثاني : في رباعية « المدخل إلى رسالة النداء » •• إن التأمل فيها : يمنح ما يقتضيه حال المتأمل •• ورؤية « نهر المسيسبي » من دمشق : مسألة مكانية لمن لم يزر قارة المسيسبي مطلقاً •• وهذه إشارة : تقاس عليها صواحبها في الرباعية •• فليحاول متحسس ذو حساسية مرهفة •• ويجب الانتباه إلى آية (الإسراء ٨٠) قبل الرباعية ••••

إخراج المداخل : حوى ثلاثاً وعشرين صورة ؛ بكل منها « مقتضى حال لبلاغة الإنشاء في علم المعاني » ••

ومثلها : صور الإخراج الداخلية ؛ لأن علم المعاني : ذو وظائف إبانية من أهمها : معرفة أحوال اللفظ في علائقه ؛ لأن هذه المعرفة توصل إلى التطابق مع المعاني •• ولهذا جئت بمصطلحين جديدين ، هما : « مبادىء التجميل » •• و « حضرات وراء الكلمات » •• فالأول بنيوي جمالي •• والثاني دلالي معنوي••

وبكل حال : أجرب إقناع « أهل الذوق بوحدتهم[1] » •• وهذا مطلب :

---

١ ـ « أهل الذوق أمة واحدة » : عنوان الكلمة التي ألقيتها في احتفال وزارة الأوقاف السورية ، في الذكرى السنوية الأولى ١٩٨٧ ، لغياب الشيخ « عبد الرحمن الخير » .. في جامع الإمام الصادق (ص) ، في دمشق .. وفيها جربت ما أعرفه من « بلاغة علم المعاني » على مسألة « الاعتقاد الموروث » ..

لا يبلغ بغير ثمن ؛ فقد يحتج الأبناء والآباء معاً : لأن بعث صخور الجبال لتكون بيوتاً يحتاج همم الفعلة والشغيلة والمهندسين ومؤمني مؤونة البناء •• وأين هم ؟ !

أضرب أمثلة مما يعترض ، ومما يساعد « مقتضى حال التطور البلاغي » ، في سياق التعامل مع « علم المعاني » ••

١ — منذ ١٩٨٢ إلى عام ١٩٨٦ : درست هذا العلم لطلاب السنة الثانية ، وفق كتاب جامعي لزميل كريم ، هو الدكتور مزيد نعيم •• وأهنىء الزميل : أنه لم يكن مدرس الكتاب ؛ لأن إخراجه بثلاث وسبعين صفحة ، وبكيفية يعرفها : لا يريح •••

لكنه ترك آثاراً في نفوس بعض الطلبة : فظنوا أن الإخراج الجميل لهذه المادة ليس واجباً ، مع أن « علم المعاني » بقواعده : ليس إلا التعرف إلى أحوال الإخراج ، لتكون أدلة تبليغ إلى المعنى الساكن بالبناء ••

ومما كتبه هذا الفريق من الطلاب لرئيس قسم اللغة :

« بالنسبة للدكتور أسعد علي ومادته « علم المعاني » : فإنهطلب منا أن تكون حلقة البحث على شكل دفتر أو كتاب (ذو) إخراج حسن •• وهذا ما يصعب علينا ••• »

حافظت لهم على الخطأ النحوي في « ذي الإخراج الحسن » ؛ وما لم يسمعوا ، بقلوبهم قبل آذانهم ، مبادىء ذوي الألباب : لن يكونوا منهم ولو حملوا شهادات الغرب والشرق •• ومن الأمانة التربوية : أن لا نلبي طلب من يحب الاحتفاظ بعاداته الخاطئة في ذوق الإخراج ؛ لأنه الأدب والخلق والدالّ على صاحبه ••

ولماذا لا يكون هذا الفريق من « العَجَزة » ؛ مثل الفريق الآخر من زملائه محبي « الإعجاز » •• ففي سنة ١٩٨٤ — ١٩٨٥ : اطلعت على دفاتر بعض طلاب « علم المعاني » فأعجبت بذكائهم ومقدرتهم على الترتيب ، وذكرت في « فن الحياة

فن الكتابة ، ص ٤٨٣ » لوناً من هذا •• وأكرر : « ليسود العنب على رؤية بعضه بعضاً » •• أمثل لذلك بمحاولة واحـدة :

أخرجت هيام مظلوم : محاضرات ذلك العام ، بمجلدين صغيرين ؛ فيهما : اثنتان وثلاثون محاضرة •• ختمت المجلّد الثاني بمثل ما كان يفعل شيوخ البلاغة القدامى ، فقالت : « تمت بحمد الله وعونه »

محاضرات « البلاغة الممارسة والتربية النقـدية » للعام الدراسي ١٩٨٤ – ١٩٨٥ ••• والمستوحاة من : صدق إشعاع نور الله في النفوس ، وصلاح البال في الأحوال ، وإخلاص الروح للخلوص والسمو ، ومعاناة المعنى في الكلمة » •••

٢ – وكما في المسألة الإخـراجية : كذلك في صميم المسألة الدلالية ، أو المعنوية ؛ فقد سمعت واطلعت على آراء مختلفة في « التركيز على المعاني » حتى بلوغ الكشف ، أو ما نسميه « الحضرات وراء الكلمات » •• وهذا أمر مشروع في التربية التطورية ؛ فقد عرض « ريتشاردز » في كتابه « مبادىء النقد الأدبي » لسبعة مستويات من التعامل المتفهم في العمل الأدبي ، أولها : مستوى سماه : « فوضى النظريات النقـدية » •• وسابعها وأعلاها : مستوى سماه : « نظريات الحقيقة والكشف » •• وهذا المستوى الكشفي : غاية علم المعاني •• ومع ذلك سمعنا ورأينا من يقول « ••• لا يتطلب الموضوع هذا التركيز » ••• وإنني أعفو عن أصحاب الرأي ، وأرجو لهم انشراح الصدر « لسعادة الوعي في رؤى الشاعر والناقد [١] » •• وفي : صبر العالم وغيريته وموضوعيته ، أيضاً ••

وفي المقابل : يرجع إلى هذا التركيز ذوو ألباب ، لكلامهم في « ذوق المعنى » إثارات وإنارات ؛ ومنهم شرقيون وغربيون وما بين الشرق والغرب ؛ فكلهم قبلوا

---

١ – هذا عنوان سلسلة مؤلفة من اثني عشر كتاباً ؛ أولها : كتاب الأشجار ، صـدر عن « دار الفصون » في بيروت ١٩٨٥ .. وأصلها مسلسل إذاعي : جربت فيـه « أسلوب الإيجاز » ؛ ففي كل حلقة كنت أقرب « معنى ديوان شعر » أو كتاب ؛ وهي (366) حلقة ، على عدد أيام سنة كاملة .. أذعتها بصوتي من إذاعـة دمشق ، سنة ١٩٧٩ – ١٩٨٠ ..

« تركيزنا » •• مع أنني لم أزر « مقهى النجمة » •• ويقال : إنـه ملتقى جماعة من الأدباء والشعراء في دمشق •• تشبهاً بملتقى « سان جرمان » بباريس ••

مفكرو « السبر الأدبي » •• ونقاد « أسطورة الصحراء » •• ومن ذكروا في « كتـاب الرسائل » : ممن يأنسون بالتركيز عـلى « المعنى » حتى بلـوغ « الحضرات وراء الكلمات » •• أو حتى الوصول إلى « الحقيقة والكشف » •• نلاحظ : المقدمة الإخراجية لفن الكتابة •• وما تلاها ؛ لنرى الاهتمام « بالمعاني » : من لينينغراد إلى واشنطن[1] •• مروراً باستكهولم ووارسو وباريس[2] •• ونحن في عالم العـرب المتوسط ، ولا بأس من التوقف مع رسائل : جعفر الكتاني من المغرب •• ومحمد أركون ، الجزائري الأصل في فرنسا •• وتوفيق فهد ، اللبناني الأصل في ستراسبورغ ؛ وعبد العـزيز السعيد ، السوري الأصل في واشنطن ، وابراهيم جوهر ، العراقي الأصل في استكهولم •• ومن عبارة الصديق المغـربي ، الدكتور جعفر الطيار الكتاني ، قوله : « وأي لفظ منحنا معنى ، لو لم يكن المعنى قبله هو الذي خلق اللفظ » ؟ ! •• (فن : ٤٨٣) ••

٣ — الإخـراج الفني •• والتركيز المعنوي : مسألتان تدخلان في تكوين الشخصية الإنسانية في مجتمع يحتاج ثقافة موقظة مجدّدة •• وكلماتنا تحتـاج تركيزاً مخلصاً مـن ذي اهتمام منتبه : لتبوح بكنوز حبهـا وتقدير إخلاصها ؛ ولا بأس من الأدلة الواقعية ؛

أ — ما من أحد بلا عمل •• الكل يعملون ؛ هذا صحيح •• وقد تكون لهم ترويجات وشعبيات ، أيضاً ؛ وهـذا صحيح •• لكـن ماذا يعملون وما قيمـة ما يقدمون •• أهو نافع أما منافع ؟ !

---

١ — إشارة إلى رسالة « فلاديمير ماركوف » ، مؤلف « مسألة الإنسان في الفلسفة العربية المعاصرة » ؛ بعثها ١٩٨٠ ..
وكذلك ، رسالة « عبد العزيز السعيد » ، المهتم بالعلائق الدولية والإنسانية ، مع الشرق الأوسط ؛ بعثها ١٩٨٦ من وارسو ..

٢ — لاحظ « الرسائل » في : « فن الحياة فن الكتابة » .. و « محطات في تـاريخ الفكر » من « السبر الأدبي » ..

المثال العملي الذي وضعته في هذا القسم من « علم المعاني » : هو التجربة على مسألة جزئية بسيطة ؛ لتكون مفتاحاً إلى غيرها ، هذه المسألة هي « النداء » ، كما قدمه القزويني في أشهر كتابين بلاغيين في جامعات العرب والمهتمين باللغة العربية .. فلنقف مع هذه التجربة ؛ لنكون على بينة من أعمالنا وادعاءاتنا .. أرجو التأمل بالمسألة (ص : ١٧٣ – ١٩٣) ..

ب – كذلك جربت على صفحة تراثية واحدة ، أخضعتها لمقتضى حال الإخراج في علم المعاني : فأجريت عليها ستة وثلاثين تحسيناً .. منها ما كان في الخطأ الذي لا يجوز .. مع أن الصفحة من « خصائص الأئمة » ، وهي مقدمة الشريف الرضي ، والذين أخرجوه : مجمع علمي ومركز بحوث إسلامية .. ولا يشك بإخلاصهم وعلمهم ؛ لكنه التركيز على « مبادئنا في علم المعاني » ..

ينبغي الالتفات إلى هذه القواعد الإصلاحية ، التي نسميها « مبادىء التجميل » و « حضرات وراء الكلمات » .. وإنني واضع : صورة الصفحة المحسَّنة .. وإخراجها الجديد .. وعلامات الترقيم ملحقاً لهذه المقدمة .. وأرجو ملاحظة : المصاحب الخامس لنص « السقيا » الممثل للتجربة (ص ٢٩٦) ..

جـ – كذلك ألحق بهذه المقدمة صفحة مصورة من « علم المعاني » الذي درسته السنوات الخمس الفائتة .. وهي معالجة لأسلوب النداء ؛ فتكون فائدتها مزدوجة : « للإخراج .. وللمادة العلمية » .. والفائدة الثالثة : للمقارنة بين إخراج الصفحة الجامعية في دمشق ، وبين الصفحة « المجمعية » في مشهد الرضى ؛ سلام الله على الإمام الرضى ...

د – يمكن كذلك التأمل بكيفية إخراج نص تراثي ؛ ليكون بتقطيعه الجملي : دالاً على معانيه وآنات النفس وفق مقتضى حال صاحبها وموضوعه ومخاطَبه .. فانظر صورة لهذا الإخراج في « مقتضى حالنا الجامعي » .. (ص ٣٠٠ – ٣٠١).. وانظره مصوراً عن إخراجه في « نهج البلاغة ذي الفِقَر والشرح العصري » .. ولو بصورة مصغَّرة ؛ لأنها في الأصل من القطع الكبير ، المماثل لكتابنا الاتحادي : « في أضواء القرآن » ..

هـ – وقد يكون التأمل بمصوَّر النص المدخلي لـ « صلوات الصحراء ، حال الطهارة » : معيناً على تمثل هذا الإخراج الذي يقتضيه « علم المعاني » •• وكذلك ما سبقه وما لحقه : يزيد الفكرة وضوحاً •• بعملنا ؛ ليكون دعاء نستسقي بـه مطر الفهم وخصب الذوق لكلٍّ وفق مقتضى حاله وأشواق معانيه ••

٤ – نكتفي بهـذا المقـدار لقسم الإنشاء ؛ ففيه تجربـة مثالية لإصلاح « القاعدة البلاغية » ، كما نرى في « أسلوب النداء » •• وفيه تجربة كذلك مثالية لقراءة نص من « البلاغـة الممارسة » ، كما نرى في « تـاج الإنشاء على مبادىء التجميل وجمال التراث » ؛ والنص مأخوذ من « نهج البلاغة ذي الفقر والشرح العصري » ؛ وهو الخطبة : ١١٤ ؛ نلاحظ (٢٨٧ – ٢١٥) ••

٥ – لذلك أرجأت إلى القسم الثاني : ما هو ذاتي التجارب •• وموضوعي المكاسب •• وغيري المواهب •• لأن القسم الأول : يحرض مثل هـذه القوى ويشوقها ؛ لتكون مستعدة للمستوى الخبري في وقائع الإعجاز ، بلاغة وحياةً ••

٦ – هذه النماذج الإخراجية المصورة من آثارها ، كما هي ، تقول بالحال : أكثر مما يصوره المقال ، لذوي الانتباه •• لذلك جعلتها قبل المقدمة والإهـداء ، ويمكن أن تكون بعدهما ؛ ليكون الداخلون إلى « مقتضى حال المعاني في بلاغة الإنشاء » : قـد رأوا أساليب الإخراج وموجباته ، بصور جزئية تمثل للصورة الكلية ، التي عليها بلاغتنا وتراثنا ، من وجهة الثقافة ؛ والتي عليها إنساننا ، مـن وجهة « الأمانة والحرية والتفكير والصدق » •• ثم تلك التي يجب أن يكونا عليها : « الثقافة والإنسان » •••• فباسم الله نقرأ :

٧ – في قسم الخبر : نصل إلى « إعجاز المعنى » و « جمال الجُمل » •• ومطابقات ما بين نظري البلاغة وعمليها •• إن شاء الله ••

بلى من الهـادي محيط عرفتـه   بذوقك في الإنشاء عند التحقق ••!

اسـعد عـلي

١٤٠٨/٢/٢٤

الإهداء

الى النقيِّ الهادي العاشر

أشرتُ في المقدمة إلى نماذجَ من كرم الأنبياء والأئمةِ : ينقل إلى جوٍّ من الإعجاز الخلقيِّ ، يحبو فيه التخييل الشعريُّ حبواً [1] ؛ لأنه : تصرّفٌ عمليٌّ مدهِشٌ ، لا قِبَلَ للمألوف المعتاد به ؛

ومن المعلوم : « أن البلاغة تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة الكلام [2] » .. لذلك يكون الكلام المصور للتصرفات المدهشة : فرصةً عُليا ، تسنح لطلاب « علم المعاني » ؛ ليتأملوا في ماهيّة الكلام المطابق للمعنى الخارق البارق بالمعجزات المبتَكرة ..

أحيلُ إلى سورة « الكهف » ؛ ففيها : نماذج من المعجزات ، عُبِّرَ عنها تعبيراً إعجازيّاً ؛ صوّر حياةَ « فتيةِ الإيمان » في سنوات نومهم (٣٠٩) .. وصور فيها خبرة « ذي القرنين » في بلوغه « مطلع الشمس ومغربها » وفي بنائه « السد الحابِسَ ليأجوج ومأجوج » .. وصوّر فيها لقاء « كليم الله موسى ، مع العبد المُعطَى علماً لَدُنيّاً ، وهو : الخضر ، أو بِلْيا » ..

الآيات المصوِّرة للقاء « مجمع البحرين » بين « موسى والخضر » : هي الكلام المطلوب لعلم المعاني ، في هذا السياق ، لأن موسى الكليم : يظهر شجاعة خارقة الطموح ؛ فيطلب تعلم مستوى من الرشد « لم يحط به خبراً » ؛ ويريه

---

١ ـ التخييل في رأي النقاد : بلوغ إلى ما يتجاوز الواقع المألوف ، ويكتشف عوالم جديدة ..

٢ ـ الايضاح : ٨٠

الخضر ثلاثــة أفعــالٍ ، لا يَصبر عليها ؛ فيفارقه الخضر بعــد تأويل الأحداث الإعجازية له ..

هــذا « الخضر الفائق » : يحدث عنه خاتم النبيين ، محمد بن عبد الله (ص) أحاديث ، فيها ما ذكر في سورة الكهف ، وفيها عجَبٌ من الكرم المعجز ؛ فقــد سأله سائل « بأسلوب القسم » : ليتصدق عليه .. ولما لم يكن معه ما يتصدق به ، قال لمن سأله « بوجه الله » : بِعْني وخذ ثمني .. وباعه بأربعمائة درهم .. وخدم من اشتراه ، حتى اكتشفه ؛ فاهتدى بهديه ، وأعطاه أربعمائة دينار ، وحرره ..[1]

هذا عجَبٌ في تاريخ الكرماء والأقوياء .. والأسلوب الذي يصوره : من الأساليب البلاغية المعجزة ، قرآناً وحديثاً ..

وما أحدّثُ بــه عن الخضر : ليس روايةَ « قال زيد ولم يقل عمرو » .. بل هي ارتواءٌ متشبّعٌ : ملأ تجربتي الكتابية حياةً ؛ فكان : برنامج ، « اللغة والحياة في شاعرية القواعد[2] » .. وكان : « تفسير القرآن المرتب منهــج للسير التربوي[3] » .. ولذلك كان : إهداءُ الطبعة الجديدة من «التفسير.. التربوي».. ومن « اللغــة والحياة » .. لخضر الله الحيّ .. ويمكن التوقف مــع فاتحــة « المعالجات الندائية » : لسماع الموسيقى الزهراء ، تنبعث من حديث الحبٍّ عند اللقــاء مع أبي « خاضراء » ... (ص ٢٦٩ – ٢٧٠)

أمّا مثال الكرم الآخر ؛ فقد استوقفني له : الإمام العاشر ، علي بن محمد النقي الهادي (ع) ؛ وقد شابهَ كتابُ سيرته : بين مواقِفَ منه وبــين موقفِ الخضر الكريم ..

من مواقفه تلك : أنه « خرج يوماً من – سر من رأى – إلى قريــة ، لمهمٍّ عرض له .. فجاء رجل من أعراب الكوفة : يسأله عونــاً في قضاءِ دَين فادحٍ

---

١ – لاحظ تفاسير سورة الكهف ؛ « مجمع البيان ، للطبرسي » ، مثلا .. وتأمــل ما نقل عنه في « الصحاح » برواية ابن عباس وغــيره ..
٢ – انظر من نماذجه وما قيل فيه « معالجات ندائية » ص ٢٥٩ وما بعدها ..
٣ – صدر أول مرة ، سنة ١٩٧٩ عن « دار السؤال » بدمشق ..

عليه •• ولما لم يكن معه : ما يستطيع به تلبية ذلك الأعرابي ؛ فقد كتب له ورقة بخطّه : يعترف فيها أن للأعرابي عليه ما يلتزم بتأديته عندما يعود إلى « سر من رأى » ••• ولما عاد : حضر عنده جماعة كثيرون من أصحاب الخليفة ، وغيرهم •• وحضر ذلك الأعرابي وطالبه بالدين •• وعنّفَ بالمطالبة •• فاعتذر له الإمام •• واستمهله ••• « فنُقِلَ ذلك إلى الخليفة المتوكل : فأمر أن يُحمَلَ ، إلى أبي الحسن الهادي ، ثلاثون ألف درهم •• فلما حملت إليه : تركها إلى أن جاء الرجل ؛ فقال : خذ هذا المال ؛ فاقض منه دينك ؛ وأنفق الباقي على عيالك وأهلك ؛ واعذرنا ••• » (الأنوار القدسية : ٢٣٤ – ٢٣٥)

والحكاية : ذات تتمات في « الأنوار القدسية » •• وفي « أعلام الورى » •• والشاهد البلاغي : من طاقة الموقف على التأثير ، حياةً وبلاغة ••

ومن مواقفه اللغوية التعليمية : ما يدخل في مستوياتٍ من الإعجاز ، غيرِ مفهومة ؛ لكنها أخاذة ومثيرة ، تلهم المتأمّلَ فيه : صوراً وكيفياتٍ من الطموح إلى « سعادة الوعي » ومن البلوغ إلى عوالم من « رؤى الشاعر والناقد » •• ومن التعرف إلى « أحوال من مذاقات » ؛ بعضها يُعبَّر عنه بمثل « وردة في الصقيع »•• أو ، بمثل « أسطورة الصحراء »•• أو بمثل « في أضواء القرآن »•• وبعضها لا يُعبَّر عنه ، بل يظلُّ « حالاً من العلم يُسعد وراء كل مقال » [1] ••

من تلك المواقف : ما رواه أبو هاشم الجعفريُّ ، وهو داود بن القاسم ، ابن إسحاق ، بن عبد الله ، بن جعفر ، بن أبي طالب •• وجعفر ، الذي ينتسب إليه أبو هاشم ، هو « الطيار » : الذي دافع عن المهاجرين اللاجئين إلى الحبشة ، وأقنع « نجاشيّها » بوحدة النور الذي يستضيء به خاتم النبيين ، وعيسى بن مريم ، وآدم أبو البشر ••• يقول أبو هاشم :

---

١ – عناوين أعمال صدرت ؛ انظر منها حديثاً « عشر معلقات نقدية حول قصيدة حديثة » ؛ والمقصود « أسطورة الصحراء » .. وتأمل كيف يصور « المعنى الواحد » بمتنوع من الصور ؛ كل من أصحاب « المعلقات هذه » صور معنى القصيدة وفق مقتضى حال ، أحس به ورآه ..

« دخلت على أبي الحسن (ع) : فكلمني بالهندية ، فلم أحسن أن أرد عليه ؛ وكان بين يديه : ركوة مُلِئَتْ حصى ؛ فتناول حصاةً واحدةً ، ووضعها في فيه ، فمصَّها مليّاً ، ثم رمى بها إليَّ ، فوضعتها في فمي •• فوالله : ما برحتُ من عنده ، حتى تكلمت بثلاثة وسبعين لساناً ، أولها : الهندية » ••• (ص : ٢٢٧)

إن هـذه الحكاية : مثيرة لمحبّي البلاغة في اللغات •• لكنها من المعجز المدهش •• وقد احتج نجاشي الحبشة على مشركي قريش : بأن حواريي المسيح كانوا يتلقون معرفة ألسنة الأقوام من نور يُرسَلُ فوق رؤوسهم •• ويريد أن يقول لهم : لا غرابة لأهل الذوق بالمعجز من الكلام الذي دافع عنه جعفر الطيار ، جـد أبي هاشم ••

الأهم في البلاغة : بلوغ المطابقة بين العبارة والطبع والطبيعة •• بينها وبين الواقع والاعتقاد [1] ؛ بذلك يكون المعبِّر وكلامه : بليغـاً ••

حاولت لي ولمـن يحبون تحقيق ذواتهم بصدق ••

هنيئاً لداود بن القاسم الجعفـري ، ونغبطه لسعادة تذوقه مذاق الإمـام الهادي ••• ولقد فهمت من روايته : أن « بالركوة حصىً كثيراً » ، من نوع تلك التي ذاقها •• وحبّاً بالهادي ، وبمعرفة أحوال اللغات الموصلة للتطابق مع مقتضى الحال : أقدِّم « علم المعاني بجزئيه » لمعلم اللغات بالتذوق •• لعلني أحظى ، أنا ، أو واحِدٌ ، أو أكثر من واحد من قرائي : بمثل ما حظي به « داود الجعفري » ••

لا أريد وثيقة : تؤكد أنني دائنٌ كابن الكوفة •• ولا أريد أن يبيع الكريم نفسه للتلبية ، كما فعل الخضر ••• لكنني أظهر « ثقتي » بمطلَق : يظهَر بمـن يَشاء وكيف يشاء ؛ فيعلّم أساليب « الخبر والإنشاء » من مستويات أدناها في الأرض ، وربما تحت الثرى ، وأعلاها في السماء ، وربما فوق ما نراه السماء ••

---

١ ــ لاحظ : دلائل الإعجاز ؛ للجرجاني : ص ٤٠٥/الأصل بمعاني الكلام هو الخبر.. وانظـر الجاحظ ، في ما نقل عنه ، الإيضاح في علوم البلاغـة ، ص ٨٦ ــ ٨٨ فصدق الخبر : مطابقة الحكم للواقع من اعتقاد البليغ المخبر .. والبلاغة كلها : مطابقة الكلام لمقتضى الحـال ، ص ٨٠

بهـذه الثقة الودودة : أحاور كرماء الإعجاز والمعجز •• وأرجو أن يصبر علـيَّ « الخضر » بلا فراق •• و « الهادي » بلا مَـلَـل •• و « أحبابي بلا ندم » ••

وما أسأله لي : أسأله لذوي الصلات بي ، من طلاب وغيرهم ، ولمن يحسنون بنا الظـن نرجو البلوغ •• ولغيرهم نجتهد ليتعلموا البلاغة وممارسة المطابقة ؛ فذلك : الصدق ؛ وذلك ما ينفع الخلقَ ، كما قال الله للمسيح في سورة« المائدة »•• وكما قال ابن مريم :« ما نفع العالم لمن خسر نفسه ؟ ! »

اللهم استجب دعوة « المائدة » [1] •• واستجب لنا مديد الرجاء في أناشيد « الأضواء » [2] وغيرها :

يا بديعَ الأرض والسماوات

أزهـر علائقي باللغـات

واجعلني مفهوماً كالبسمات

واضحاً كأرواح النسمات [3] ••

الأحد ١٨/١٠/١٩٨٧ = ٢٥/٢/١٤٠٨

(١) قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيداً ، لأولنا ، وآخرنا ، وآية منك .. وارزقنا وأنت خير الرازقين .. (المائدة : ١١٤)

(٢) في أضواء القرآن : (٧٢٠) نشيداً .. أخرجت في مجلد واحـد ؛ « أصدرها الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية » ، بباريس ١٩٨٢ .. وانظر : « السبر الأدبي » ، مقالة جوزف صايغ ، رئيس الاتحاد ، (ص ٣٠٨ ـ ٣١٦) وتأمـل قيم الإخراج .. ثمَّ تعجبَّ كيف يقدر « أهل الذوق » مثل هذه القيم ؛ ففي واحدة من نسخ هذا الكتاب : وصل إلى « الاتحـاد » (569,000) فرنـك فرنسي ، يعني (2,580,500) ليرة سوريـة ، اي اكثـر مـن راتب أستاذ في جامعتنا ، طوال عمره .. وقيمة المسألة : رمزها .. فهل يقبل أهلنـا منـا « مجانية » ذلك ؟ ... ومنبعيته .. أم أن وقتهم لا يضيع بمثل هـذه القيـم المعنوية ؟ أم ان هذا صعب عليهم ؟.. أم انه لا يتطلب تركيزاً ؟!.. حسبي الله..

٣ ـ في أضواء القرآن : فاتحة « الحال السادس » ، حال الرحمانية ، (٨٤٥)

مقتضى حال المعـاني

في

بلاغـة الانشاء

أ ـ جناح الانشاء : ماهيته وخفقه
ب ـ رسالة النـداء : البدء البلاغيّ الجديد
جـ ـ أساليب الطلبِ وغيرِ الطلب
د ـ معالجاتٌ ندائيـة
هـ ـ تجميـل التراث

يا بـديعي .. متى ربيعُك يشـدو ؟!
بمعانيـكَ يـا مهيمـن .. أعـدو

فأعـذني .. ولا تخيِّبْ طمـوحي ..
لعـلَّ رجـاءَنا للصـدقِ وعـدُ

فواعجبي ومـن أحـدٍ عـديـدٌ
يَـدُ العـينِ الفراتُ وذاكَ رُشْدُ

أخيِّـلُ ثـمَّ أقسِمُ في مـديحي
عقودُكَ للرجـاءِ .. وحبٌ عقـدُ ..

١٩٨٧/٩/٩
١٤٠٨/١/١٨



جنـاح الانشاء : ماهيته وخفقـه

- ١ -

مَثَلُ « عِلم المعـاني » : مثلُ طـائرٍ ؛ جناحاه : الإنشاء والخبـر ••
وكما في كل جنـاحٍ من جناحي الطائر : رياش ظاهرة يُسمّونها القوادم ، وباطنة يسمونها الخوافي ؛ كذلك لكل من الإنشاء والخبر : أقسامٌ يقتضيها حال الظواهر وأقسام يقتضيها حـال البواطن ••

فجناح الإنشاء : فيه ما تقتضيه الحال لطلَبٍ يستدعي مطلوباً ؛ كطلب الفهم لما يُستفهم عنـه بقول الأم لأبنائهـا : ألَمْ أرَبِّكمْ صغاراً ••؟•• أو : كطلب الالتفاتِ إلى المنادي والإقبال عليه من المنادى بأسلوب النداء ، مثل : « ياربِّ إني وهن العظم مني » ••

وفروع الأساليب الطلبية ، خمسة ؛ ومثلها فروع الأساليب غير الطلبية ••

ومقتضى الحال : أوجب فهم علم المعاني بألوان جناحيه ، الإنشاء والخبر ••

وفي بحث الإنشاءِ : دخلنا من معناه إلى فروعه العشرة ؛ وقد عللنا : التزامنا بالقواعد القديمة من جهة •• ثمّ حريتنا بفهمها وإخراجنا ؛ فكنا كمن يرثُ أرضاً منوعة التضاريس ؛ ولا بـد لاستغلالها من كسر الصخور حينـاً •• ومن قصّ الشجر حيناً آخـر •• لكنه في الكسر والقصّ : يريد إصلاح الأرض •• ويجتهد لتعطي أحسن ثمارها ••

لناخـذ مثلا : اسلوب النـداء ؛

قدّمه القزويني في « مختصره » : بثمانية أسطر ••

وقدّمه في شارحه « الإيضاح » : بأربعة عشر سطراً ••

وفي مقدّمة « الإيضاح » ، قال : إنه استدرك مافي « مفتاح العلوم » ، للسكاكي .. وما في « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، للجرجاني .. وما عند غيرهما .. وتوّج كلّ ذلك بما لديه ممّا لم يجده عند غيره ..

إنني جرّبت فحص هذا الكلام ، فوجدت أن مؤلّف الإيضاح ، الشيخ القزويني ، ذا الألقاب الكبيرة عند دارسيه : ظلم النداء ومسخه عن صورته التي عند السكاكي .. فطرحت « مسألة النداء » للبحث مجدّداً ؛ وخلصت إلى ما نجده في « رسالة النداء » ..

يمكن للقارىء أن يفحصَ كلامي كما فحصت كلام القزويني : ليتأكد أن مسائل تراثنا البلاغي أشبه ما تكون بالمشهور المغمور ؛ المشهور بتردد اسمه بين الناس ، والمغمور بحقيقته عندهم ؛ فكأنه الغريبُ لا يعرفه أحد .. وكأنه العملة الأصلية : طردتها العملة الزائفة من الاستعمال والتأمل ..

أرجو ممن يثير أعصابَهم وتعصّبَهم هذا الكلام أن يبدأوا القراءة من « أسلوب النداء » (ص :) .. ثم يعودوا إلى ما قدم في « رسالة النداء » ، (ص :) ؛ ليعلموا كيف يصبر أيوب على البلاء في نفسه .. وكيف يصبر نوح على البلاء في قومه .. والتواصي بالصبر : رفيق الحق .. فصبراً جميلاً ، والله المستعان ..

- ٢ -

« الإنشاء ضربان طَلب ، وغيرُ طلب .

والطلبُ يستدعي مطلوباً غيرَ حاصل وقتَ الطلب ؛ لامتناع تحصيل الحاصل ، وهو المقصود بالنظر ههنا[١] » .

بهذه الصورة : افتتح القزويني « إيضاحه » لما سمّاه السكاكي في المفتاح

---

(١) الإيضاح ، ص ٢٢٧

« قانون الطلب[2] » ..

ثم قال : « وأنواعه كثيرة ، منها : التمني[3] .. ومنها الاستفهام[4] .. ومن أنواع الإنشاء : الأمر[5] . ومنها : النهي[6] . ومنها : النداء[7] » ..

وهو بهذا الترتيب : يتابع مُعلِّمَه « صاحب المفتاح »[8] .. كما يتابعهما المؤلِّفون بهذا القانون[9] ..

ومن وجهة مجتمعية ونفسية[10] : رأيتُ حقَّ « النداءِ » أن يكون مقدَّماً ؛ لأنه مفتاح العلائقِ بين المتكلِّم والمخاطب ؛ ولأنه يقوم على التسمية أو ما تعنيه .. ورأيتُ حق « التمني » أن يكون مؤخراً ؛ لمقتضى حال معناه في سُلَّم الطلب ..

ولكن ما هو الإنشاء بطبيعته اللغوية ؟

الإنشاء : مصدر للفعل المزيد أنشأ ؛ ومجرده : نشأ ..

وتبدو الكلمة مغرية للمبدعين ، ومنذ أقدم العصور .. ففي شعر امرىء القيس : ما يؤكد إغراءها ؛ فهو يصف حالته الشعرية ويرى معادلها في حال الطبيعة أثناء المطر ؛ فيقول بمنشأة المطر :

---

(2) المفتاح ، ص ١٤٥
(3) الإيضاح ، ص ٢٢٧
(4) نفسه : ٢٢٨
(5) نفسه : ٢٤١
(6) نفسه : ٢٤٤
(7) نفسه : ٤٤٥
(8) لاحظ : المفتاح ، ص ١٤٥ ـ ١٥٦
(9) انظر ، مثلا : علم المعاني ؛ لعبد العزيز عتيق ؛ وبكري شيخ أمين ؛ ومزيد نعيم .. وغيرهم .
(10) لاحظ : مجتمع العرب وشخصيتهم في البلاغة .. وكيفية استجماع مقاصد البلاغة ..

نشـــاءَةُ إنشـــاءٍ
لذي العرشِ واحــداً
فأنشـــأ نَشْـــأً
منشىءُ الريح
مُـكسفٍ ...

ففي بيت واحــدٍ : استعان بها خمس مرات بصيغ المصدر والفعل واســم الفاعــل ..

فاسم الفاعل : منشىء ؛ يعني : الموجد ؛ أي الخالق المبــدع ...

ومن هذا المعنى الإيجادي : تظهر مستويات أخرى للكلمة ، مصدراً للفعــل المجرّد : نشأ نشأة ونشئاً ؛ بمعنى حدثَ وتجدّد ... وبمعنى : شبّ ونما .. وبمعنى : تربى وترعرع .. وبمعنى : تولّد وتسبّب ... أو مصدراً للفعل المزيد : أنشأ إنشاء ؛ بمعنى : أوجد .. وربّى .. وتعهّد ..

وقرآنيّاً : أنشأ الله الخلق ؛ بمعنى برأهم وخلقهم .. والنشأة : أولى وثانية ؛ فالأولى : هي إيجاد الخلق أول مرّةٍ في الدنيا .. والثانية : هي بعثهم بعد الموت للقيامة .. ونلاحظ عجباً من مستويات الكلمة في الاستعمال القرآني ؛

١ ــ فالإنشاء : يكونُ نفسيّاً ؛ ويعيد الكثرة المتفرعة إلى أصــل إنشائيٍّ واحــد ؛

« وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحــدة » ..

(الأنعام : ٩٨ ..)

٢ ــ والإنشاء : يكون في الطبيعة ، براً .. وبحراً .. وجوّاً ..

« وهو الذي أنشأ جنَّاتٍ مَعروشاتٍ وغَيرَ معروشاتٍ ، والنخلُ ، والزرعَ مختلفاً أُكلُهُ ، والزيتون ، والرُّمان ، متشابهاً وغيرَ متشابه ،

كلوا من ثمره إذا أثمر ..

وآتوا حقَّه يوم حصاده ..

ولا تُسرفوا ..

إنه لا يُحبُّ المسرفين

(الأنعام : ١٤١) ..

« وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ..

(الرحمن : ٢٤)

« ويُنشيء السَّحابَ الثِّقال » .

(الرعد : ١٢)

٣ ــ والإنشاء : يكون في تعبد الليل وتفكر أحواله ،

« إن ناشئة الليل

هي أشَدُّ وطئاً

وأقوم قيلا .. »

(المزمل : ٦)

٤ ــ والإنشاء كما يكون فيما عُلِمَ .. يكون فيما هو غير معلوم :

« ننشئكم فيما لا تعلمون .. »

(الواقعة : ٦١)

إن تتبعَ الآيات التي ذكرت الإنشاء : فعلاً .. أو مصدراً .. أو مشتقاً

كاسم الفاعل •• يتوصل إلى الحياة : ابتداء •• وتطوراً •• وتربية •• وعمراناً •• وفكراً أو معرفة •• وعلى مستويات الدلالة اللغوية ، التي هي مقاصد المعنى ••

وبلاغياً يستدل إلى مقاصد المعنى بعلامات مختلفة منها صور الانشاء العشر ؛ التي منها خمس طلبية ؛ وخمس غير طلبية ••

الطلبيـــة ، هي :

النداء •• الاستفهام •• الأمـــر •• النهي •• الرجـــاء ••

وغير الطلبية ، وهي :

التعجب •• القسم •• العقود •• المدح والذم •• الرجـــاء ••

وفي هـــذه الصور جميعها : نرى معـــاني الإنشاء اللغوية •• فهـــل يخرج النداء عن معنى من معاني : الإحداث •• أو النمو •• أو التربية •• أو السببيّة •• هل يخرج عن دائرة النفس أو دائرة الطبيعة •• أو عمّا ينجم عن العلائق بينهما ••؟

الجواب الموضوعي : نكوّنه بعـــد الاطلاع عـــلى مقاصد هـــذه الصور الإنشائية ، واحدة تلو الأخـــرى ••

فماذا نحن واجدون من خصائص الإنشاء وطبيعته اللغوية : في وظائف النداء ؟
وماذا نحن واجدون من طبيعة الإنشاء : في وظائف الاستفهام ؟
وماذا نحن واجدون من طبيعة الإنشاء : في وظائف الأمـــر ؟
وماذا نحن واجدون من طبيعة الإنشاء : في وظائف النهي ؟••
ثم ماذا نحن واجدون من طبيعته : في وظائف التمنّي ؟

وهذه الأسئلة الخمسة ذاتها : تطـــرح على فروع الإنشاء غير الطلبي ؛ تعجّباً ، وقسماً ، وعقـــداً ، ومدحاً ، وذمّاً ، ورجـــاء ••••

- ٣ -

وبذلك نظــل مشدودين إلى الوحدة في مسيرتها التنوعية ذات الفروع •• وتؤنسنا ثمــار الأصل على كل فــرع ؛

فنرى معاني « الحدوث والتجدد ، والشبوب والنمو ، والتسبب والتولد ، والتربي والترعرع » : على فرع الاستفهام •• وكذلك على فرع النداء •• وكذلك على فرع الأمــر •• وكذلك على فرع النهي •• وكذلك على فرع التمني ••

ونراها مرة أخرى على فروع : التعجب ••• والقسم •• والعقود •• والمدح والذم •• والرجــاء ••

قد لا يكون من السهل التقاطُ هذه الصورة الموحّدة بين الأصل والفروع ؛ لذلك أقرِّبُها في هذا المدخل العامِّ المُشرِف ، قبل الدخول في دهاليز التأليف القــديم والحديث ••

فكيف نرى أصالة الإنشاء في حداثة فروعه الطلبية وغير الطلبية ؟!



رســالة النــداء

مدخــل

في المقــدمة والأسس

وقـُلْ :

ربِّ

أَدْخِلني مُدْخَلَ صــدقٍ ؛

وأخرجني مُخْرَجَ صــدقٍ ؛

واجعــلْ لي مــن لَدُنْكَ :

سلطاناً نصــيراً ..

(الاســراء : ٨٠)

شــعْبِ الوحيَ بشــعرٍ

وانتصِرْ جِئنــا بقوّة ..

مِيْسِيبِّي يَــدُ عَــينٍ

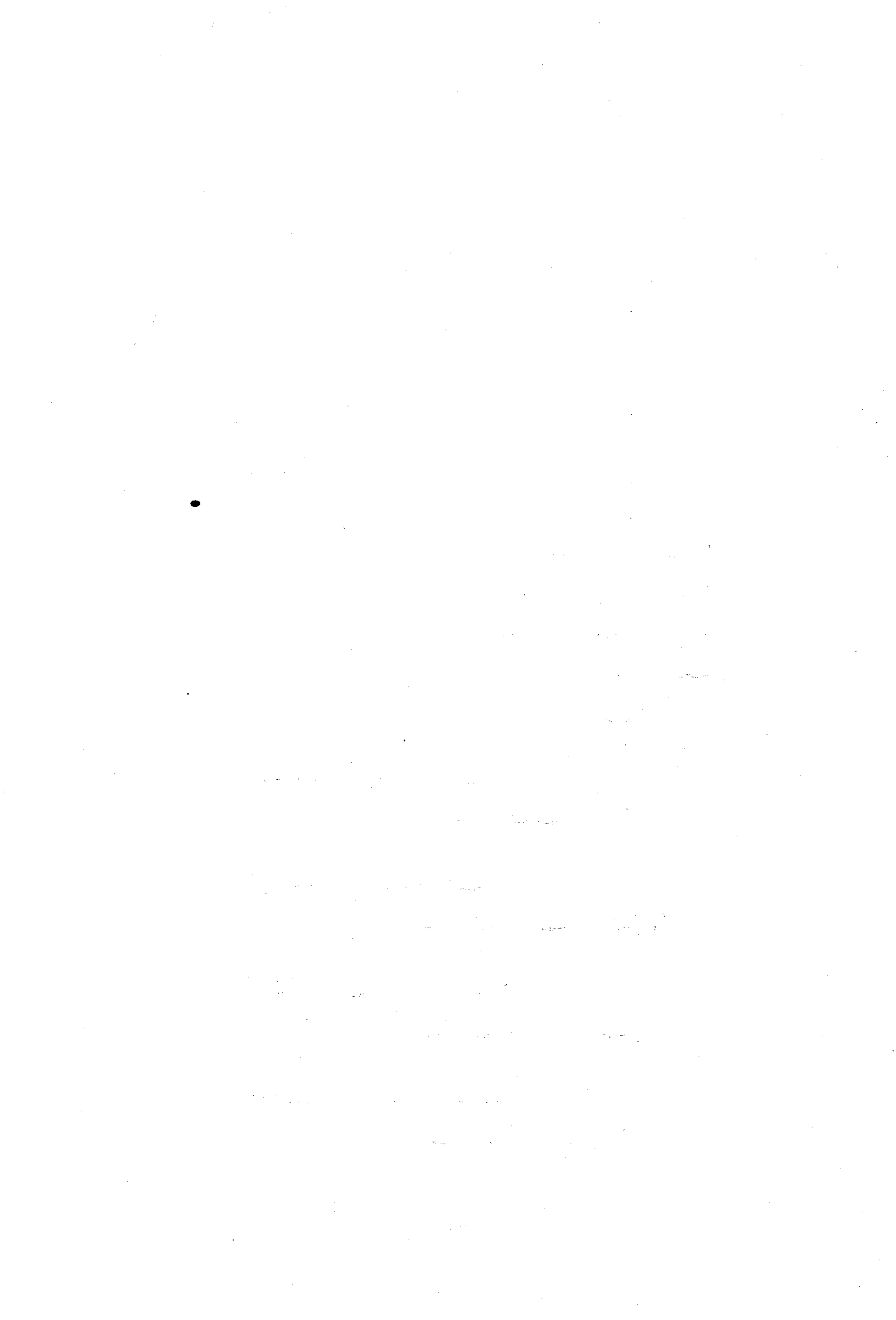
مــن صميمٍ طــارَ نشوَهْ

آلــةُ العــزفِ رَبــابٌ

ومــزامــيرُ وزهـــوَهْ

فاحضــنِ الصقــر بجفنيك

ترانــا منــك أســوَهْ ..



في رسالة النــداء : نبلغ البدءَ البلاغيَّ الجديدَ ؛ فقد سبق « الرسالةَ » ما سميناه : أسلوب النــداء ؛ وقد يجد المتأمِّلُ بين « أسلوب النداء ورسالته » : ما بين الصورة الشكلية والوظيفة المعنوية ؛ •• إنما هذا تقسيم إيضَاحي ؛ لأنَّ رغيفَ الخبز على المائدة : لا تعني انفصالَها عن تربة الحقل الذي احتضن السنابل من جهــة الانتماء المبدئي •• ولا تعني نقــلَ التربة التي ضمت جذورَ السنابل في أحشائها إلى ثغور من تُقَدَّمُ لهم الأرغفة ••

طالبو البلاغة : أهــل ذوق وتذوق ، وإلاَّ لما سعوا إلى هذا الحقل المسمَّى « علم المعــاني ومقتضى الحال » •• ويقال : « أهل الذوق أمــة واحدة » •• وبالثقة الذوقية هذه : أفكِّر بالمشابهة التي قدمتُها لأوضح العلاقة بين مرحلتي المعالجة لأسلوب النــداء ؛ مرحلة : الأسلوب ؛ ومرحلة : الرسالة •• فالمرحــلة الأسلوبية : تشبه السنابل في الحقل ؛ فيها : تربــة النصوص القديمة •• وقَشُّ الإخراج والتسرع أو الإطــالة •• وفيها الحبوب المطلوبة ، ولو علتها أكمامُها وحسكُها ••• لكنني في المرحــلة الرسالية : صيرتُ « النــداء » إلى مستوى « الخبز التنوريِّ » ، الذي تخلَّص من « عجينيته » كما تخلَّص من قشه وترابيته ، مع إخلاص انتمائه إلى ذلك كلِّــه ••

هذه الصورة التقريبية : واقعية مع مجازها ؛ ويمكن التأمل الهادىء ؛ وينبغي ألاَّ يكون التأمُّلُ سريعاً ، أو جزئياً ، أو سطحيّاً ؛ لأن ذلك : يسلب منه موضوعية التأمل •• إن التأمُّل بموضوعية خصائصه : يكشف لصاحبه واقعيَّ الفرز بــين « أسلوب النداء » وبين « رسالة النداء » •• وموضوعيَّ الانتقال بالبحث من : مرحــلة السنابل في حقلها ••• إلى مرحلة العجــين في قصعته أو « معجنه » •• إلى الخبز الذي شبع من نار تنوره وصار على أطباق التناول ، جاهزاً لإشــباع متناوليــه ••

وكشف آخــرُ لذي التأمُّل : وهو الإمكانُ المنهجيُّ المطبَّقُ في مرحــلة البحث من مستوياته القــديمة إلى المستوى العصري الحديث ؛ فما مُورس في

« النـداء » تمكن ممارسته في أي باب آخر من أبواب « علم المعاني » •• بـل في أي باب من أبواب البلاغة ، لأن قاعدة التقصي الموضوعي : لا يصحّ تجاوزها في أي بحث يقوم به باحثٌ أمـين •• وتجاوزها يوقع في مشكلاتٍ من الضلال والتضليل : قـد لا يريدها الباحثُ •• ولا تُراد له ؛ بل لا تُنتَظر منه ؛ فكيف إذا كان معلّماً ، ويحِبُّ الجياع والعِطاش من أبناءِ الناس ؟••

معلوم حديث خاتَم النبيين (ص) : « إن الله يحب إذا عملَ أحدكم عمـلاً أن يُتقنَه » •• ومعلوم أنه قال ذلك لمن تعجبوا من تمسيده لكل دفعة من التراب تلقى إلى القبر ، أثنـاء دفن أحـد الصحابة ••• أوليس تمسيدُ المعلومات التي تقدم لأجيال الأبناء والبنات : جديراً بمن يُقدّمونه ؟!!•••

جاءتْ « رسالة النداء » وفق مقتضى حال البحث ، في : بابين وخاتمة ؛

الباب الأول : عالج أدواتِ النـداء معالجة تطبيقية ؛ قرئت فيها أبيـاتٌ حديثة ، بعنوان « مهـد » •• ورُبِطَ مفهـومُ السِّياقِ بجزئيات الأسلوب الندائي ؛ فظهرت رسالة النداء العملية مع كل أداةٍ من أدواته التسع ••

وقد قدّرت الخاتمة قيمة هذا الباب ، إجمالاً وتفصيلاً ؛ فلينظر بتقويمه فيهـا ••

والباب الثاني ، عالج : حضرة النداء العليا •• وحضرة النـداء الأعلى •• ويمكن اعتبار هذه المعالجة مفصلة بثلاثة فصول ؛

أولها : سمي « حضرة نداء كاملة » ؛ وهي « حضرة النداء العليا بالأداة يا » ؛ وبَلَغَتْ هذه الحضرةُ بالدرجة العاشرةِ من تطوير التعرّف إلى أدوار أدوات النداءِ المعنويةِ على أسلوب « زكريا » في نـداء ربّه •• وعلى أسلوب ربّه في ندائه وفي نداء ابنه « يحيى » •• عليهما وعلى خاتم النبيين السلام ••

ثانيها : سمي « حضرة ندائية أعلى » ؛ وبنية هذه الحضرة : مختلفة عن بنى

النـــداء الثماني المشهورة ؛ لأن النداء فيها يتم بالميم بدلاً من « يا » ؛ ولا يكون إلا لذي الجلال والإكرام « الله » ؛ وصيغتها « اللهم » معادلة لقولنا : يا ألله ..

اعتمد هذا الفصل في تطبيقاته على الصور الخمس التي وردت في القرآن الكريم .. كما فصّلتِ الخاتمة والنتائج ...

ثالثها : يُسمّى « النداءُ بالميم في نهج البلاغة » ؛ وقد اعتمد هذا الفصل على نصٍّ « السقيا » ، وفِقَر من نصّي « الأيْد » ، و « الغفران » ..

وفي هذا الفصل : بلغ التطبيق البلاغي مداه ؛ و وظهرت ممارسة ما نسميه « مبادىء التجميل » ، أي معرفة حدود الجمل في النص .. كما ظهرت قواعـــد عـــلم المعاني في مرحلة الأرغفة الناضجة .. وقد قـــدر هذا الفصل في « الخاتمة والنتائج » فلينظر ما قيـــل هناك ..

أما الخاتمة ومبالغ النتائج : فقـــد أوجزت محتويات « رسالة النداء » في بابيها .. وأدغمت خلاصة « أسلوب النداء » بما سمّي مبالغ النتائج ، وهي أربعة :

أ ــ جني النصوص الإبداعية في « البلاغة الممارسة » .. وقد ذكّر بالنصوص العشرة التي أوصلت إلى هذه النتيجة من بلاغة النداء في إقامة العلائق بين المنادي والمنادى ، على مستويات البشر فيما بينهم .. وفيما بينهم وبين الحـــق الجليل الجميـــل ..

ب ــ الوصل بالإبداع الكلّي ؛ وذلك بوسائل « علم المعاني » مطبقة على نصوص « البلاغـــة الممارسة » ، تجميلاً وقواعد بنـــاء اسمية وفعلية ، حقيقية ومجازيـــة ..

جـ ــ أسلوب النداء في كيفيات البحث : يعايش القديم مع الحديث ؛ بأسلوب التربية النقدية والذوقية من النصوص الممارسة إبداعياً .. ومن نصوص الباحثين بعلم المعـــاني ، حول النداء ..

د ــ أدى الاحتكاكُ بهذه المبالغ الندائية الى انفتاح شمولي وعميق يتناول : وعي المجتمع •• ونفس الفرد •• ولغــة الإنسان •• وتجربة خطيب الأنبياء ، شعيب •••

يمثل هذا المبلغ الرابع : بُعداًذا تشعبات ، لا قِبَل لبحوثِ البلاغةِ بها •• ويحسن الدخول معهــا دخولاً تسليمياً متأمّلاً ؛ لأنهــا تستدعي ما يستدعيه « الخشوع في حضرة الإبداع » •• وما أقوله : يشبه أن يكون صورة لأحــوال تذوقتها وأنا أصوّر ما اقتضاه الحال لعلم المعاني بمعنىالنداءِ ، رسالةً وأسلوباً•••

إن التشعبات المشار إليها : تقدم أسلوب النداء مثل مرآةٍ مطيافية ؛ تتجلّى عليها وجوه الوعي ، اجتماعية ونفسية ولغوية وقيادية ؛

والتأمل يظهــر الوعي الاجتماعي : على ماهو عليه •• وعلى ما ينبغي له ؛ ليكون الناس متعاونين ؛ وكأنهم جمهورية فاضلة ؛ قاعدتها : أدوات النداء العامة ؛ وأوسطها : أداة النــداء : يا ؛ وذروتها : أسلوب النداء بالميم ، بصورة وحيــدة « اللهم » •• ويحسن بي ألاّ ألخص ملخّصاً شديد التركيز ؛ ليكون مفهوماً ومثيراً معاً ؛ لأن النداء : لتبادل الأثر والتأثير بين منادٍ ومنادى لغرض يخصهما ••

وكذا التأمل بمظهر الوعي النفسي : يفتح باباً إلى عالم النفس ، ومنبع الإبداع النقيّ الخالص •••

ويأتي التأمل بالوعي اللغوي : حاضناً لكل شيء ؛ وذراعاه الصوت والصورة ، بلغــة الإنسان ذي الألسن ••

أما تجربة شعيب (ص) ، وهو خطيب الأنبياء : فلإظهار الدور الشعبي في تلقّي النداء •• وللتذكير بالصبر على الشعوب ، ومحاورتهم برفق ، وتحذيرهم بشفقة ؛ ليعيَ منهم من يعي ؛ ولينجو من الضلال والجهل من ينجو •••

مع شعيب : تبدو رسالة النداء ، قيادية تربوية •• وتبدو : دعوة إلى التجدّد

وفق نظام مستقيم ، يحرر من اعوجاج موروث •• ولكن السؤال ، كما انتهى إليه بحث « رسـالة النـداء » : « هـل بلـغ تطور الوعي في عالمنـا مبالغ عالميته التواصلية » ؟ •• « وهل يتنادى المعلمون والمتعلمون إلى فقـه كثير من المعاني التي لم تفقـه من قبـل » ؟ ••

مرَّ تطورُ البحثِ المنهجيِّ « بأسلوب النداء » قبل الوصولِ إلى « رسالة النداء » ؛ لكنني فضلتُ إخراجَ « الرسالةِ » قبـلَ « الأسلوبِ » : لتكونَ مُقوِّيةً لعزم القارىءِ على تحمّل ما يجده من عجائب الادّعاء ، ومن المسافات الشاسعة بين الوقائعِ وبين المألوفِ الشائع •••

ويمكن لمن يحب زيارة حقول القمح بعد تناول الخبز أن يفعلَ •• كما يمكنه أن يذهب إلى الحقل ، والى المعجن •• ثمَّ يجيء إلى المائدة ••

وقـد أشرنا إلى كمال الاتصال مع كمال الانفصال : بين رغيف الخبز على المائدة وبين تربةِ الحقل التي احتضنت سنابل القمح ••• ولكنَّ المسألة الفهمية : تتوقف كلّها على فهم طبيعة « علم المعاني ومقتضى الحال » ؛ فكيف يكون كمال الاتصال مع كمال الانفصال مثلاً ؟

الجواب المفهومي في أسلوب آخر من أساليب علم المعاني ، هو « الفصل والوصل » •• أما هنـا فالجواب العمليّ في انفصال الرغيف عن تربة الحقـل واتصالها بهـا •• كيف ؟ !



رسالة النداء

الباب الأول

بلاغة أدوات النداء التسع

أبنيّ ‥ !

مهدُكَ : مقلتاي ومهجتي

لكَ ، أيْ بُنَيَّ ‥!

عروشُ حبٍّ ضمنَها …

(مهد وعروش)



النداءُ : أسلوبُ تعبيرٍ شعبيٌّ[1] ؛ تمتدُّ شعبيتُه من مَهْدِ الطفلِ إلى سريرِ ذي العرشِ .. ففي كلِّ مستوى من مستوياتِ الوجود : تَسمَعُ موسيقى النداءِ في أحوالٍ مِن الرِّضَى أو عدَمِه ..

وأقولُ : موسيقى النداءِ ؛ لأنَّ حروفَ النداءِ : دَرجاتُ سلَّمٍ موسيقيٌّ ، تَمَّ في مستوىً أوَّلَ .. وبُدِئ به مِن جديدٍ ؛ فهي ثمانيةٌ[2] :

أَ ؛ أَيْ ؛ آ ؛ آيَ ؛ أَيَا ؛ هَيَا ؛ يَا ؛ وَا ...

فكأنها : دو ؛ ري ؛ مي ؛ فا ؛ صول ؛ لا ؛ سي .. دو ..

وقبل الانسياقِ مع ما قيل في النداءِ ، قديماً[3] وحديثاً[4] : تتأمَّلُ كيفية المُناداةِ في نصٍّ من نصوصِ « البلاغةِ المُمارسةِ للتربية النقدية » ؛ ففي هذا النصِّ : جهاتُ النداءِ جميعُها ؛ وعنوانُه : مَهْدٌ ..

---

(١) تأمل في التعريفات التي ارتضاها : النحاة .. والبلاغيون .. فهي في المعالجات الملحقة بعلاجنا المقدم .. وفي أماكنها من الكتب ..

(٢) انظر : مفتاح العلوم ؛ ص : ٤٩ ـ ٥١ ؛ و : ١٥٤ ـ ١٥٦ .
والتلخيص ، ص : ٤٩٨ ـ ٤٩٩ نقلا عن صورته في : « صناعة الكتابة » .
والايضاح ، ص : ٢٤٥ .

(٣) اكتفيت بصيغ صاحب « مفتاح العلوم » ؛ ثم ما لخصه وما أوضحه منها صاحب « التلخيص » و « الايضاح في علوم البلاغة » .. فتأمل فيها ..

(٤) مثلت للمعالجات الحديثة ببحوث جامعية من الدكاترة : عبد العزيز عتيق ؛ في علم المعاني .. وبكري شيخ أمين .. ومزيد نعيم .. في العلم ذاته .... ومثلت لمعالجات النداء في النحو بأساليب حديثة من العلماء : سعيد الأفغاني « الموجز في قواعد اللغة العربية » .. ومهدي المخزومي ، « في النحو العربي » .. ومن « حياة اللغة » أخذت ثلاثاً من محاورات جهاد وأمل في : « اللغة والحياة » (٧١ ـ ٧٣) ..

١ ــ أَبُنَيَّ ••! مَهْدُكَ : مُقْلَتَايَ•• ومُهجتي ••
لَكَ ، أَيْ بُنَيَّ ••! عُروشُ حبٍّ ضِمْنها

٢ ــ آمُشْتَهَايَ مِن الغيوبِ •• وحاجتي ••
بِكَ ، آيَ كلَّ الطيِّباتِ •• وَفَنَّها

٣ ــ نَفْسُ النفوسِ •• أَيَا ضِيَاءَ ضِيائِها ••
هِبَةُ الوهوبِ •• هَيَا إلهي •• مُنَّها

٤ ــ يا ربِّ •• ! •• أشكرُ مِنَّةً أزليَّةً ••
وَالَهْفَتي •• لو كانَ جودُكَ ضَنَّها •••!

٥ ــ أرجوكَ أللهمَّ إنَّكَ واهبٌ
أتمِمْ على مَهْدِي الطفولةِ أمْنَها

المناداةُ : كيفيَّةُ تَواصُلٍ بأسلوبِ النداء ؛ وهذا الأسلوب : يمارَس حياةً ، وفق مقتضى الحال الرابط بين المتكلم ، الذي هو المنادي •• وبين المخاطب ، الذي هو المنادى ••

والمنادى : هو القصد ؛ يقصده المنادي بزيٍّ من الحروفِ المتعارف عليها : طالباً منه الانتباه إليه والإقبال عليه •• ليبثه مابه من حبٍّ أو حاجة ؛ من شكر أو تخوف ؛ من رجاء أو اعتراف •• أو منها جميعاً ••

ونصٌّ « المهد » ، بأبياته الخمسة : يمهِّدُ لنا سبيل التأمُّلِ بكيفية « البلاغة الممارسة » ••• فماذا يُعطينا التأمُّل ؟

من القراءة الأولى : نلاحظ أدوات النداء تؤدِّي دور علامات الموسيقى في إيصال المعنى ؛ وهي مثلها : سبعة ؛

١ ــ أَبنيَّ ••

٢ ـ أي بُنيَّ ..
٣ ـ آمشتهايَ من الغيوب ..
٤ ـ آيَ كلَّ الطيِّبات ..
٥ ـ أيا ضياءَ ضيائها ..
٦ ـ هيا إلـهي ..
٧ ـ يا ربِّ أشكر منَّـة ..
٨ ـ والهفتي ..
٩ ـ اللهمَّ إنَّكَ واهبٌ ..

الأصل أن السلم الأول : يتمّ دور التأدية في الدرجة السابعة ..

لكـن الدرجة الثامنة بدءٌ جـديد .. وسلّمٌ لمستوى جديد من مقتضى حـال المعنى ..

والدرجة التاسعة : صعود آخـر ؛ ينفتح من الدرجة السابعة ؛ لأنَّ الميـم تبادل الـ « يا » ..

ولنتمهل في فهم الأدوار الذوقية التي تؤديها كل أداة للمعنى ؛ ليظهـر فيه الإيجاد المحقق لغرضِ النـداء ..

١ ـ أبنيَّ ..!

مهدُكَ مقلتاي ومهجتي ..

الهمزة : لنداء القريب ، كما يقولون ؛ وهي ، هنا ، أداة نداءٍ من أمٍّ تحنو على مهد ابنها .. وذلك أقرب القرب ..

والقرب أوضح في الرسالة التي يحملها أسلوب النداء .. فالأم تناغي ابنها ، الذي قد لا يكون يفهم حرفاً واحداً مما تقوله .. وهكذا تكون رسالة المتكلمة موجهة إلى ذاتها .. فسرير ابنها : يحمل هذا الكائن اللطيف « لكنه سرير مـن

الخشب ، بل صيَّرته العبارة الشعرية : سريراً من عينين وقلب •• فهل يقدر المخاطب قيمة هذه الرسالة التي تحملها إليه الأم المنادية •• وأي طفل هو إذا كان يدري من مهده مثل هذه الدراية ؟!

٢ ــ وأقربُ من ذلك إلى المتكلمة : أن تعلم ، عينَ العلم ، مقرَّ ابنها الحقيقي ؛ فهو « عروش حبٍ ضمن المقلتين والمهجة » ••

لكَ

أيْ بنيَّ

عروشُ حبٍّ ضمنها ••

هذا ما يعنونه بقولهم ، (أ ، أي) • لنداء القريب •• وهل أقرب إلى الأم من ابنها الذي لا يزال في المهد ؟

قد تكون عيناها ومهجتها : أقرب ••

وقد يكون ضمن العينين والمهجة : هو الأقرب ؛

لذلك اقتضى حال المعنى المراد إبلاغه : أن يؤدَّى بأداتي القرب ، (أ ، أي)••

٣ ــ الأداة الثالثة : آ •• تشبه أن تكون مكرر الأداة الأولى ؛ فهي « أ اْ » ألف مهموزة •• وأخرى ساكنة لينة •• وهي في المقالة التاريخيَّة : لنداء البعيد ••

٤ ــ ومثلها الأداة الرابعة : آيَ •• تشبه أن تكون مكرر الأداة الثانية ، مزاداً على همزتها الألف الليِّنة •• وهي كذلك : لنداء البعيد •••

ونلاحظ أنهما استخدمتا لنداء الطفل ، أيضاً •• لكنه الطفل الذي كان مشتهى الأمّ في عالم الغيب •• وكان كلَّ الطيِّبات المرتجاة •• وكلَّ فنٍّ تلك الطيِّبات ••

آمشتهايَ من الغيوب
وحاجتي بكَ
آيَ كلَّ الطيباتِ
وفنَّها ..

لقد حذفت « آي » قبل « فنها » .. وكأنما تقول : آيَ فنَّ الطيبات ..
من وجهة نقدية : تظهـر بلاغة الأداة « آ » في الصعود وراء مشتهى عذراء إلى عالم تخييل : تتشهى منه أن يمنحها طفلاً .. تقول له من قريب : أبُنيّ .. أيْ بُنيّ ... وتظهـر بلاغة الأداة « آي » : في السعي وراء كل الطيبات .. ووراء فنّها ؛ لاصطياد هذا المنادى البُنيّ ..

٥ — كما تظهر بلاغة « أيا » في التقاط ما هو أبعد في أعماق المعنى : فالطفل لا يزال مخاطباً ؛ إنما من مستوى بعيـد ، سبق وجودَه الحاليَّ ؛ والخطاب له عندما كان : ضياءَ ضياءِ نفسِ النفوس ، التي هي هبةُ الوهوب ..

٦ — ومن طرفٍ آخـر : تأتي « هيا » ؛ لتؤدي الرسالة فيما هو بعيد من الجهـة المقابلة ، أي من جهـة المستقبل ..

وإذا نظرنا إلى عبارتي الأداتين معاً : تظهر بلاغة كل منهما في تأدية الإيصال إلى بعيد في الماضي وإلى بعيد يجيء في المستقبل :

نفس النفوس ..
أيا ضياء ضيائها ..
هبَة الوهوب ..
هيا إلـهي مُنَهَّـا ..

إنَّ التأمل الهادىء : يفتح بلاغة الإنشاء في هاتين الأداتين ؛ فكأنَّ امتدادهما يتجاوب على طول السلَّم الموسيقي بدرجاته السَّبع .. وكأنَّ الكلمات المرتبطة بهـا : تبوحُ بذلكَ ؛ فهي :

١ – نفس
٢ – النفوس
٣ – ضياء ... أيا ..
٤ – ضيائها
٥ – هبــة
٦ – الوهوب
٧ – إلــهي ... هيا ..
٨ – مُنتَّهــا ..

بالكلمة الثامنة : يبدأ الرَّجاء المستقبلي .. بأن يتم الوهوب نعمته على الأم ؛ فيسلِّم لها هذه النفس لنفوس أهله .. والضياء لضياء تلك النفوس ..

وتلاحظ المعادلة المقنعة : أربعة في مقابل أربعــة ..
نفس النفوس : ضياء ضيائها ...
هذه أربعة الطفل وأهــله ، في المنظور الحالي المعلوم ..
هبة الوهوب .. إلهي : مُنتَّها ..

هذه أربعة الوجه الحقيّ ؛ فالإله الوهوب : وهبَ ابتداء .. وهو حقيق بمتــام المنــة ..

٧ – الأداةُ السَّابعةُ ، « يا » : مثل الدرجة السابعة من السلم الموسيقيّ « سي » .. وهذا يعني الرؤية من رأس الجبل ؛ أي على كل الجهاتِ : القريبة والبعيــدة ..

وهذا الدور معطى لهذه الأداة : فقد قالوا بصلاحها لنداء القريب ، مثــل الأداتين الأولى والثانيــة : أ – أي .. ولنــداء البعيد ، مثل الأدوات الأربع : آ – آيَ – أيا – هيا ..

وزادوا بصلاحيتها للاستغاثة ، عموماً .. وللندبة بخصوصٍ معيَّن ..

وأشاروا : أن لفظ الجلالة « الله » لا ينادى إلا بهــا ..
وأجازوا حذفها والتعويض عنها بميم مشدّدة عند نداء اسم الجلالة ..
كما أجازوا حذفها مع المنادى ..
وكذلك أجازوا نداء الضمير بهــا ..
ولنعُد إلى هذه الخَصائص التي للأداة السابعة .. يا ..

أ - ينادى بهــا القريب .. والبعيد .. وبذلك : تساوي الأدوات الست السابقة .. وتستغرقها في مقتضيات تأدية المعنى .. أو الإبلاغ عنه ..

ب ــ يستغاث بها في مقام خاص من مقامات النداء ، كأن يقــال :

يا لَلمعلمين لِلمتعلمين من الجهل .. يا : هنا ، أداة استغاثة .. المعلمين : مستَغاث لهم .. الجهل : مستَغاث منه ..

ولاستيعاب هــذا التركيب الندائي المخصص تتأمل في ممكناتِ المستغاث به .. ومثيله المتعجَّب منه ..

الوجه الأول : يجيء المستغاث بــه مجروراً بلامٍ مفتوحة ، كما رأينا .. وقــد تجر هذه اللام عنــد تعدده ، فيقال :

يا لَلمعلمين
ولِلحكماء .. لِلفقراء ...

الوجه الثاني : تؤكد الاستَغاثة بإضافة ألف في آخــر المستغاث بــه .. فيقال : يا حكماءا ..

الوجه الثالث : يعامل المستغاث بــه معاملة المنادى المألوف .. فيقــال : يا حكماءُ .. بالبناء على الضمّ ..

وفي الأوجه الثلاثة : يفهم المستغاث به كما يفهم المنادى .. ويعلق ما بعــده بعامل النداء قبله ، فيقال في مثالنا السابق :

للمتعلمين : جار ومجرور •• تعلقا بأداة الاستغاثة « يا » التي أعطت معنى « أستغيث » أو نابت عنه وأشارت إليـه ••

جـ – يتعجَّب بها •• فيقال بالمتعجب منه : ما قيل بالمستغاث بـه ؛ أي : تفتح لامه التي تجره •• وتزاد ألف في آخره •• وينادى كالمنادى العادي•• فيقال :

يا لَلحكماء •• يا لَلقمر ••
يا حُكماءا •• يا قَمرا ••
يا حكماءُ ••• يا قمرُ ••

د – يندب بها ؛ والندبة : توجُّع ؛ أو تفجُّع ؛ وصيغتها : نداء متوجَّع منه ، مثـل : يا قلبي •• يا كبدي •• أو متفجَّع عليه ، مثـل : يا حسيناه •• واحسيناه ••

والأصل في الندبة : أن تكون بالحرف (وا) ؛ مثل : واصديقاه ••

وللمندوب حالات :

١ – أن يختتم بألف زائدة ، مثل : واعمَّارا •• يا لهف قلبا ••

٢ – أن تتلى الألف الزائدة بهاء السكت في الوقف •• مثل : واعماراه •• والهف قلبـاه ••

٣ – أن ينادى المندوب نداءً عادياً ، فيقال : واعمارُ •• والهفَ قلبي •••

وليكون نـداء المندوب ذا دلالة : يندب غير المبهم من المعارف ، مثـل : واحسيناه •• واأبتاه •• واصديقاه ••

هـ – ينادى بها الضمير ، في حالات معينة ، فيقـال :

يا أنتَ •• كيف فعلت هـذا ؟ •

و – ينادى بها وحدها لفظ الجَلالة « الله » ؛ فيقال : يا ألله •• بجعل همزة الألف قاطعــة ••

ز – يعوَّض عنهــا بميم مشدَّدة في آخــر لفظ الجلالة ؛ وتكون صورة النــداء : أللهمَّ ••

نتوقَّف مع علاقتها بحرف الندبة •• وباسم الجلالة ••

وهذا التوقف يقتضينا العودة إلى سياق النص وسياق الترقيم •• ففي البيت الرابع من النص : ذُكِرَتا معاً ؛ يا •• وا ••

يا ربِّ ••
أشكر مِنَّةً أزلية ••
والهفتي ••
لو كان جودك ضنَّها ••

وما هذه المنة سوى عطــاء الحياة لكلِّ حي •• وخصوصاً لصاحب المهــد الذي تناديه فيما مضى ، بالأدوات التي رأيناها :

أ بنيَّ •• أي بنيّ ••
آمشتهاي •• آيَ كلَّ الطيبات ••
أيا ضياءَ ضيائها ••

صورة واحــدة من ست صور : التفتتْ فيها عــن الطفل إلى واهبــه •• ومن أجــله ، فقالت :

هيا إلــهي مُنَّها ••

وهنــا تقول :

يا رب أشــكر مِنَّةً أزليَّة ••

فالإله الواهب : هو الرب المشكور •• ويا •• مثل : هيا •• بالاتجاه نحو بعيـد عميق في مستقبل مرجوٍّ مع « هيا إلـهي مُنتَّها » •• وفي ماضٍ أزليٍّ ، حصل به تقـدير ذلك العطاء الذي جعـل هذا الطفل ابناً لهـذه الأم •• وذلك يستوجب الشكر بنداء الرب المنان « يا رب أشكر منَّة أزلية » ••

هل اتضح غنى هذه الأداة بالدلالات المعنوية التي تستوعب القريب والبعيد ؟

٨ – بالأداة الثامنة (وا) : نبدأ سلَّماً جديداً •• وقد رأينا أنهـا حرف الندبة •• وأنهـا تقبل مشاركة « يا » معها في نداءِ الندبة ، في حالات لا لَبس فيها •• لذلك يكون التأمل بالدرجة الثامنة غـير منقطع عن الدرجة السَّابعة ؛ فالأداتان : يندب بهما •• وبقي أن نتأمل مثال « وا » بعد ما تأملنا مثال « يا » ••

والهفتي
لو كان جودك ضنَّها

قلنا : إن الندبة هي نداء ما يُتوجَّع منه •• أو يُتفجَّع عليه ••

ونرى : أن هذا التلهف ، فيه من التوجع ما ليس تفجُّعاً ؛ لأن التخوُّفَ لم يحصل ؛ ولو حصل ما يُتخوَّف منه : كان الطفل لم يجيء •• وكانت فجيعـة العقـم : قد حلت بالأم •• وذلك متوجَّع منه ، لمجرَّد خطور الفكرة ••

وعلاقة الصورة بسابقتها : أن النداء الحاصل بوساطة « يا » •• « يا رب أشكر مِنَّةً أزلية » •• هو موضوع النداء الحاصل بوساطة « وا » •• فكأنهما حلقتان متصلتان من سلسلة واحدة ••

إنَّ هذا التوجع الذي نودي بأسلوب (وا) : دفعـه التمنن الذي نودي مانِّه بأسلوب (يا) ••

لكنه ظلَّ متأرجحاً بين الثبات والقلق •• وقد بعث التلهف خوفاً لا يـزال ممكن الوقوع •• فما العمـل ؟

٩ - لذلك يأتي التصريح بأسلوب نداء جديد ، ومختلف .. ولا نكاد نرى أيّ أثر لحروف النداء ، التي ذكرنا أنها ثمانية .. فأين : أ - أي - آ - آي - أيا - هيا - يا - وا .. في هذا البيت الذي ختم به نص « المهد » ؟

أرجوك
أللهمّ
إنك واهبٌ
أتممْ على مهدي الطفولة أَمْنها ..

في أحكام القاعدة ، يقولون : بين اسم الجلالة الجامع (الله) وبين أداة النداء (يا) علاقة اختصاص ؛ فنداء اسم الجلالة بهذه الأداة خاصة .. ويقال : يا أللهُ ..

النداء (يا) علاقة اختصاص ؛ فنداء اسم الجلالة بهذه الأداة خاصة .. ويقال :

يا أللهُ ..
يا : أداة نداء ..

الله : منادى مبنيٌّ على الضمِّ في محل نصب بفعل النداء المشار إليه ، أو المستدل عليه بالأداة ، وهو : أدعو .. أو : أنادي ..

وفي أحكام القاعدة ، أيضاً : يجوز حذف هذه الأداة .. ويعوّض عنها بميم مشدّدة : تلحق باسم الجلالة .. فيقال :

أللّهُمّ ..

ألله : منادى مرجو ، مبني على الضمّ ، في محل نصب ..

والميم المشدّدة : للتفخيم ، أو للتعظيم .. وقد عُوِّضَ بها عن أداة النداء التي تتقدم المنادى الجليل عادة ..

قواعد الأحكام ، هذه : راسخة عند النحاة والمشتغلين بالبلاغة ، عموماً ..
ولكن هل تأملوا بالأحلام التي تحققها الأحكام للمعنى ولمقتضيات حاله ؟ !

نفكّر تفكيراً واقعياً : أي نرنو إلى واقع القاعدة ، بعيون مفتوحة ، وقلوب مفتوحة بلهفتها للتعرف المتجدّد ، قبل العيون .. فماذا نجـد ؟ ..

أ - لفظ الجلالة : الله ..

هو الاسم الجامع لحضرات الأسـماء الحسنى ، جميعها ؛ وهي بالمشهور : تسعة وتسعون اسماً ..

وهذه الحضرة جامعة لها ؛ أي أن معناها شامل لجميع تلك المعاني ؛ فالرحمن ؛ واللطيف ؛ والحي ؛ والقيـوم ؛ والقهـار ؛ والعليم ، وذو الفضل العظيـم ، وذو الجلال والإكرام : أسماء حسنى .. ولكل لفظ منها : معناه .. أو دلالتـه المعنوية المختصة ... أما اسم الله الجليل : ففيه تجتمع تلك المعاني كلهـا .. كما تجتمع الأنهـار في محيطٍ هادٍ ، مصباً .. أو كما تجتمع الينابيع في بحيرتهـا الأولى ، منبعـاً ..

وهذا البحث : غاية في الرقيّ .. وله في نظرية الآداب : مكان فسيح ؛ لأن أدب الأسماء الحسنى : بلاغة ممارسة .. ومنها تكون التربية الذوقية والنقدية العليـا .. أمّا ، هنا ، فما شأنها بالنـداء .. ؟

ب - أداة النداء السابعة (يا) : كذلك حضرَة حروفية جامعة .. فاليـاء : آخر الحروف .. والغاية التي تنتهي إليها .. والألف : أول الحروف .. والمبدأ الذي تنطلق منه .. وسائر الحروف : تتموّج بين الألف والياء ...

الملاحظة بهذه الأداة : تنطلق من واقعها التركيبي .. فهي ياء وألف .. أي هي غـاية بلغت أقصاها امتداداً .. وعادت إلى مبدئها أصالة .. واحتضنته ..

هذا الاحتضان : واقعيٌ ذو رموز ، لما يتمتع به من عمق الدلالة •• ومن خصب البنيـة ••

يا : مسألةُ المسائل فيها ••

يا : صلاحٌ للتعامل الندائي مع القريب والبعيد وما بينهما ••

يا : تمتد في بناء السلّم الجديد •• لتعاون (وا:) الندبـة •• أو تذوب بلطفٍ دقيق يختفي تحت جفني الميم المشدّدة •• أو بين شفتي هذه الميم ••

يا ألله = أللهمّ

وهكذا تكون الأداة الجامعة لكل الأدوات التي تؤدي دوراً في نداءٍ يناسب مقتضى حال المعنى في اقترابه أو ابتعاده من المنادي •• أو المنادى •• من المستغيث أو المستغاث له •• من المتعجب أو المتعجَّب منه •• من المندوب أو المندوب له •••

ألهذا قالوا بانفراد اسم الجلالة بها ، فلا ينادى إلاّ بها •• أعني للمناسبة الجامعـة ؟

جـ – إذا فُتِحَ لك بابُ القاعـدة وأحكامها في ملاحظة الاسـم الجليل الجامع •• وفي ملاحظة الأداة الندائية الجامعة : فتأمّل ما وراء ذلك من أحلام البلاغـة والبلغاء ؟

الآن يطرح السؤال الخطير : ماهي البلاغـة ؟

ماهية البلاغة : هل هي غير القصد المؤثر •• ؟

وفنون الكلام وأساليبه ، هل هي غير أحلام المبدعين بالتأثير الذي يصـل بالإبـداع ؟

وحيوية الاتصال بالإبـداع : أفـراح تحققها الحروف ، عنـدما تجعَلُ

موسيقاها الأثر حيــاة، فيسمعك الله الجليل ُ ويسمَعْ منك •• ويُلبِّي لــك ما تريد •• ولو كانت إرادتك من باب المعجزة والإعجاز ؟

هنا بلاغــة النداء : يا أللهُ ••
وهنا أبلغ البلاغة : أللهمَّ ••
فكيف تحقق أحلام الإبداع عبر أحكام قواعد البلاغة ؟

د – أول الطريق : أن نقتربَ من القاعدة •• وأن نتودد إلى أحكامها ؛ حتى ترفع الحجابَ الكافُّ للأبصار عن كافها•• فإذا فعلتْ فتلقَّ هبات الأحلام•• فقد أسفرت الكاف باللام •• وصارت الأحكام هي الأحلام ••

« قال الذي عنده عــلمٌ من الكتاب :
أنا
آتيك بــه
قبل أن يرتدَّ إليك طرفك ••
فلما رآه مستقراً عنــده ••
قــال :
هذا من فضل ربِّي
ليبلوني
أأشــكر •• ؟
أم أكفر •• ؟
ومن شكر ••
فإنما يشكر لنفسه ••
ومن كفر ••
فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم »
(النمــل : ٤٠)

هذه الآية الأربعون من سورة النمل : مثال لوحدة الأحكام والأحــلام ؛ فأحكام علم الكتاب : مكنت من كان عنده هذا التمكين •• وجعلته في حــال من

تحقيق معجزة مثل الحلم ؛ فقد نقــل قصر ملكة ســبأ من اليمن إلى القدس ..
قبل أن يرتد إلى الملك النبّي ، سليمان ، طرفــه ..
والقصة مشهورة ، حتى عنــد الأطفال ..

وما نريد نقلَ قصور ولا أكواخ .. وإنما نريد الاهتمام بقواعــد الأحكام المعنوية : لعلنا نحقق سعادة الوعي .. وندرك قسمتنا من التأثر بالبلاغــة التي يمارسها البلغاء .. ومن التأثير بمن نريــد بهم اتصالاً ومعهم تعارفاً .. أليس الناس شعوباً وقبــائلَ ليتعارفوا ؟ ؟ !

هـ – قلت أول طــريق من يحبون بلوغ أحلامهم : أن يقتربوا من قواعــد الأحكام .. فكما تكتسب حديدة باردة من النار حرارة : كذلك يكتسب معايشو الأحكام والقواعد أحلاماً وفوائد ..

فهــل عقدوا العــزم على المودة في القــربى ؟

و – هل تستطيع أحكام النداء تحقيق هذه الأحلام لمــن يريد تحقيقها ؟
سؤالٌ منطقيٌ .. وواقعيٌ ..

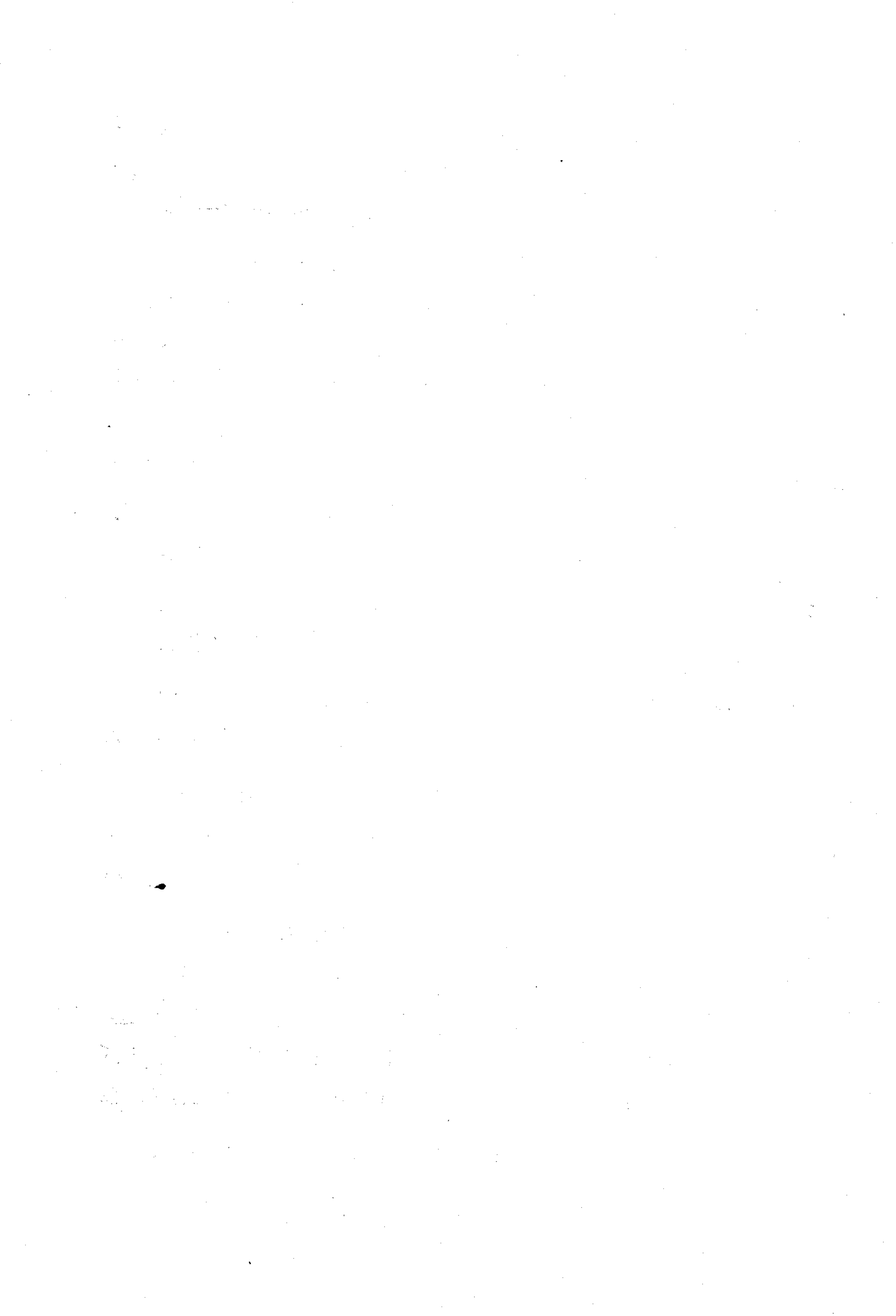
لكن جوابه : ليس موجوداً في كتب البلاغةِ الحالية .. ولا في كتب النحو الحالية .. فأين نجــده ؟ ..

ز – جوابنا الحاسم : إنه في البلاغة الممارسة .. في بلاغة الواصلين الذين استخدموا الكلمات الندائية فاستجابت لهم المناديات وكانت على أيديهم ولهــم ومنهم وبهم : المعجزات ..

عند هؤلاء الجواب ..

وهذا يعني : الكفُ عن الكلام بشروح مدرسية وجامعية .. والدخول إلى حضراتهم الشريفة .. والإصغاءَ إليهم من القلب .. والتمثّلَ الوفيُ لأساليب كلماتهم : حتى يكونَ العبورُ إلى الحضراتِ المعنوية فيهــا .. أو حتى يكونَ عبورُ تلك المعاني من مبانيها إلينا ... فإلى أين نذهب ؟

من يقبلنا في مدارس بلاغته الممارسة ؟



رسالة النداء

الباب الثاني

حضرات ندائية وراء الأدوات

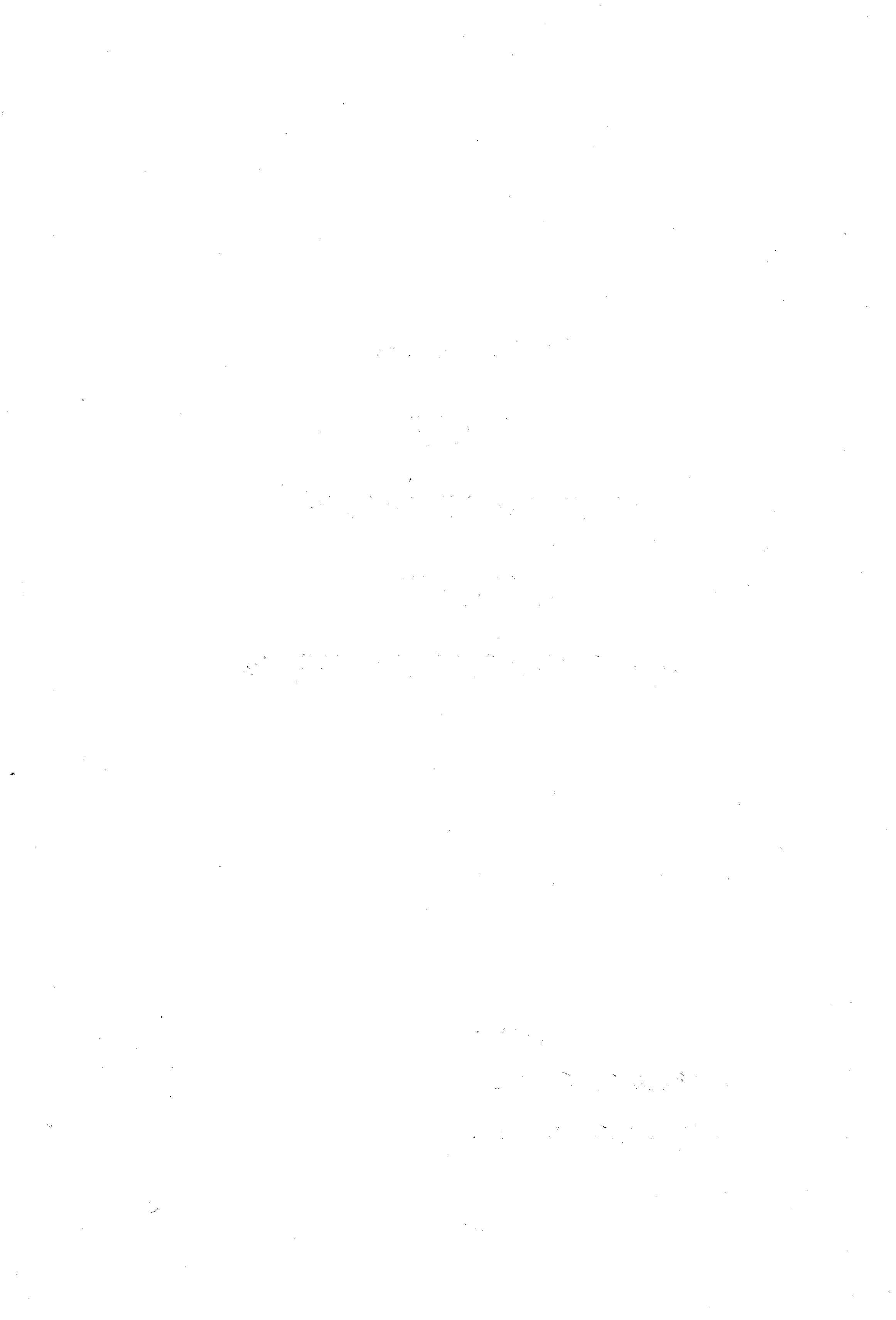
الفصل الأول

حضرة النداء الكاملة ((زكريا ومريم))

يا يحيى

خُذِ الكتابَ بقوّةٍ ..

وآتيناهُ الحكمَ صبيًّا ..



١٠ - في هــذه الدرجة العاشرة : تؤدي بنــا أدوات النداء إلى الحضرة الندائية •• وقد كنا بها مع كلٍّ أداة •• إنما كنا نريد التعرف إلى الأداة وكيفية استعمالها •• وإلى دورها الموجّه إلى قريب أو إلى بعيد •• أمّا هنا فنريد الارتقاء إلى حضرة نــداء كاملة •• فيها المنادي •• وفيها المنادى •• وهما يتحاوران •• ونسمعُ منهما •• ونــدرك التطورات الإعجازية التي تمت عبــر التنادي بــين المنادي والمنادى ••

كنا في نصٍّ « المهد » مع أدوات النداء جميعها : أ - أي ؛ آ - آي ؛ أيا - هيا ؛ يا •• وا •• مّ ••

وأرى اعتبار الميم المشدّدة : أداة نداءٍ ، بديلة « يا » •• وهــذا الاعتبار له مسوّغاته الإبداعية ••

أما هنا : فنريد الدخول إلى نصٍّ « مهديٍّ » آخر •• لكن « المهد » هنا : يتنزل النداءُ بشأنه تنزلاً •• يُوحي وحياً يُصوِّر بالنداء : غرض المنادي •• ويُصوِّر بالنداء : تلبيــة المنَادى ••

أما يلوح لك وجــه الحضرة من سورة مريــم ••• ؟

في القرآن كلّه : ذكرت لفظة « نداء » مرتين ؛ إحداهما في سورة مريــم ، وهي : قصدنا •• والثانية في سورة البقــرة ، وليست قصدنا •• ونستعيذ بالله الحيِّ القيوم الحفيظ من مثل أولئك الذين صَوَّروا بآيــة النداء « البقرية » ، أعني الموجودة في سورة البقرة •• (١٧١) •

لذلك نعمــد إلى قصدنا عــلى صراط مستقيم وندخل إلى حضرة النــداء المريمية •• فماذا نحن واجدون للنداء وفيه ؟

ندخل الحضرة من مدخلها ، كما صَوَّرت ؛ لأن لكل جزئية : متانــة الصلة بالكــلّ ••

« بسم الله الرحمن الرحيم

١ - كهيعص .

٢ - ذكرُ رحمتِ ربِّك عبده زكريَّا .

٣ - إذ نادى ربَّه نداءً خفيًّا ... »

في هذه الآيات الثلاث : مدخلٌ ؛ لكنه مدخلٌ يلفت النظر .. ويثير الانتباه .. ماهي هذه الحروف ؟ ..

ما معنى الكاف الافتتاحية .. ؟ أهي : كاف الكمال .. الكلية .. أم هي : كاف كَوْنيات تفصيلية ؟ ..

ما معنى الهاء .. أهي : هاء الهوية .. الهدى .. أم هي : هاء الهبوط إلى « دار البلية وتناسل الذرية » ؟ ..

ما معنى الياء .. أهي : ياء الينبوعية .. اليُمن .. أم هي : ياء اليُسر الممكن لمن يقصد الينبوع ويطلب من يُمْن مائه ..؟ وهل يُخَيَّبُ أو يظمأ من وثق بماء ؟

ما معنى العين .. أهي : عين العناية .. العلوّ .. أم هي : عين العبادة المرشدة إلى « خير الإنسان وإسعاده » .. ؟

ما معنى الصاد .. أهي : صاد الصفاء .. الصدق .. أم هي : صاد الصبر المناسب لمقتضى حال العيش في ظروف زمان ومكان أرضيين ؟ !

إن علم المعاني .. والمعنيين به : يجدون بهذه الحروف أسرار إعجاز حرفيٍّ نسمّيه : « إعجاز الدلائل » .. لأن القائلين بتأويل هذه الحروف : كثيرون .. وما يعلم إلاّ اللهُ مقاديرَ اقترابهم أو ابتعادهم عما هو « عين اليقين » .. والعلم به حقاً ..

وأهمية هذا المرموز الحرفي في المدخل إلى حضرة ندائيةً : أنه حقق غـرض النداء الذي يميل المشتغلون بالبلاغة إلى الاتفاق عليه ؛ أما قالوا بتحديد النداء : « هو طلب الإقبال » •• ؟ يعنون : أنه تنبيه للمنادى ؛ ليتجه وجهة المنادي •••

وهذا المرموز الحرفي : مثل النقر الموسيقيّ الجاذب •• يقدّم به لكلمات الوضوح القادمة بصراحتها •••

ونتهيّأُ مع تهيّبٍ : لنتلقى أمراً •• ليكشف الستار عما وراء هذا التنغيم ••

وها هو يُرى ؛ وكأنه بيـان جوابيٌ لسؤالنا الثائر بنـا ، بمثل القول : وما معنى هذا « المرموز الحرفي » ؟

« ذِكْرُ رحمـةِ ربّك
عبدَه
زكريا •••
إذ نادى ربّه
نـداءً
خفيًّا ••• »

إنّ « الذِّكْرَ » : ثناءٌ •• أو صيتٌ •• أو شرف •• أو هي جميعـاً : أصابت عبد الله زكريًّا من رحمة ربه •• وذلك النوال : بلغَه زكريا لدى مناداة ربّه بالصورة التي ناداه بهـا ••

وهذه الصورة : هي قصدنا ؛ لأنهـا تُضْمِرُ معنىً إعجازيًّا مُعجزاً •• فما هـو ؟

الوجه الأول لبلاغة الصورة : هو الوجه البنيوي ؛ فهي تامة العمران ؛ فيها : المنادي •• والمنادى •• والفعل •• والمصدر •• والكيفية •• والحيثية ••

فالمنَادي : زكريا •• عبدُ ربّه •• الذي هو : ربّك ••

أردت هـذه الإشارة ؛ لنتذكر أن القـرآن مُوجَّه" إلى خـاتم الأنبياء : محمد ﷺ ؛

ونلاحظ : أن كافَ الخطاب في الآية الثانية « ربكَ » : سبقت هاء الغائب في الآيـة الثالثة « ربَّه » ..

ونلاحظ أيضاً ، أن حروف المرموز الحرفي « كهيعص » : تأخـذ نسَقاً ، قد يكون ، والله أعـلم ، تأسيساً حرفياً لجهاتِ السورة .. أو لأهمّ ما يُرادُ تفتيحه من إعجاز ومعجزة ؛

نُوجِّه إلى الفكرة .. وندعها حتى تسطع من التقـدم في معرفة الحضرَة الندائية ، وبالتدريج المتلمّس ؛ لأننا في عـالم من أسرار الإعجاز الحـرفيّ .. يؤدّي إلى معجزات فـرحٍ حيَويٍّ تكوينيٍّ .. فكل حرف ، هنا ، له قيمته التأثيريـة ..

المهم : إن المنادي معروف ؛ فهو عبد الله زكريا ..

أمَّا المنادى : فهو ربُّ زكريا .. ونحن نعلَمُ أن أحكام النداء الإعرابيَّة : تقع في هذا الاتجـاه .. أعني : المنادى .. فهو : وجهـة مناديه .. وهو الذي يُعْرَبُ ويبنى .. ويُرخَّم أو يُمَدُّ ...

وننتبه إلى التقابل بين ركني النداء : زكريا وربِّ محمد وزكريا ..

فالتقابل بين : عبد ينادي .. وبين ربٍّ ينادى .. وهي مقابلة وُدِّية بـين جزئي إنساني .. وكلي ربوبيّ ..

ومقابلة أخرى بين الفعل : « نادى » .. وبين المصدر : « نداء » ..

ونلاحظ : أن الفعل استوفى مفعولَه عند ربِّه .. لكـن مفعوله جوَّزه مَجازاً مفتوحاً إلى مُطلقية مفعولية ؛ فنداءً : مفعول" مطلق ، جاء مقارباً لحروف فعله .. كأنما يوحي بأن المصدر يستجيب لفاعل هذا الفعل وكما يريد ..

الملاحظة : دقيقة .. لكنها جاذبة إلى هذا التقابل بين الفعل الجزئي « نادى » المناسب للمنادي الجزئي « عبد ربــه زكريا » .. وبين المفعول المطلــق الكلي « نداءً » ، المناسب للمنادى الكلي « ربك.. ربه » ، رب محمد .. ورب زكريا ..

وينبغي التخلّص من شيوع الفهم حول كلمة « مفعول » .. فهي ، هنـا ، بمعنى مطلق ، أي « محتوم » .. وتذكّرْ .. من كعب بن زهير :

فكل ما قــدر الرحمن مفعول ..

ومقابلة ثالثة بين كيفية النداء ؛ فهي خفية الهيئة .. « إذ نادى ربه نــداءً خفيّاً .. وبين الحيثية ، أي الظرف الذي كانت بــه تلك الكيفية » فالظرف ، « إذ » : مثل : حيث .. وقد يكون جامعاً بين دلالتي الزمانية والمكانية ..

وبكل حال ، فالدلالة الحيثية : دلالة محدود جزئي .. والدلالة الكيفيّة : دلالة مطلق كليّ .. حرره من القيود الخارجية : كونه خفيّاً ...

هذا الوجه البنيوي لبلاغة الصورة ، تمت له الأركان الستة ؛ أو الجهات الست ؛

المنادي والمنادى .

الفعــل والمصدر ..

الظرف الظاهر والكيف الخفي ...

وهذه الصورة واحدة : لا نظير لها .. من حيث كمال البنية .. وربّما دلّ هذا التأليف الممكن لصورة النداء إلى ما سيحمّل من شُحَنِ الإعجاز المعنويّ ..

لذلك تتقدم من هذا المدخل الجامع : نحو الحضرة الكاملة ؛ لنرى ونسمع : ماذا تمّ فيها .. وكيف أحدث النداء إنشاءَه البلاغيّ المطلوب ... ؟ !

٤ – قـال :

ربِّ ..

إنِّي ..

وهنَ العظمُ منِّي ..

واشتعلَ الرأسُ شيباً ..

ولـمْ أكنْ بدعائِكَ ..

ربِّ ..

شـقيّاً ...

٥ – وإنِّي

خفتُ المواليَ من ورائي

وكانت امرأتي عاقـراً

فهَبْ لي من لدنك وَليّاً ..

٦ – يرثني

ويرث من آل يعقوب

واجعـله ...

ربِّ ..

رضيّاً ...

تُظهر الآيات الثلاث : ترجمة النـداء الخفيّ ، الذي رفعه زكريا لربـه ، بهـذه المقولة التي نسجت حول الاسم الجميل « ربِّ » .. ودون وساطة أداة النداء الظاهرة .. فقد كان القرب الخفيّ مُغنياً عن مدِّ الصوت بأيـة أداة نداءٍ للقريب أو للبعيـد ..

ومن يدري تفاصيل تلك الكيفية .. أكان ثغـر زكريا هو الذي يتكلم .. أم كانت كل خلية من خلايا تكوينه .. وكل كرية من كريات دمه : تنـاجي ربَّه بهـذا النـداء الخفيِّ .. ؟

لذلك أدى الحال غرضَ النداء الخفيِّ ، دون أداة نـداء ..

وصرنا بشوقٍ إلى سماع صوت المنادى بعدما سمعنا من المنادي .. فكيف أجـابَ المنادى ؟

٧ - يا زكـريا
إنَّا
نُبشِّرُكَ بغـلامٍ
اسمُه : يَحيى ..
لمْ نجعلْ له من قبلُ سميًّا ..

في الآيـة السَّابعة : بلغَ النداءُ بلاغتَه .. وحصل الإعجازُ الخفيُّ .. وتبدلَتِ الوجهة ؛ فقد صار المنادي منادى .. واتجه صوت المنادي الذي كان منادى : يُبَشِّرُ زكريًّا بالاستجابة لطلبه .. وبتحديد اسم الوليِّ الذي يرثـه ويرث من آل يعقوب ..

ونلاحظ : أن المنادي يتكلم بلسان حال جمعيٍّ ؛ فيقول : « إنا نبشرك » ..

والملاحظة : لننتبه إلى سموِّ المقام من جهة .. وإلى قربه الحنُون واهتمامه من جهـة ثانية .. فكأنما حمَّل الاستجابة لوفـدٍ عظيم وعديد من الملائكة ، فُصِّلَتْ آياتُه في أماكنَ أخرى من القصص القرآنيِّ ؛ ولا بأس بِتأمُّل الآيةِ التاسعة والثلاثين من سورة آل عمران ، فهي ناشرةُ مطويِّ هذه الآية المريمية ؛

« فنادتهُ الملائكةُ ،
وهوَ قـائمٌ
يصلي في المحراب :
أن اللهَ
يُبشركَ بيحيى
مصدِّقاً بكلمةٍ من الله

وسيّداً
وحصوراً
ونبيّـاً
من الصالحين ••• »

(آل عمران : ٣٩)

لكن جوابَ النداء مدهشٌ ، فعلاً •• والجو : بالغ التأثير •• لأنـه اجتاز مسافات نفسية عديدة •• لذلك انبهر زكريا •• ونادى من حـاله : مستغرباً أن يتحقّق ما كان قـد طلبه في ندائـه السابق ••

٨ – قـال :

ربِّ ••
أنّى يكونُ لي غلامٌ
وكانت امرأتي عاقـراً
وقد بلغتُ من الكِبَرِ عِتِيّا •• ؟
سلام الله على زكـريا ••

إن المقابلة بين مضمون ندائه هذا •• وبين مضمون ندائه السابق : يُصوِّر وجهين متقابلين ؛ وجه الكلمات الراجية بهـدوء الحروف :

« فهب لي من لدنك وليّاً ••
يرثني
ويرث من آل يعقوب
واجعله : ربِّ
رضيّا •• »

ووجه المشاعر التي يبهرها تحـول الكلمات المحكية ، أو المنْويّة •• إلى

حقائق تنفتح على حضرات واقعية •• فيصير : الوليُّ المرجوُّ •• يحيى •• بكامل صفاته •• فيقول بحال الدهشة مستغرباً ومتلهفاً للتأكد :

« أنَّى يكونُ لي غــلامٌ •• ؟
وكانت امرأتي عاقــراً •• ؟ !

زكريا كان يعرف ما يصوره ، منذ النـــداء الأول •• فلِمَ دعا إذاً ؟

ويستمر الحوار بين زكريَّا •• وبين ربِّه ، الممثَّل بملائكته ، أو وسطائه •• والكلام الآن : جواب لزكريا :

٩ – قــال : كذلكَ ••

قــال ربّكَ :
هوَ عليَّ هيِّنٌ ••
وقد خلقتُكَ من قبلُ
ولم تكُ شيئا ••

١٠ – قــال :

ربِّ
اجعلْ لي آيــةً ••
قــال :
آيتُكَ
ألاّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سويّاً ••

١١ – فخرجَ على قومه من المحرابِ
فأوحى إليهمْ :
أنْ سبِّحوا بكرةً وعَشيًّا •••

إلى هنــا : ولوحةُ النـــداء •• تتوهج بألوانها وأصواتها •• ويَسودها

الانتظار ؛ فالوعد : قد حصل ؛ بل هو : البشارة •• والولي الوصي : صار معلوماً باسمه وصفاته ••• والعلامة المؤكدة لتحقيق الرَّجاء : أن يُحبَس زكريا عن الكلام مع الناس ثلاث ليال سويا ؛ أي دون مَرَضٍ كالذي يكون للأخرس ، أو الأبكم •••

وماذا بعد الانتظار ؟

لقد جاء النداء الجديد : عمليًّا •• أخرج زكريًّا من الانتظار •• وأخرج الأعصاب المتوفزة لمعرفة النتيجة :

١٢ - يا يحيى

خُذِ الكتابَ بقوّة
وآتيناهُ الحكمَ صبياً ••

في الآية الثانية عشرة : تكتمل لوحة النداء •• ويصير ذلكَ المرجوُّ حلماً من أحلام زكريا : واقعاً حيًّا ؛ بل هو يحيى •• وهو المأمور بقوّة أخذ الكتاب •• وهو الذي أُوتيَ الحكمَ صبيًّا •• بعد أن كان حلماً في نداء أبيه الخفيّ •••

كيف صار الحلم حكماً ؟

أهي قواعد الأحكام البنيوية : إذا أتقنت •• وعلمت •• تملك إعجاز التحول من الكلمة إلى الحضرة •• ؟ •• من الحلم إلى الحكم •• ؟ أو من الحكم إلى الحلم ؟

لقد خُتمت لوحة النداء الخفي : بما يُظهر صفات الولي ، الذي ولد استجابة لنداء أبيه الحبّيّ الخفيّ ؛ فقد أُوتيَ الحكم صبيًّا •• ومع الحكم أعطي من ألطاف الرب وعنايته ما يُسمع ويُرى :

١٣ – وحنـــاناً من لدُنَّا وزكاة

وكان تقيّاً

١٤ – وبرّاً بوالديهِ

ولمْ يكنْ جبّاراً عصيّاً

١٥ – وســلام عليه

يــومَ وُلد
ويومَ يموتُ
ويومَ يبعثُ حيّاً » ..

في هذه الحضرة : سبع صور نداء ؛ خمس منها دون أداة نداء ؛ واثنتان مع الأداة (يا) ..

والنداءات الخمسة من زكريا : والمنادى هو الاسم الجميل الرب ؛

١ – ربِّ إني وهنَ العظمُ مني ..
٢ – ولمْ أكنْ بدعائكَ ربِّ شقيّاً ..
٣ – واجعــله ربِّ رضيّاً
٤ – ربِّ أنّى يكون لي غــلام .. ؟
٥ – ربِّ اجعلْ لي آيــة .. !

نلاحظ اقتران النداء بأساليب طلب أخرى ، مثل : الأمر .. في الصورتين : (٣ و ٥) .. ومثل : الاستفهام .. في الصورة : (٤) ..

كما نلاحظ اقترانه بأساليب الخبر المؤكــد المثبَت في الصورة : (١) .. والخبر غير المؤكد المنفي ، مثل : الصورة : (٢) ..

وهــذه الملاحظة : لِتُظهر هيمنةَ الكمال الندائيُّ على جهــاتِ البُنى ، خبرية وإنشائية •• وكذلك : قيامَ العلائق بين المنادي والمنادى ، دون أدوات وسيطية ظاهــرة ••

أما الصورتان الباقيتان ، فهما من الجهة الربانية التي ناداها زكريا :

٦ – يا زكريا إنا نُبشّرك بغلام ••
٧ – يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوةٍ ••

والملاحظة فيهما : أن الأداة ظهرت في كلتيهما ؛ تبعيداً لمــا كان في أوضاع زكريا وأحكام ظروفه •• وتقريباً لما كان في أحلامه •••

ونلاحظ أيضاً : اقتران الأولى بالخبر المؤكد ومن جماعة ••• واقتران الثانية بالأمــر المشدّد •••

والكلام طويل في بلاغة الإنشاء الإعجازي في هذه الصورة الندائية ؛ لأن النداءات السبعة : شيّدتْ حضرةَ حيــاةٍ جديدة •• وغيّبتْ حضرة حيــاةٍ قديمة •• وكما نقول بلغتنا المعاصرة : لأن « الكتابة بالدم غير الكتابة بالحبر » •••

فاللوحةُ الندائيةُ : بنيت بناءً بلاغيّاً متكامِلاً ؛ كما أشارت إلى تكاملها من المدخل ؛ فجميع الأركان مجتمعة : فعلها ومصدرها •• مناديها ومناداها •• كيفيها وحيثيها ••

ومن تكاملها : عــدد النداءات ؛ فهي : سبعة •• واليــاء : أداة الظهور الاستجابي المعجز •• بعد أن كانت أداة الاستخفاء الاستعطائي الراجي ••

إن دراسة أساليب النداء في السورة كلهــا : يؤكّد إعجازاً مستمرّاً ؛ لأن الأنبياء جميعهم ؛ سلام الله عليهم أجمعين : لهم مثل هذا الإعجاز •• وقــد كانت الفاتحة البارقية : مفتاحاً لإضاءة هــذا المصباح ••

أعني ما أشرت إليه : من خطاب خـاتم النبيين بالقرآن ولو كان يروي له قصص أنبياء آخـرين ••

وإطـالة التأمل بالافتتاح : تملأ المتأمل بحالٍ من إعجاز البيان ؛

ذكرُ رحمـةِ ربكَ عبده زكريا ••

إذ نادى ربَّه نـداءً خفيًّا ••

وقـد رأينا الكاف خطاباً لمحمد •• والهاء إخباراً عن زكريا •• أما يصـح أن تكون الياءُ : للوليِّ يحيى ؟ ! !

* * *

رسالة النداء

الباب الثاني

حضرات ندائية وراء الأدوات

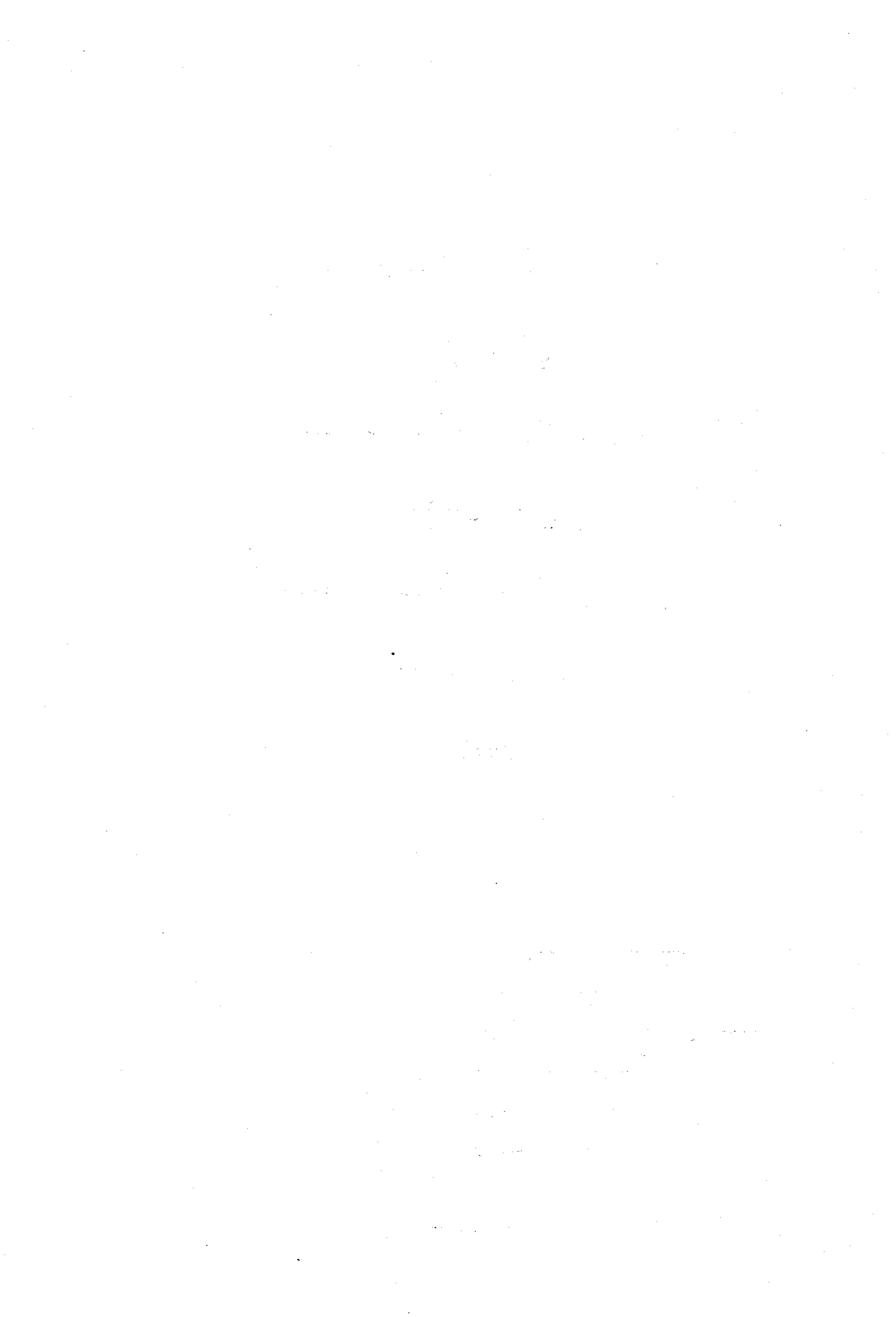
الفصل الثاني

بلاغة النداء الأعلى : في الوحي

نداء الله بالميم

اللهم

قال عيسى ابنُ مريم :
اللهم ربَّنا
أنزلْ علينا : مائدةً من السَّماء
تكون لنا عيداً
لأولنا وآخرنا
وآيةً منك ...



١١ - بلاغة النداءِ العليا •• وبلاغته الأعلى : هل اتضحتا ؟

أشرنا إلى بلاغة النـداء العليا مع الأداة : « يا » •••

كما أشرنا إلى بلاغته الأعلى ؛ أو أبلغ بلاغته مع : « الميم » عنـدما تُبادل اليـاء •• وتغيب تلك الأداة الأساس في النداء •• فنقول : أللهمَّ •• بـدلاً من : يا أللهُ •••

قولنا : إنها أبلغ بلاغة النداء •• أو : بلاغته الأعلى •• يحتاج إيضاحاً ••

لاحظنا : أن لفظ الجلالة الأعظـم « الله » لا يُنادى إلا بأداة « يا » ••• لكنها تستخدم مع غيره •• ولأغراض كثيرة ، تفهم من السياق •• حتى أنها تصلح لمـا تصلح له تلك الأدوات السبع الأخـرى : أ - أي ؛ آ - آي ؛ أيا - هيا ؛ وا ••

أمَّا بديلتها الميم : فلا شـريك لِلهِ بهـا ؛ فهي مقصورة عليـه ؛ نقول : أللهم •• ولا نقول مع سواه مثل ذلك ••

وهذا التوحد : جاذبٌ جـداً ؛ لأن الانتباه إلى مغزاه : يفتح لنا بلاغـة النداء في أرقى مستوياته •• ويأخذنا برحلة ممتعة في فـن يقوم بذاتـه ، هو : فـنُّ الدُّعـاء ••

وإذا كان المشتغلون بالبلاغة ، يبحثون عن إعجاز البيان ، وخصوصاً الإعجاز التأليفي في سور القرآن •• فإنما يجـدون ذلك في صور الدُّعاء •• وخصوصاً منها هذه الصورة •• وسنرى بالتدريج : كيف نصل إلى مطلات مِنْها ، هي غاية الرقيِّ الندائي •• إن لم تكن غاية الرقي الإبانيّ كلِّه ••

البلاغة الممارسة ، ذاتها : تفصح عن أحلام الإبداع وإحكام القاعدة ..
لذلك ندخل إلى نصوصٍ مختارة لهذا المستوى من مستويات النّداء .. أعني مستوى الأبلغ ..

بلاغة الأنبياء : هي الأبلغ ، كما اعتمدها تأليف الوحي الملقى إليهم بوساطة جبرائيل .. عليهم السّلامُ جميعاً ..

في سورة آل عمران : يؤمَرُ خاتَم الأنبياء ، محمد (ص) بهذا الدعاء على الصورة التالية :

« قُلِ :
اللهُمَّ مالكَ الملكِ ؛ !
تؤتي الملكَ من تشاء ،
وتنزِع الملكَ ممن تشاء ؛
وتُعزُّ من تشاء ،
وتُذلُّ من تشاء ..
بيدكَ الخير
إنك على كل شيء قدير ..
تُولجُ الليلَ في النهار ،
وتولجُ النهارَ في الليل ؛
وتخرجُ الحيَّ مِن الميّتِ ،
وتخرج الميّتَ من الحيِّ ؛
وترزُق من تشاء بغير حساب »

٣/ ٢٦ — ٢٧

وعلى لسان محمد (ص) ، أيضاً ، في سورة الزمر ؛ يؤمر بالدعاء النـدائي على هذه الصورة :

« قُـلِ : اللهمَّ فاطر السماوات والأرض ؛
عـالم الغيب والشهادة ..
أنتَ تحكمُ بين عبـادك
في ما كانوا فيـه يختلفون .. »

٣٩ / ٤٦

في الصورة الأولى ، كان يمكن القول ، من وجهة نظر القاعدة :

يا ألله
يا مالك الملك ..

وفي الصورة الثانية :

يا ألله
يا فاطـر السماوات والأرض
يا عـالمَ الشهادة والغيب ..

لكن هذا المنادى : لا يشاركه أحد في هذا المقام ، الذي يخاطب به ؛ فهو ، وحده : مالك الملك .. فاطر السماوات والأرض .. عالم الشهادة والغيب ...

لذلك اقتضى حال المقام : أن ينادى بالميم بدلاً من الأداة « يا » ، تعظيماً ..

والجمل التي تلت صورة النداء بالميم : تؤكّد هذا المقام الأعظمَ ، الذي ينفـرد به الله ؛ والصور واضحة فِطرية ؛ فمَن يدعي مثلاً : أن له علاقة بصناعة الليل والنهار .. أو بما يستوعبانه من أسرار الحياة والموت ... ؟

ربما لا تخلو الأرض من مكابري الحـق ؛ وسياق الآيات في السُّوَرِ : يشير إلى مثل هؤلاء المكابرين المشركين .. ففي الآية التي سبقت آية النـداء ، من سورة الزمر ، وَصفٌ لأمثال هؤلاء :

« وإذا ذُكِرَ اللهُ وحــده
اشمأزَّت قلوبُ الذين
لا يؤمنون بالآخــرة ••
وإذا ذكرَ الذين مِن دونــه
إذا هم يَستبشرون »

٣٩ / ٤٥

توحيد الله وحده : بالمالكية •• أو : بالفاطرية •• أو بالعالِمية •• قد لا يريح الملوك •• أو مادحي الملوك •• ووقائع الحيــاة معلومة ، قديماً وحديثاً •• وفي كل الأجيــال ••

والتعبيرُ الذي يُصوِّر الحياة ، هنا ؛ هو التعبير الأبلغ •• وهو : أبلــغ البلاغة •• وميم التعظيم : ذات دلالة على ذلك ••

وفي سائر المواضع التي وردت فيها هذه الصورة الندائية : تواجهنا هــذه الدرجة الأعلى من المطابقة المقالية مع مقتضى حال المقام ••

وفي سورة المائدة ، نــداء بهذه الصورة ، على لسان عيسى (ص) :

« قال عيسى ابنُ مريــم :
اللهــمَّ ربنّــا
أنزلْ علينا مائــدةً من السماء ••
تكون لنــا عيــداً
لأولنا وآخرنا ••
وآيــةً منك ••
وارزُقنا
وأنتَ خــيرُ الرازقين •• »

(٥ : ١١٤)

وأصل النـداء الممكن :

يا ألله

يا ربَّنـا ..

لكن المقـام الإعجازي : اقتضى ميم التعظيم انسجاماً مع قواعد البلاغـة القائمة على أساس المطابقة ..

وبالمطابقة : يتمايز المعبِّرون ..

فيكونُ أحدهم : بليغاً أو أبلغ ، وفق الدرجة التي يبلغها من تحققِ المطابقة بين صورة بيـانه وبين حال ما يعبِّر ، أو مَن يُعبِّر عنه ..
والتأمل بحوار المسيح مع الحواريين ومع الله الرب الكريم : يُظهر للمتأمل أسراراً من الإعجاز ، وفق درجته ومقامِهِ أيضاً .. ألا يغري التأمل ؟ !

هاتان الصورتان : تمثلان لمستوى الأبلغ ، عندما يكون الأنْبياء هم الذين يتكلمون .. فكيف يكون مستوى الأبلغ مع هذه الصورة : عندما يتكلم المؤمنون من العموم .. والكافرون كذلك ؟

في سورة يونس تصوير لدعاء المؤمنين بهذه الصورة من النداء التعظيميّ ؛ لأنهم وجدوا أنفسهم في مقام رفيع من الإكرام :

« إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات
يهديهمْ ربُّهمْ بإيمانهم
تجري من تحتهمُ الأنهـار
في جنـاتِ النعيم ..
دعواهم فيها :
سبحانك اللهـمَّ
وتحيَّتُـهم فيها : سلام ..

وآخـر دعواهم :
أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين »

(١٠/ ٩ - ١٠)

إن المقـام الذي بلّغَهُ المؤمنون ، لم يُبْقِ لهم طلباً ، بعيـداً أو قريباً يسألونه ؛ لذلك كان التعظيم بالنداء المسبِّح : تعبيراً اقتضاهم حاله ..

أمَّا الكافرون : فلهم صورة مختلفة .. نأخذها من سورة الأنفال .. وفيها : ضبطٌ لواقع حالهم المصرِّ على معاندة رسول الله (ص) ، حتى أنهـم يطلبون بمناداتهم طلباً عجيباً ؛ فهم يطلبون أن يُمطَروا بحجارة من السماء إن كان حقـاً ما يحملُه ويقوله هذا النبي الكـريم (ص) ..

« وإذْ يَمْكُر بكَ الذين كفروا
لِيُثْبتوكَ
أو يَقْتُلوك
أو يُخرجوك
ويمكرون
ويمكـرُ الله
والله خيرُ الماكرين ..
وإذا تتلى عليهم آياتنـا ،
قالوا : قد سمعنا ..
لو نشاء لقلنـا مثل هـذا
إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأولين ..
وإذْ قالوا :
اللهـمَّ
إنْ كان هذا هو الحـقَّ من عندك
فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء

أو ائتنا بعــذابٍ أليم •• »

(٨ / ٣٠ - ٣٢)

ووجـه الإعجاز البلاغي : في نقــل مقامهم النفسيّ والنهــائي من الدعوة التّوحيدية التي يحملها النبي (ص) •• فهم لا يطلبون التوصل إلى الحــق •• وإنما يطلبون قتل أنفسهم إنْ كان الحق غير ما يتعقدون ••

وجانب آخر نلاحظه : وهو إلزامهم بتعظيم من يستطيع وحــده أن يُمطِر حجارة من السماء ••

وبالمقارنة مع الصور السابقة ، نلاحظ : أنهم أُنطقوا « اللهم » مجرّدة •• بينما وردت مقترنة بسلسلة من الأسماء الحسنى أو التسبيح عند الأنبياء والمؤمنين••

وقد يخطر بالبال : ما وجه خلافهم مع الدعوة الجديدة ، ما داموا يُنادون باسم الله المعظم ، ويقولون : أللهمّ •• ؟

والجواب في الآيات التي تلت هذه الآيــة •• فالله لا يعذبهم ومحمد فيهم •• أو ما داموا يستغفرونه •• ولذلك لا يعذبهم مع أنهــم يَصُدّون عــن المسجد الحــرام •• ومع أنهــم : ليسوا أولياءَ له ، أي للمسجد الحرام •• وإذا كانوا يُصَلّون عنــده ، فصلاتهم : ليست إلاّ « مُكاءً وتصدية » •• أي صلاتهم : نوعٌ من الصفير والتصفيق الذي يبعث الصدى ••

« وما كان صلاتهم عند البيت :
إلاّ مُكاءً وتصديةً ••
فذوقوا العــذاب
بما كنتم تكفرون » ••

هذه هي آيات النداء بالميم ، وهي خمسٌ كما لاحظنا ، ولكلٍّ منها : مقامٌ من بلاغة الإنشاء بصورته الندائية •• ويمكن العودة إلى تأملها : كما أوردناها ••

وكما هي في سياق السورة الكلية •• كما تمكن مقارنتها مع صور النــداء التي سبقتها بأدوات النــداء الأخرى ••

إن التأمّلَ بالمقارنة : يُظهر لبلاغةِ النّداءِ مستويات في تصويرِ الإنشاء الإبــداعي ••

هذا من جهــة ••

ومن جهــة أخرى : يمكن الاتجــاه إلى مناديات إبداعية ؛ غــير قرآنية ؛ أعني : بلغــة بشرية عامة ؛ لمعرفــةِ الأداءِ الذي تُقدمه ميمُ التعظيم بهــذه الصورة الدّعائية ••

ماذا نجــد من البلاغة العليا والأعلى : في مثل هذه النداءات المستغيثة •• أو المستغفرة •• أو المعظمة لله •• ؟

* * *

رسـالة النـداء

الباب الثاني

حضرات ندائيـة وراء الأدوات

الفصل الثالث

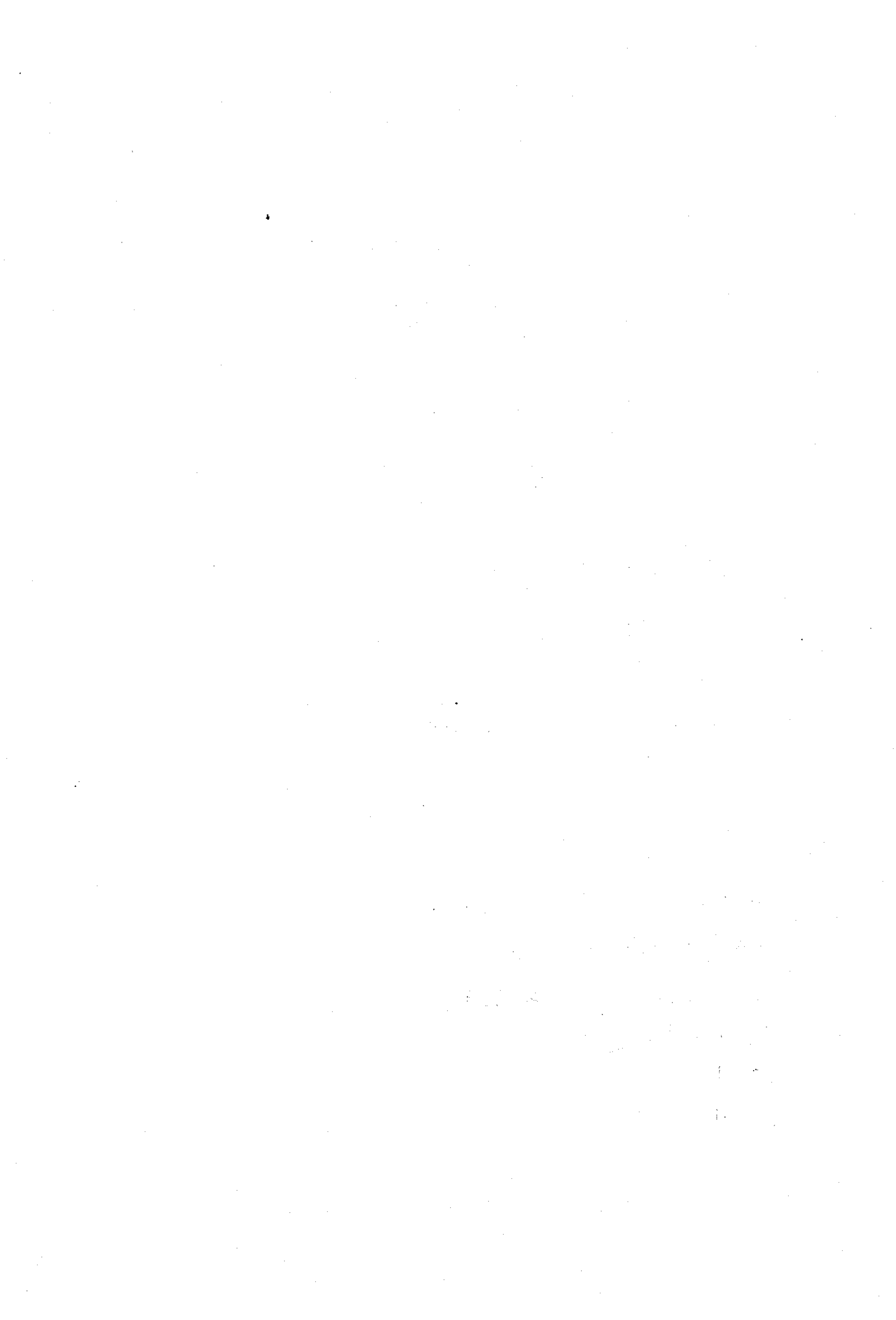
بلاغة النداء الأعلى : من نهج البلاغة ذي الفقر

نـداء الله بالميم

اللهـم

اللهم اغفـر لي ما أنتَ أعلمُ به مني
فإن عدتُ فعـدْ عليَّ بالمغفرة ..

اللهمَّ اغفـر لي رمزات الألحـاظ
وسقطاتِ الألفاظ
وشهواتِ الجَنان
وهفواتِ اللّسان



في « نهج البلاغة » : صورُ نداءٍ بالميم التعظيمية لحضرة الجليل « الله » ••
وهذه الصور : لوحات" دعائية ، يقف بهـا الإمام علي (ع) : أمام الله مناجياً ؛
وفي مناجاته يطالِبُ لأبنـاء التراب ببلوغ حاجاتهم كما في مناجاة الاستسقاء ؛
التي وضعها الشريف الرضي في مختارات الخطب •• أو يدعو لمحمَّد والأنبياء (ص)
كما في عدد ممَّا اختير له •• أو يدعو الله بأسمائه الحسنى ويعظِّمه وينزهه ••
أو يسأله المسائل التي تُقرِّبه إليه بالاعتراف والاستغفار •••

نقف أمام لوحة الاستسقاء •• أو مجوَّدة الاستسقاء •• وسنعرف ونحـن
نتأمَّلُ بلاغتها : لماذا أقول « لوحة » ••• و « مجوَّدة » •• أو « ملحَّنة » •••

١ – أللهُمَّ

قد انصاحت جبالُنا
واغبَرَّت أرضُنا
وهامت دوابُّنا
وتحيَّرت في مرابضِها
وعَجَّتْ عجيجَ الثَّكالى على أولادها ••
وملَّتِ التردد في مراتِعِها
والحنينَ إلى مواردها ••

٢ – أللهُمَّ

فارحمْ أنينَ الآنَّةِ
وحنينَ الحانَّةِ ••

٣ – أللهُمَّ

فارحَمْ حيرتَها في مذاهبها
وأنينَها في موالِجها •••

هذه الفِقرُ الثلاث الأولى : تعرض حال الجبال والأرض والدواب ..
وتسترحم لها أرحم الراحمين ...

كان يمكن القول بأسلوب النداء الذي يستخدم الأداة « يا » :

يا ألله ..
يا ألله ..
يا ألله ..

لكنّ مقتضى الحال : استدعى ميم التعظيم للمنادى المدعو ؛ لأنه وحده : يستطيع إنزال المطر العام ؛

ونلاحظ بلاغة التصوير في ظلال المعظّم بالنداء والرجاء :

اللهمّ ...
وبعد .. ماذا يلي هذا النداء ؟

الجبالُ .. الأرض .. الدوابّ ... يا غوثاه .. يا غوثاه ..

إن الجبال انصاحت : أي تشققت أعاليها كما تُشقق شفاه ظامىءٍ في صحراء .. فكأن شقوق تلك الشفاه : ثغور تصيح مستغيثة ..

إنّ الأرضَ اغبرّت : أي كأنّها من قرون غابرة ليباسِ تربتها وخلوّها من الخضرة والماء .. فهي مغبرّة : لأنّ الغُبار لباسُها الساتر ..

والإثارة البلاغية في أدراج هذه الكلمة التي وُصفت بها الأرض ؛ فهي : تحتوي معاني الفَقْر ؛ والجرح ؛ والنّداءِ ؛ والجدب ؛

أما يقال : بنو غبراء ؛ والمعنى : هم الفقراء اللاصقون بالتراب ؟ ..

وكذلك أما يقال : غَبِر الجرح ؛ بمعنى اندمل على فساد ،فلا يزال يتشقق ؟ !

أليس نقول : غبّر الإنسان ؛ بمعنى : هلّل •• أو ردّد صوتاً في قراءة أو غيرها •• ومن هذا قالوا : قوم يُغبِّرون باسم الله ؛ أي يرددونه •• ؟ !

أليس يقولون : سنة غبراء ؛ بمعنى : جَدْبة ؛ مغبرّة لاغبرار آفاقها من قلة الأمطار •• واغبرار أراضيها من عدم النبات والاخضرار ••• ؟ !

إن المقام : لا يقتضي الإطناب •• بل يتطلّب الإيجاز ؛ لأن اسم الله الأعظم ، الجامع للحضرات الأسمائية : عليم •• وخبير •• وسميع •• وبصير •• وهو : المدبِّر •• والمفصل ••

لذلك يكفي المستغيث البليغ أن يقول : اللهم •• واغبرّت أرضنا •••

الجبال والأرض : في حال من الثبات المستقر •• فاكتفي بتصوير الحال بجملتين تُجملان الإثارة المفَصَّلة لاستدرار الرحمة من غيث المغيث الرحمن الرحيم ••

لكن الدوابّ : ليست ثابتة كالجبالِ والسهول الأرضية •• بل هي تتحرك : هائمة ؛ متحيرة ؛ عاجّة ؛ متململة ؛

ولاحظ تصوير ما اقتضاه حالها في ظلّ شجرة المُستَغاثِ به العظيم الرحيم ؛

هامت دوابنا ؛ أي :، عطشت •• فالهُيام : يعني العطش •• ويعني : الحركة الباحثة عمّا يروي ••

وتحيَّرت في مرابضها ؛ أي : تحركت حركات متباينة ، وإلى كل الجهات ؛ وهي لا تعرف ماذا تفعل •• وتخيل : صورة خيول •• أو أبقار •• أو إبل •• أو أغنام •• أو حمير •• أو غير ذلك من أنواع الدواب الداجنة في حَظائرها ؛ وهي تموج بالحركة ظمأً ••

وعجَّت عجيج الثَّكالى على أولادها ؛

هنا : تختلط الأصوات ؛ فالدواب : مثل الأمهات اللواتي فقدن أولادهن ..
والأصوات واحدة ؛ كلها تعجُّ أي ترفع أصواتها مثل ريح مشتدة ، تثير الغبار ،
وتحرك كل شيء ...

هذه الأمهات العاجَّة : إنّما تفعلُ ذلك ؛ لأنها « ملت التردد في مراتعها »..
ولماذا التردد إلى تلك المراعي ولا عشب ولا غذاء .. « وملَّت الحنين إلى
مواردها » .. ولماذا .. ولا ماء في تلك الموارد ... ؟!

ألا يترجم عجيجها بكلمة البدء : أللهم .. ؟

لقد ترجم أبو تراب (ع) حال الجميع ؛ ووقف أمام الله الجليل : يناديه
بالتعظيم ؛ ويسترحمه : لأنين الآنَّةِ وحنين الحانة وحيرة المتحيرة .. من أُمّاتِ
الدواب وأمهات البشر ..

اللهمَّ فارحمْ ..
اللهمَّ فارحمْ ...

٤ — اللهمَّ

خرجنا إليك
حين اعتكرت علينا حدابير السنين
وأخلفتنا مخايل الجود
فكنت الرجاءَ للمبتئس
والبلاغَ للملتمس
ندعوك حين قَنِطَ الأنام
ومُنِعَ الغمام
وهلك السَّوامّ
أن لا تؤاخذَنا بأعمالنا
ولا تأخذَنا بذنوبنا

وانشر علينا رحمتك :

بالسحاب المنبعِق

والربيـع المغدِق

والنبات المُونِق ؛

سَحّاً وابلاً :

تُحيي بـه ما قـد مات ،

وتَرُدُّ بـه ما قـد فات ..

٥ – اللهمَّ

سُقيا منكَ :

مُحيية ، مُرْوية ؛

تامـةً ، عامـة ؛

طيّبة ، مباركة ؛

هنيئة ، مَريعة ؛

زاكياً نبتها ، ثامراً فرعُها ؛

ناضراً ورقُها ؛

تُنعِش بهـا الضعيفَ من عبادك ؛

وتُحيي بهـا الميْت من بلادك ..

في هاتين الفِقرتين : تطوير لعرضِ الحال ، وهزٌّ لجِذع شجرة الرحمة ؛ بمواجهةٍ واقعةٍ .. ومطالبة سافرة :

اللهمَّ : خرجنا إليك ..

اللهمَّ : سُقيا منك ..

نعم : ! جئنا إليك .. خارجين من بيوتنا ، فلا استقرار لنا ، هناك ، فقد : « اعتكرت علينا حدابيرُ السنين .. وأخلفتنا مخايلُ الجود ، فكنت : الرجاء .. والبـلاغ .. »

ونلاحظ الاستعارات المقتضاة لحـال الموقف ؛

فالسنون : مثل النياق ؛ لكنهـا : النياق المتعبة ؛ الهـزيلة من السير ؛ فكلّ ناقـة : حدبار ..

وكل سنة : معتكرة مثل حدبار .. أي أنها سنةٌ جدب ؛ ليس بهـا غيث ولا مواسم كالناقة الحدبار التي ليس فيها حليب لتحلب ، ولا لحـم لتُنحَر .. فهي : حدبار ..

وكأن صوت الكلمة المنتقاة : يوحي بتخوم الموت ؛ حـدبار .. فيهـا : الانكسار والتلاشي المائع في انبساط رمليٍّ بائر ..

وإذا كانت صورةُ الزمان والمكان : تستدر من الرحيم الرحمة ؛ فإن صورة السماء فـوق هذين الظرفين : تستدر الجود بالرحمة أيضاً ؛ لأن « مَخـايِل الجـود : أخلفتنا » ..

والمخايل : مثل المصايب ؛ وهي : السُّحُب التي تظهر كأنها تحمل جُوداً ، أي مطراً ؛ ثم تخلِف الوعد والرجاء ، فلا تمطـر ...

هـذه حالنا : نوقنا حدابير ؛ والسنون معتكرات ؛ والسحب مخلفات .. والجبال انصاحت ؛ والأرض اغبرّت ؛ فأين المفـر ؟؟!

« اللهم ...
فكنتَ الرجـاء ..

ندعوك أن لا تؤاخذَنا بأعمالنا .. ولا تأخذنا بذنوبنا ... وانشر علينـا رحمتـك ... »

يفرّ الإنسان المحتاج إلى ملجأ آمن .. وها هو : الله رجـاء المبتئس .. وبلاغ الملتمس ..

والملاحظة في الاعتراف بعـدل الله .. وفي الاتكاء على رحمته وفضله : ليتجاوز عن المقصرين والمذنبين .. وليعاملهم برحمته لا بأعمالهم .. وينشر عليهم رحمتـه المطلوبة ..

وأقول المطلوبة ؛ لأنه يفصّل بكيفية هذه الرحمة وفق حاجـة المستغيثين ؛ فهي كما يقول ، بدءاً من الالتماس بالأمر إلى نهاية الفقرة الخامسة ؛

« وانشر علينا رحمتك : بالسحاب المنبعِق ؛ والربيع المغدِق ؛ والنبـات المونق .... الخ »

إن التأمّل بتتابع الصور : يضَعُ المتأمّل أمام حركة من بعث الحياة تكاد تفيضُ فيضاناً من الكلمات ؛ « فالسحاب المنبعق » : أليس انبعاق الصوت موحياً بانفجار المطر الغـزير من الغيم وانهماره مُصوّتاً بقوته ؟

هذا معنى أول لانبعاق الغيم ؛ وشعبيّاً : يعبّر الناس عن الأصوات المختلطة القوية بهذه الحروف ؛ فيقولون للغاضب المتكلم بصوت عالٍ : لمـاذا تَبعَق ؟ .. والبُعاق : هو الصراخ .. وهو : السحاب الذي يسقط مطره بشدة ..

ومستوى آخر للكلمة في سياقها : هو الغاية من انبعاق المطر بإحداثِ ما يُلبّي حاجاتِ الناس ، ريّاً وشبعاً ؛ فالحياة في تلك الأوقات : تقوم على الغذاء بلحم الماشية ؛ وفي لغتهم : بعق الجمَل : أي ذبحَه ..

وقوة التعبير : بتحريك الأوتار القريبة والبعيدة ، دفعة واحدة ؛

« اللهمّ ... وانشر رحمتك علينا : بالسحاب المنبعِق .. سحّاً وابلاً : تحيي به ما قد مات ؛ وترد به ما قد فات . »

إنّ المطالب المبسوطة في ظلّ هذا النداء : مطالبُ إعجازية ؛ تتحكم بالطبيعة تحكماً إراديّاً ؛ تجعل كلّ شـيء ملبّياً يمنح أنواع ثماره : سـحاباً ، وربيعا ، ونباتاً ، وأمواتاً ، وغيباً ؛

فالسحاب ينبعق بمطره ، كأنه لتدفقه : يختصر الأوقات ، فيتحول من ماء إلى غذاء تأكله الجمال .. حتى كأن الجمال : تُذبَح ، فينبعق دم أعناقها .. كما ينبعق ما في بطونها ...

والربيع يغدِق : أي يجود كأنه ماء يجري بكثرة ..

والنَّبات يونِق : وهذا مستوى تجاوز الحاجة الماسة إلى الجمال الأنيق ، المعجِب ، المفرِح ..

وما مات من سطح الأرض بسبب اليباس وانحباس المطر : يحيا فيخضر .. وبذلك يُردّ ما فات على الناس ..

والفقرة الخامسة : تطوّر لوحة الانبعاق بالمطر ، فهي حركية إحياء ، لها سبع صفات : مَروية ، تامة ، عامة ، طيِّبة ، مباركة ، هنيئة ، مَريعة ، أي شديدة الخصب ،

ولو أخذت إحدى هذه الصفات ، مثل : عامة .. وربطت بما بعدها : فكيف تكون الحياة ؟

عامة : تنعش بها الضعيف من عبادك .. وتحيي بها الميت من بلادك ..

يعني لا يظل محتاج من الناس ولا بُوْر من الأرض ، فهي سُقيا عامة ..

ومع ذلك : فهو يكرر تصويرها ، لتكون تفاصيلُها حيَّة ماثلة ، وثانيةً : ينظم تفتحاتها بسبع صفات أو سبعة مظاهر للانبعاث في ظل المنادى المرجوّ :

٦ — اللهمّ سُقيا منك :

تُعشِبُ بها نجادُنا
وتجري بها وهادُنا
وتُخصِبُ بها جَنابُنا

وتُقبل بها ثمارنا
وتعيش بها مواشينا
وتندى بها أقاصينا
وتستعين بها ضواحينا ؛
من بركاتك الواسعة
وعطاياك الجزيلة
على بريتك المرملة
ووحشك المهملَة ..

كيف يكون التام العامّ من الخير ؟ ألا يُصيب : النجاد والوهاد ؛ أي الجبال والوديان .. ؟ .. ألا يُصيب : الجناب والأقاصي ؛ أي النواحي القريبة والبعيدة .. ؟

والذي يتجاوز تمام العمران : هذا التفكير بالمهمل من وحوش البرية .. وبالفقير البائد البائر من البراري .. ؟

اللهم سقيا منك : مُحيية مروية ..

تامة عامة ؛ .. من بركاتك الواسعة ... على بريتك المرملة ووحشك المهملة .. !

٧ – وأنزِلْ علينا :

سماءً مخضَلة
مدراراً هاطلة
يدافع الودقُ منها الودقَ
ويحفز القطر منها القطر
غير خلّبٍ برقُها
ولا جَهام عارضُها

ولا قَزَع ربابُهـا
ولا شَفَّانٍ ذِهابها ..
حتَّى يُخصِبَ لإمراعها المجدبون
ويَحيا ببركتها المسنِتون
فإنَّك تُنزل الغيثَ بعدما قنطوا
وتنشرُ رحمتك
وأنتَ الوليُّ الحميـد ..

لم يبـدأ الفقرةَ الأخيرةَ : بالنـداء التعظيمي .. ولكنها ختمها بصور خبريَّة مؤكَّدة ؛

وهذه الملاحظة : لتنبه إلى بلاغة الأسلوب المطابقِ للحال النفسيِّ الواثقِ ؛ ففي النداءات الستة الأولى : كانت النفس ظامئة طالبـة ؛

١ – اللهم قد انْصاحت جبالنا ...
٢ – اللهم فارحمْ أنين الآنَّة ....
٣ – اللهم فارحمْ حيرتها ..
٤ – اللهم خرجنا إليك .. ندعوك ..
٥ – اللهم سُقيا منك محيية ..
٦ – اللهم سُقيا منك تعشب بها نجادنا ..

٧ – وأنزِلْ علينا سماءً ..
فإنك تنزل الغيث ..
وتنشر رحمتك ..
وأنتَ الوليُّ الحميـد ..

وفي المرحلة السابعة : تطوَّرَ حـالُ النفس ؛ وكأنما شفت شفافية أرتها

معاني الكلمات بحضراتها ، فصار الرَّجـاءُ إنشاءً واقعياً ، وكلُّ شـيء يتـم مقنعاً مرضياً ؛

فالسماء تنزل مخضلة ، أي يبلل مطرها الأرض والأشياء ..

وهي مدرار هاطـلة ، ودقها أي مطـرها : يدفع بعضه بعضاً ، وقطرها : يحمِّسُ بعضه بعضاً .. برقها صادق ، غير خلب .. وعارضها غير جَهام ، أي سحابُها الذي يظهر في الأفق ينبعق عن مخزون مطره ، لا كعارضٍ جَهام ..

وسحابُها الأبيض ، أي رَبابها : ليس قَزَعاً ، أي ليس قِطعاً صغيرة متفرقة ، بل هو سحاب متصل ، كناية عن امتلائه بالمطـر وصدقه ..

ومطرها اللينُ : غير بارد الريح ، وهـذا ما عناه بالصورة : « ولا شَفَّانٍ ذِهابُهـا » ..

وهذه سبع صفات جديدة للسقيا المطلوبة في طورها السابع من الاستسقاء ، أو طلَب المـاء ..

وإنما التمهل : لنلتقط حصتنا من خير هذه السقيا ، من وجهةٍ بلاغية ؛

فالجمل السبع الختامية : مُلتقىً تتناغمُ فيه أصوات الحروف مع أفراحِ العباد ، وقـد تحوَّل مكانهم وزمانهم ، فالمجدبون : أخصبوا بإمراع السُّقيا ، والمسنتون بقحط تلك السنة : نالوا نوال الحياة ببركاتِ السقيا ؛

وهذا صوتُ الصورة :

حتى يُخصبَ لإمراعها المُجدبون
ويَحيا ببركتها المسنتون ..

وملتقى آخر بين المستسقي والساقي والناس ، فالداعي شديد الوثوق بمن يدعوه ، لذلك يتحوَّل من الإنشاء الطلبي بالنـداء إلى الخبر الطلبيّ بالتأكيد ، وهذا صوت الصورة :

فإنّك
تنزل الغيثَ
بعدما قنِطوا ••

والملتقى الثالث : ملتقى العموم والخُصوص ، بحـركة الوصل المتوالي باستمرار ؛ وصوت الصورة :

وتنشر رحمتك
وأنتَ
الوليُّ
الحميد •••

أمّا العموم البلاغي : فالخبر الابتدائي « وتنشر رحمتك » ••

وهذا الخبر يتعاطف مع سابقه بالواو الواصلة « تنزل الغيث » ••

وكلتا الجملتين : ترتبطان بالأصل المؤكد للعمومِ هذا الخبر ؛ خبر إنزال الغيثِ ونشرِ الرحمـة •• « فإنك : تنـزل الغيث •• بعـد يأسِ الناس •• وتنشر الرحمـة » ••

أما الخصوصُ البَلاغيُّ : فالخبرُ الابتدائي الختاميُّ « وأنتَ : الوليُّ الحميـد » ••

وهـذه الجملة ، وحدها : جملة اسميَّة صافية ؛ أي مسندها : اسـمٌ ؛ والمسند إليه فيها : ضمير ••

أنـتَ : مسند إليه ، وهو مبتدأ ••
الوليُّ : مسند ، خبر المبتدأ ••
الحميد : بدلٌ من الولي ••

وفي علم المعاني : يتولون نوع الجملة عنايـة تلفتُ إلى ما هو ثابتٌ ثبوتاً

حقيقياً ، وإلى ما هو متطور" متحوِّل" •• فالجملُ الفعليةُ : تتوجّه إلى التغير والتطور •• والجمل الاسمية : توجّه إلى الثبات والجوهرية ••

هذه الملاحظة : قاعدة عامة من قواعد علم المعاني ؛ وهي مفتاح لروز الكلام في العمل الفنيّ ، شعراً كان أم نثراً ••

في هذا العمل : سبع فِقَر ، كما وزعت حديثاً ، في شرحنا العصري لنصوص نهج البلاغة ••

وفيها : ثمان وخمسون جملة ، وفق « مَبادىء التجميل » التي وضعناها أساساً لوعي بلاغةِ المعنى في اللفظ ••

الملاحظة ذات فرعين : الأول لبلاغة اللفظة في جملتها •• والثاني لبلاغة الجملة في بناء عملها التعبيريّ كلّه ••

القرع الأول : نمثل له من كلمات الجملة الأخيرة ؛ هي :

وأنتَ : الوليُّ الحميد ••

نأخذ الكلمةَ الوسطى : « الولي » ؛ فهي : المسند الخبريُّ للضمير السابق لها ؛ ومعناها اللغوي يُفاجىء بسبب اختيارها في سياق الاستسقاء من أسماء الله الحسنى ••

الولي : هو المطر يسقط بعد المطر ؛ أي يتوالى بعضه بعضاً ••

وهذا من مطابقات مقتضى الحال العميقة ؛ وهي من الخصوص البلاغي : لا ينتبه إليها إلاّ عُلاة الذوق الرفيع ••

وأما المعاني الأخرى للولي المقصود بالرجاء ؛ فمنها هذه السبعة ؛ فالوليُّ يعني : المحب •• الصديق •• النصير •• الجار •• الحليف •• التابع •• والي الأمور ••

وفي أي منها ما يعرفه العارفون من دلالات يطمئن إلى صاحبها القلقون ..
ألا يطمئن المستجير إلى من يجيره ؟

هذا أمر مثمر" من أمور الفرع الأول .. ومثل هذا الثمر يقطف من الكلمتين الأخريين لقــوم يتأملون ..

فالحميد : بدل" من الولي ؛ وفي بدليته وصف" له ؛ لكنه وصف يشبه أن يكون جواباً وجــزاءً لما يقدمه الولي من خيرات : المحب والصديق .. النصير والجار .. الحليف والتابع .. الوالي والمطر المتتالي ..

أفليس من حــق هذا الوالي أن يكون حميداً ؛

والحميد معنوياً : من الأسماء الحسنى ؛ ويحددون من معانيه قولهــم : « هو المحمود الذي يستحق كل حمــد وشكر ، على ما ينعم به دائماً ، وعــلى كلِّ حــال » ..

وهذان الاسمان الجميلان : يأخــذان مكان المسند ، الذي هو من أوصاف المسند إليه .. فمن يمكن أن يكون أساساً لهذا المسند غير الله سبحانه ؟

لكن الله الاسم الأعظم : هو الاسم الجامع .. وقد نودي بالتعظيم « أللهم » في البدايــة .. وبما أن الأحوال تشكلت في النفوس تشكيلاً جديداً .. فكان الارتقاء من الاسم إلى الضمير الوسيط « أنت » ..

وتسميته الضمير ، هنا ، ذات دلالات معنوية ، تميل بالخيال والقلب والعقل والذوق جميعاً إلى الشفافية الضميرية المخاطبة ؛ فهي الشفافية عن غائب الذات حاضر الصفاتِ ..

وهذا ثمرُ الفرع الأول : يذوقه بلطفِ التلقّي من مفرداته أهلُ الذوق المتفردون بمواهب وفرادات لها خصوصها المتأصل في العموم ، السامقِ فوقــه سمواً ، القامسِ في ضميريته عمقــاً ..

فهل يُغرينا هذا الثمر اللفظي بثمار الفرع الثاني المعنوية ؟ !

الفرع الثاني : نمثل له بعلاقة الجملة الأخيرة بهـذا النصّ من نصوص البلاغـة الممارسة ..

وأنتَ : الوليُّ الحميد ..

قلتُ : إن هذه الجملة تمتاز عن سائر جمل النص بصفاء اسميتها ..

وهنا ، يبدو لنا فن التجميل : غايةً من غايات الدرس البلاغي المجـدَّد ؛ لأنّ مبادئه : تعلمنا علاماتِ تفاصيل الجمل ..

على أي حـال : تترك للتطبيق مهمة الإيضاح والإقناع بمفيد الجديد ..

في النص تسع وأربعون جملة : تامـة الطرفين ؛ مسندها ظاهر ؛ والمسند إليه فيها ظاهر أيضاً ..

وفيه ثماني جمل : فعلُها غير ظاهر ؛ أو مسندها مقدَّم على المسند إليه ..

وبقيت الجملة الأخيرة : خاتمة النصّ ؛ فهي اسمية ، كما لاحظنا مفرداتها في الفـرع الأول ..

وقد تتابعت جملُ النصّ : فعلية ، إلى سبع وأربعين ..

في الجملة الثامنة والأربعين ، أي قبـل النهاية بعشر جمل : مال الاتجـاه الفعلي القلق إلى الاتجاه الاسميّ الآخذ نحو الاطمئنان ..

وهذا الاتجاه : بُديء في الفقرة السابعة ، أي الأخيرة .. والتي لم تفتتح بما افتتحت به الفِقر الست السابقة .. « اللهم » ...

ونلاحظ كيفية التحول : وكأنما يتم انقلاب جويٌّ مّا ..

« وأنزلْ علينا سماءً ....
غيرَ خلّبٍ برقُها

ولا جَهامٍ عارضُها
ولا قَزَع ربابُهـا
ولا شَفانٍ ذِهابها ... »

يبدأ انقلابُ الأفعال نحو الأسماء من الجملة الثامنة والأربعين .. وتُعطَف عليها ثلاثُ جملٍ تماثِلُها بتقدّم الخبر على المبتدأ ..

غيرُ خلَّبٍ : برقُها ..

يعني : أنزل علينا سـماءً ، برقُها : صادقُ المطـر ، وغيمُها العارض : ممتلىء بالمطر ، وربابُها الأبيض : متصل ، ومطرها المتتابع : دافىء الريح ...

لكنه طابق مقتضى الحال ، وهو : صاحِبُ « نهـج البلاغة » .. فانتهج نهج المقتضى الانقلابيِّ الذي تطور إليه حالُ الرجاء ونفوسُ المستغيثين للسقيا ..

وتمكن متابعته ، قدر الإمكان ، وكأنه يريد أن يُرسِي سفينة في شـاطىء الاطمئنـان ،

فترك المرساة أوّلاً .. وهي هنا : عبارة النـداء « اللهم » ...

وثانياً : بـدأ يلمُّ شباك الأفعال السارحة بجهات جمله الفعلية .. وراح يُلقي أثقال الجمل الاسمية المُعِينة على الثبات والاستقرار ..

ونلاحظ تشابكَ الجمل الاسمية والفعلية في هذه الفقرة السابعة الختامية ،

ثلاث جمل فعلية (٤٥ — ٤٧)
أربع جمل اسمية (٤٨ — ٥١)
جملتان فعليتان (٥٢ — ٥٣)
جمـلة اسمية .. (٥٤)
تحتضن ثلاث جمل فعليـة .. (٥٥ — ٥٧)
جملة اسمية صافية .. (٥٨) ..

ونلاحظ مثلَ المغالبة بين نوعي الجمل في هـذه الفقرة •• أو لنقـل : مثل المراجحة •• لكـن التسامي بالاسمية يبلـغ استقراره على مرحلتين ؛ الأولى في المطلوب ؛ والثانية من لدن المطلوب منه ••

فالمطلوبُ ، أو موضوعُ النـداء وغايته ؛ أليس السُّقيا ؟

لذلك أحيطت الجمل الاسمية بالفعلية ، قبلها وبعدها •• ومع أنهـا جميعاً تدور حول السقيا ؛ لكن الفعلية : رمزُ التجدُّد الذي ينزل السماء مدراراً ••• فيخصب المجدبون ويحيا المسنتون ••• أما الاسمية : فرمـزُ الثبات المستقر في هذا التجدد الذي قلب الطبيعة من جبال منصاحة ، وأرض مغبرَّة ، وأمَّات وأمهات عاجّات ••• إلى حيـاة الخِصب والبركة •••

هـذا المطلوب ، أو المنادى من أجـله ••

أما المنَادى ، أو المدعو ، أو المطلوب منه : فقد تجلَّى ضميراً •• وتجلَّى للضميرِ اسمان جميلان يُلبِّيانِ حاجاتِ أهل الحاجات ••

وقد فهم هذا التجلّي المطمئن : من إحاطة الثبات بالتجدُّد ؛ أي اشتمال الجملِ الاسمية على الجمل الفعلية ••

وهيمنة الاسمية على الفعلية : سافرة لمن يتأملون ؛ فقد جعلت الجمل الفعلية مسنداً للكاف المسند إليها •• « فإنك » •• ثم تلاشت •• أو استكانت في ظـل الضمير المسمَّى باسمين ؛ أحدهما « الولي » ومن معانيه : ما هو المطلوب ؛ ألم نقل : من معانيه المطر بعد المطر •• وثانيهما « الحميد » ؛ ومن معانيه : ما يُطمئن ؛ لأنه : يُنعم بكل حال نِعَماً ، تستوجِبُ حمده والثناء عليه ••

وفي المجيء به كلمةً كأنها القفل والمفتاح معاً : من لطائف البلاغة ما يبعث في النفس كالذي بعثه المطر في الطبيعة •• فهل بلغك هذا الإحساس ؟

نسجِّلُ ، هنـا ، لأبي البشر ، آدم ، (ص) : أن أول كلمة قالهـا ، هي « الحمد » •• فقد نقل في أخلاق الأنبياء ، سلام الله عليهم ، ما معناه :

أتمَّ الله خـلق آدم
وأجرى على لسانه :
« الحمد لله رب العالمين » ..
فنودي من الذات العليـة :
« يا آدمُ للرحمـةِ خلقتُكَ » ....

ونشكر للسيد الرضيّ : اختياراته من كلام الإمام علي (ع) ..

وفي صدد هذه الخطبة نَقول :

لئن ترك فاتحتها الرائعة بالحمد .. وبدأ من حيث بدأ .. فإنه بقي في الحمد مع خاتمتها .. ولعلَّه لم يُرِدْ تكرار ما أسَّسَ عليه اختياراته ؛ فـإن الخطبة الأولى ، التي تلتهـا المختارات جميعاً : تبـدأ بهذا الذي انتهت إليـه منـاداة « الله الوليّ الحميد » ..

فهـل أجيبَ المنـادِي ؟

وكيف لا يُجاب المنادي : إذا كان المنادَى ممن يسمعون .. ويستطيعون الإجابة ؟ وإذا كان هذا المنادي : قد أحسن التوجُّه بأحكام ندائه بِبُنيةٍ ونيةٍ ؟

في نداءات الاستسقاء : كنا مع لوحـةٍ أو حضرة ، يَطلبُ بها المنادي من المنادى للناس سُقياً .. وفي ظل الصورة الندائية التعظيمية : « اللهم » ..

وفي نهـج البلاغة : حضرات ندائية بتعظيم الله والطلب منه مطالبَ ذاتَ مستويات ، منهـا ما هو للأنبياء .. ومنها ما هو للفرد الداعي .. ومنها ما هو لتعظيم الله خالصاً .. ومنها ما تتحد به المستويات ..

نحيل إلى مواطن هذه المنَاديات .. ونختم بواحدة منها للتأمل ببلاغة النداء بصورة التعظيم الميمية لغـاية التعظيم :

٨٠ – اللهمَّ

أنتَ أهلُ الوصف الجميل ،
والتعداد الكثير ..

إنْ تؤمَّلْ
فخير مؤمَّلٍ ..
وإنْ تُرْجَ فأكرمُ مرجوٍّ ..

٨١ – اللهمَّ

وقد بسطتَ لي
فيما لا أمدح به غيرَك
ولا أثني به على أحد سواك
ولا أوجهه إلى معادن الخيبة
ومواضع الرِّيبة ..

وعدلتَ بلساني عن مدائح
الآدميين

والثناءِ على المخلوقين
المربوبين ...

٨٢ – أللهمَّ

ولكل مُثْنٍ على من أثنى عليه :

مثوبةٌ من جزاء
أو عارفة من عطاء ..
وقد رجوتُكَ دليلاً :

على زخائر الحكمة
وكنوز المعرفة ..

٨٣ – أللهمَّ

وهذا مقـام من أفردكَ :
بالتوحيد الذي هو لك ..
ولم يَرَ مستحقاً لهـذه المحامد
والممادح غـيرَك ..
وبي فاقـةٌ إليك
لا يَجبرُ مسكنتَها إلاّ فضلُك ..
ولا يَنعَشُ من خَلَّتِها إلاّ مَنُّكَ
وجودُك ..

٨٤ – .....

فهَبْ لَنا في هذا المقـام رضاك ..
وأغننا عن مـدّ الأيدي إلى سواك ..
إنّك على كلّ شـيء قدير » ..

هذه الفِقَر الخمس : هي الخاتمة التي استقرت عليها الخطبة الطويلة .. وقد ألقاها الإمام (ع) جـواباً لسؤالٍ أثاره ؛ وفي الأخبار : « سأله سـائل أن يصِفَ الله حتى كأنـه يراه عياناً ؛ فغضب ، عليه السلام ، لذلك » .. ثـم كان خطـابه فيها ..

نحن نقول : من حسن حظ البلاغة ومحبيها أنّ ذلك السائل سأل سؤالَه ؛ لأن الجواب كان أشـبهَ بسفر التكوين ؛ فيه : تعظيمُ الله .. وكيفيةُ تكوين الملائكة وآدم والأرض .. وتوحيد القـدير وتفريده بتلك البـدائع ، التي من بعضها هذا الكون كلـه ..

ذكـر السيد الرضيّ : أن الخطبةَ معروفة باسم معيَّن ، هو : الأشباح .. وقد رأيت تسمية أخرى لها في « شرحنا العصري لنهج البلاغة ذي الفقر » ، هي : الأَيْد ، أي القوة والقـدرة ..

واعتمدت في تسميتي على فِقَر من الخطبة تُصوّر مناداة الخالق للسماء وإمساكَه لهـا بأيده ، أي بقوتـه :

« ناداها ..
بعـد إذْ هِيَ دُخَان ....
وأمسكها
من أنْ تمورَ في خرق الهـواء
بأيـده ..

(٨٩ / ٣٤ - ٣٦)

إنّ لهذه المناداة : تفاصيل أخاذة في تكوين السَّماء ، التي أمسكها مبدعُها ؛ لتقف كما هي على الهـواء ، بغير عَمَدٍ مرئية ..

وهي بذلك : تستجيب للندَاء .. وتقِفُ حيث تقف « مستسلمة لأمرِه »..
أشـرتُ إلى مسوّغ تسميتي الجديدة للخطبة ؛ لتكون هذه الإشـارة : مركـزة لعلاقتها بالنداء عموماً ؛ فهو أسلوب الإنشاء والتكوين ... وشارحة لمغزى الفِقر التعظيمية في آخرها ؛ لأن أحداً لا يَستحق « هذه المحامد والمادح » سوى من ينادي السماء ويمسكها على الهواء ، كما فعل مناديها القدير ..

وأما بلاغة النداء بالميم في هذه الفِقر : فيمكن النظر فيها على ضوء ما سبق من تحليل النـداء « للاستسقاء » ..

ألا يصحّ ذلك امتحاناً لما استوعبناه من رسالةِ النداء ، بصورة الميـم ، التي حلّتْ محـلّ اليـاء ؟

لقد حاولتُ في هذا المستوى الحادي عشر : إبلاغ رسالة النـداء ، فيما دعوته : بلاغة النـداء الأعلى ..

وهذا المستوى الأعلى من البلاغة : كان بصورة الميم النائبة عن أم النداء « يا » ... عنَيت بالصورة : « اللهم » ..

وهذه الصورة الندائية : شبه مفقودة في بحوث الباحثين ببلاغة النـداء ، مع أنهـا ذروة البلاغـة الأعلى ••

وأقول « شـبه مفقودة » : لاحتمال أن تكون قـد بُحثتْ في كتبٍ لم أطّلعْ عليها في هذا المجـال ••

الأهم : أننا تعرفنا إليها مع ممارسيها من الأنبياء والمؤمنين والناس المكابرين كما مورست بخمسِ صورِها القرآنية •• وكذلك تعـرفنا إلى ممارستها ببعض صور « نهـج البلاغة » ••

ويجدر بي أن أكرر ، هنا ، في ختام هذا المستوى ، الذي سمي « البلاغـة الأعلى للنداء » •• كما في حياتي كلهـا :

« اللهم : اغفر لي ما أنتَ أعلم به مني ؛
فإن عدتُ فعُدْ عليَّ بالمغفرة ••

اللهم : اغفر لي ما وأيتُ من نفسي ؛
ولمَ تجدْ له وفـاءً عندي ••

اللهم : اغفر لي ما تقربتُ به إليك
بلساني ثـم خالفه قلبي ••

اللهم : اغفر لي رمـزات لألحـاظ ؛
وسقطاتِ الألفـاظ ؛
وشهواتِ الجَنـان
وهفواتِ اللسان » ••

وهذا الدعاء ، أيضاً ، من معلم البلاغة والحكمة ، صاحب : « نهج البلاغة » ••

لكنه على مثلي أصـحّ •• ولمثلي تربيـة ••

أليست البلاغـة مطابقة •• فهـل بلغناها ؟ !

رسالة النداء

مُخْرَج

في الخاتمة والنتائج

خلاصة الرسالة

مبالغ النتائج :

أ – العلائق والبلاغة الممارسة

ب – الإبداع ومبادىء التجميل

جـ – التربية ونصوص النداء

د – أبعادُ جهاتِ الوعي ؛

١ – وعي المجتمع

٢ – وعي النفس

٣ – وعي اللغة

٤ – تجربة خطيبِ الأنبياء ،

هذي مفاتيحُ الحياةِ جميعُها
أحدٌ يُعَلِّمُ والسلام سريعُها
مُتودِّد جبريلُ طاقة صفره
وسع الرؤى كرسيّه ويضوعها ...

١٩٨٧/٩/٧
١٤٠٨/١/١٦



حاولتْ تصديقَ الخبر الذي بُدئتْ به رسالةُ النداءِ ..

ألم تبدأ بهذا التقرير الخبري ؟ :

« النداء :

أسلوبُ تعبيرٍ شعبيٌّ .. تمتد شعبيته من مهد طفل إلى سرير ذي العرش » ...

البلغاء ودارسو البلاغة : يَقبلون أساليبَ الحقيقة والمجاز ؛ ويعتبرون المبالغات من أساليب المجاز أو صوره ؛ ويعتدون بها : لأنها ، كما يرونها ، تعبير عن حماسة الحب أو محبات الحماسة ..

ربما كان هذا الخبرُ الابتدائيُّ : أشبهَ بالمبالغة ، عندما سمعناه أول مرة ، وبصورته المجملة .. لكنَّ تطورَ البحث : أقنعنا بواقعيةِ الحكمِ بناءً على أدلته المقنعة ..

وقد تكون نظرة إجمالية للتفاصيل : كافية لبلوغ هذه النتيجة ؛

فالتفاصيل : عالجت أدوات النداء التسع من نصٍّ واحدٍ ، عنوانه : مهد .. ويمكن تسمية هذه المعالجة : باباً أولَ ؛ يؤكد شعبيةَ النداء لدى مهود الأطفال ؛ فقد استخدمت الأم أدوات النداء جميعاً : بمناغاة طفلها والدعاء له وشكر ربِّ العرش الذي وهبه لها من عالم غيبٍ لا يعرفه سواه ..

وكان البحث في هذا الباب :كما لو كنا نفتح باب بيتٍ جديد .. إنما بهدوء وبالتدريج ... ولهذا جاءت معالجة الأدوات : متفاوتة ؛ بمعنى أن التعرُّف إلى ممارسة الأدواتِ في النص الشعري : استهدى قواعد النموِّ التكويني في النصِّ ؛ فرأى : (أ ، أي ؛ آ ، آي أيا ، هيا ؛ وا ، يا ؛ م ..) بصورة إجمالية .. ثم رأى (يا) وحدها في درجات السلم السبع جميعاً .. ثم رأى (مَّ ؛ أيضاً في سبع درجات ..

في هذين السلَّمين المفصَّلين : فهمنا أمومة الأداة « يا » لأسلوب النـداء ؛ لأنهم يقولون : « إنها أم الباب » •• وتصح لنداء القريب والبعيد ؛ وللاستغاثة والتعجب والندبة ؛ ولنداء الضمير ولفظ الجلالة ؛ ولمبادلة ميم التعظيم •••

وهذا الفهم أغرانا بالتطلع المُمعِن في دلائل العلائق بين « يا » وبين « مّ » •• وأوصلنا إمعانُ النظـر بلفظ الجلالة « الله » إلى ما عُرِف بالحضرة الجامعـة لأسماء الله الحسنى •• كما أوصلنا إلى منَاسبة ندائه بالأداة « يا » وحـدها ؛ لأنها تجمع أول الحروف وآخرها ، بل آخرها وأولها ؛ أليست الحروف كلهـا بين الألف واليـاء ؟

من مستوى هـذا التوصل : طرحنا السؤال مجدَّداً « وما هي البلاغـة الآن ؟ » ••

وأشرنا إلى أوَّلِ الطريق ، وهو : ضبط الأحكام •• فالأحلام الإبداعية : لا تُبلَغ بغَيرِ عرفانِ القاعدةِ •• ولكن : ما هي القاعدة ؟ •• مَن عندَه علم من كتاب الإعجـاز : ليعَلِّمَنا البلاغـةَ الموصلةَ إلى تذوّقِ الكلام ، تأثـراً أو تأثـيراً ؟

كان جوابنا : إشارة تومىء لدخول الباب الثاني حيث البلاغة العليا والأعلى للنـداء •• فما هما ؟

النداءُ بالأداة « يا » وبديلتها « م » في المستوى الميميِّ ، وحـده : هما حضرتا النـداء ، العليـا ، والأعلى ••

ويمكن اعتبار هاتين الحضرتين : باباً ثانياً لرسالةِ النـداء ؛ لكنه الباب العـلويّ ••

وقد التزمت فيه منهجية الباب الأول : تركيزاً وانتشاراً ؛

ففي الحضرة الأولى : دخلنا إلى سورة مريم •• ولم تتجاوز الحضرة الندائية

الافتتاحية ؛ فقد تعلمنا منها : كيفية بلاغة النداء العليا بأداة النداء « يا » ظاهرة وباطنة •• وعرفنا : كيف يكون الإعجاز الندائي ، أو النداء الإعجازي ••

إن أسلوب زكريا بنداء ربّه •• ثم إجابة ربّه بمناداة أيضاً •• ثم الحوار الذي أثمر مناداة ليَحيى الولي الذي طلبه زكريا : سبع صور نداء بالأداة « يا »•• مثلت إعجاز بيان ومعجزة حياة •

والحضرة الزكرياوية : أساس السورة المريمية ، تأليفاً •• وكأنها تمهيد" للحضرة العيسوية التي تلتها ••

وتلا ذلك حضرات معلومة في السورة •• والتأمّل فيها ممكن على الصورة أو الطريقة التي اتبعت في تأمل نداء زكريّا ••

وسيعرف المتأملون لماذا مُهّدَ بنداء زكريا لقصة مريم ومعجزة الكلمة التي تمت عبرها بصور نداء أيضاً •• فإنّ حال مريم اقتضى دعاء زكريا •• كيف ؟ ••

تركتُ البحث عن الكيفية الإلهامية هذه ؛ لأنني أردت التأمل بأحكام النداء في الحضرة الزكرياوية لتكون بدورها مَقاماً جذّاباً : يجتذب إلى منبَعيتها في الحضرة المريمية التي أثمرت عيسى ، كلمة الله ، وروحاً منه ألقيتْ إلى أمّه ••

أمّا في الحضرة الثانية : فقد نفذت القاعدة الثانية من قواعد المنهج ؛ وهي : قاعدة الانتشار المتقصية كليّاً ، وتمثيليّاً ••

هذه الحضرة ، هي النداء الأبلغ ؛ أو : بلاغة النداء الأعلى ؛ عنيت : صورة النداء « اللهم » ••

وتقصيت هذه الصورة في القرآن كلّه ؛ ولم تمارس إلاّ خمسُ مرّات ؛ مرتين على لسان خاتم الأنبياء ، محمد •• ومرّة على لسان كلمة الله ، عيسى •• ومرّة على لسان المؤمنين في الجنة •• ومرّة على لسان الهالكين المكابرين في الأرض ••

هذا مثال التقصي الكلّي في الأثر الكريم المعجز ••

أمّا مثال الانتشار الجزئي : فقد أخـذته من ثلاث حضرات ندائيـة في « نهـج البلاغـة » ..

الأولى : تستسقي لأهل الأرض سُقيا عامة تامـة لا تحرم منها : « البرية المرملة .. ولا .. الوحش المهملة » ..

والثانية : تعظّم بديع السماوات والأرض ، بعد التأمل بملائكته وإنسانه وعجائب تكوينـه ..

والثالثة : تستغفر حتى « لرمزات الألحـاظ وسقطات الألفاظ ، وشهوات الجنان وهفوات اللسان » ..

ببلاغة النداء الأعلى ، تقصياً وتمثيلاً : ختمت « رسالة النداء » .. فما هي المبالغ التي أنتجتها الرسـالة ؟

المبلغ الأول : جنيُ النصوصِ الإبداعية في « البلاغة الممارسة » أوفر من كلّ ما تقدمه دروس القواعد البلاغية واللغوية بصورها الراهنة ؛ لأن تلك الدروس في أحسن أحوالها ، تقـدّم موسماً واحداً من مواسم هذه الأرض التي تظـلّ استعداداً لتقديم مواسم جديدة من الفهم والإفهـام ..

والنصوص الموصلة لهـذه النتيجة كانت عشرة ؛

أولها شعري ، وهو نص « المهـد » ؛ وقد أظهر لنا حيوية استعمال أدوات النداء التسع : أ – أي ؛ آ – آي ؛ أيا – هيا ؛ يا – وا ؛ مّ ..

وثانيها قرآني ، وهو « نـداء زكريا » في سورة مريم ؛ وقـد كشف لنـا حياة الإعجاز عبر أسلوب النداء بالأداة الأم « يا » ، مضمرة وظاهرة ؛ ولاحظنا إضمارها في خمس نداءات زكريا الصاعدة بالدعاء الخفي .. ولاحظنا إظهارها في نداء الله والملائكة لزكريا مرتين : يا زكريا .. يا يحيى ...

وثالثها ورابعها وخامسها ، وهي : نداء « محمد والمسيح » بصورة « اللهم » ، في سور : آل عمران ، والزمر ، والمائـدة .. وفي هذه الصور : ظهـرت لنا

مستويات من علائق الأنبياء بالله ، مالك الملك ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الشهادة والغيب ، الربّ ..

وسادسها ؛ وهو نداء الذين آمنوا ، بعدما بلغوا نعيم الجنة ؛ وذلك في سورة يونس ، بصورة « سبحانك اللهمّ » ..

وسابعها ، وهو نداء الذين كفروا ، كما صور عنادهم وإصرارهم على مكابرة الحق في سورة الأنفال .. وبصورة : « اللهم » مجرّدة ..

والنصوص الثلاثة الأخرى ، وهي من نداءات الإمام علي (ع) في « نهج البلاغة » ، بصورة : « اللهم » .. وعناوين هذه النصوص : سقيا عامة ؛ وهو نص الخطبة (١١٤) كما هو بتمامه في نهج البلاغة .. أيد تمسك السماوات ؛ وهو الفِقر الخاتمة للخطبة (٨٧) ... استغفار مستمر ؛ وهو نصّ الخطبة (٧٦) كما هي في مختارات الشريف الرضيّ ..

بهذا المبلغ النصوصي : اتضح لنا غنى النداء وخصبُه الإنشائي .. وظهرت علائقه بأساليب الإنشاء الأخرى كالأمر والنهي والاستفهام والتمنّي .. كما ظهرت ألوان من علائقه بأساليب الخبر أيضاً .. وكذلك انفتحت نوافذ الاتساع لصلات مبادئه الأولى بعوائد وسطى وعليا من المعاني على مدار كل أسلوب ..

أعني أن مواجهة هذه النصوص الإبداعية : أبانت لنا عن كيفيات تفتح معنى أسلوب النداء الأصلي في تفرعات له يُحصي منها المهتمون بمقدار اهتمامهم ؛ كالاستغاثة .. والندبة .. والتعجب .. وغيرها مما يتوصّل إليه بالنداء : كالتحبّب .. والإغراء .. والاختصاص .. أو : كالتحسر .. والزجر .. والتحقير ..

إن هذا المبلغ الأول الذي بلغناه من التمهل بدراسة أسلوب النداء : أظهر للنداء رسالة في إقامة العلائق بين المخاطَب والمتكلم ؛ وعلى مستويات : إنسان وإنسان .. أو إنسان ورحمن ..

فهل كان هذا واضحاً في قواعد البلاغة واللغة بهذه الصورة من قبل ؟

المبلغ الثاني : نصوص « البلاغة الممارسة » أيسَرُ وصلاً بالإبداع الكلي من القواعد البلاغية ودروس اللغـة ..

إنّ التأمل بنص « السقيا العـامة » : يُبلغنا هذا المبلغ ؛ وقـد طبقت في تحليله « مبادىء التجميل » وأظهرت ما لجمله من جَمال الصلاتِ بأبواب عـلم المعاني ، التي قسَّمها المشتغلون به إلى ثمانية على عدد حروف النداء ؛ فقـالوا ، هي : الخبر ؛ الإنشاء ؛ أحوال المسند إليـه ؛ أحوال المسند ؛ أحوال متعلقات الفعل ؛ القصر ؛ الفصل والوصل ؛ الإيجاز والإطناب والمساواة ..

إن الأبواب الثمانية هذه : ليست إلاّ أبواب الجملة ؛ ..

فالجملة : مسند إليـه ، ومسند ، وروابط ما بينهما .. وقد وصفوا تلك الروابط بأنها : قيود .. أو فضلات ..

والمسند إليه : هو فاعل الفعـل ، أو ما يماثله ، في الجملة الفعلية .. وهو مبتدأ الخبر ، أو ما يماثله في الجملة الاسمية ..

والمسند : هو فعل الفاعل ، أو ما يماثله .. وهو خبر المبتدأ ، أو ما يماثله ..

والقيد ، أو الرابط ، أو الفضلة : هو كل ما بقي في الجملة ، من : ظروفٍ ، أو أحوال ، أو مفاعيل ، أو سوى ذلك ...

وتفاصيل القواعد : معلومةٌ في أماكنها .. إنما أردت ، هنا ، التذكير بعناوين أبوابِ علم المعاني كلّها ؛ لنعيد التأمل التوحيديّ في « نصٍّ إبداعي ممارس » في النداء الذي يستسقي للناس كافة ؛ بل للبراري ووحوشها المهملة ..

في هذا النص : ظهر لنا التكوين المنشأ إبداعيًّا ؛ واجتذبنا إلى مواقع الجملة الفعلية والاسمية ؛ فانتبهنا لتوالي ثماني وأربعين جملة فعلية .. ثم لتراجح الجمل الفعلية مع الاسمية .. ثم لاستقرار النص على الجملة الاسمية الثامنة والخمسين ..

يشعر المتأمِّل بافتتاح هذه الجمل •• وتطورها •• واستقرارها الختامي : بمثل الحياة المتحركة بين الجملة الأولى والجملة الأخـيرة :

« اللهم •••• وأنتَ الوليُّ الحميد » ••

لكنَّ النصَّ الأول •• وتحليله : يظهران مدى اليسر البلاغيِّ في أسـلوب النداء الأعلى مع « اللهم » •• وفي ما يطل عليه من مستويات البلاغة العليـا مع جمل الخبر والإنشاء ••

قد يكون إدراكُ هـذا اليسر أوضحَ : إذا قورن بتفاصيل الباحثين التي يشرحون بها أبواب عـلم المعاني مفرَّقة ••

وبشأن النـداء : قد تفاجىء المقارنة ؛ فالنـداء في كتب البلاغة وفي كتب النحو •• ما هو ؟ •• ما قيمته الإنشائية ؟ •• ما قيمته في بلاغـة الحياة أو في حيـاة البلاغة ؟ ••

المبلغ الثالث : رأيتُ أن أقدِّم « رسالة النـداء » مثالاً واضحاً لكيفية التربية النقدية والذوقية من النصوص الممارسة إبداعيّاً ••• ورأيت من طـرف آخـرَ : أن ألحق برسالة النـداء نصوص باحثين موفقين ، قدامى ومحدثين ؛ ليستأنس قارىء هذه الرسالة بكل ذلك •• وليتوصل بدوره إلى ممكنات التأمُّل المجدَّد بأساليب علم المعاني •• كأن يفكر بكل أسلوب منها على نحو ما قدمناه ••

قد يحتـاج ذلك وقتـاً وجهـداً ••

هذا صحيح •• لكنه يشعر بسعادة من يُحوِّل إرثه البائر إلى إرث عامر •• وأول المستفيدين من ذلكَ من يقومون به •• وجنيُهم يكون وفيراً بالمقدار الذي ينفذون بـه قواعِدَ الأحكام ••

لو حـاول طالبٌ أو طالبة ــ ونحـن ندرس أسلوباً من أساليب الإنشاء

الطلبي ـ أن يبدأ التجربة مما بين يديـه في رسالة النداء •• ألا تحقق قواعِدُ الأحكام رقيّاً في بلوغ أحلامه ؟

كيف يلاحظ تطوره التربوي في متابعة النداء •• ؟ ثم ألا يساعده ذلك على تنفيذه مع أي أسلوب آخر ؛ مثل : الاستفهام •• الأمر •• النهي •• التمني ؟ !

لعلّه يقول : ماذا قال أشهر أعلام البلاغةِ في النـداء ؟

إن دلائل الإعجاز : أحد أشهر كتابين بلاغيين في تراثنا •• والثاني هـو : أسرار البلاغـة ••

لكن : أسرار البلاغة •• لعلم البيان •• ودلائل الإعجاز •• لعلم المعاني •• وكلاهما لعبد القاهر الجرجاني ••

ثم ماذا قال « السكاكي » في كتـابه « المفتـاح » ••• ؟

وماذا قال « القزويني » في كتابيه « تلخيص المفتاح » ثم « الإيضاح » ؟ •

ومِن الأعلام المعاصرين •• ماذا قال أكابرهم ؟ ••

كان لا بَدّ من الاختيار لكثرة الأسماء الداخلة بهذا المجال ؛ لذلك نظـن ما اخترناه يكفي للدلالة على منهـج الدرس ••• ونذكر بالأسماء التي وقـع عليها الاختيـار ؛

فمن القديم : أخـذنا كل ما قاله القزويني في « تلخيصه » و « إيضاحه » حول النداء •• وكذلك كل ما قاله السكاكي في « المفتاح » ؛ •• بصورة النحو وبصورة عـلم المعاني ••

ومن الحديث : أخـذنا ثلاثة نصوص من البلاغة ؛ وهي :

النداء في معاني : عبد العزيز عتيق ••
النداء في معاني : بكري شيخ أمين ••
النداء في معاني : مزيـد نعيـم ••

ومن النحو الحديث : أخذنا ثلاثة نصوص أيضاً ؛ وهي :

النداء في نحـــو : سعيد الأفغـاني
النداء في نحـــو : مهـدي المخزومي
النداء في برنامجنا : اللغـة والحيـاة ••

(١٩٧٦ — ١٩٨٠)

هذه النصوص العشرة : تكفي مثالاً لأساليب معالجات النداء ، من وجهة نحوية ، ومن وجهـة معنوية •••••

وهي مع معالجتنا العصرية : تصور الواقع « الندائيّ » •• والممكن لهـذا الواقع من التطور •• بـل تدعو إلى الواجب العمليّ لمن يُحبّون الأصـالة في التراث والصلة بالحيـاة ••

ألا يصحّ لنـا أن نادي ببلاغة النداء الأعلى لتحقيق الأحلام : « اللهـم سقيا منك تامـة » ••

المبلغ الرابع : فتحَ التأملُ بأسلوب النـداء عبر نصوص الإبداع أبواب مستويات من وعي المجتمع والنفس واللغة عربية وإنسانية ؛

أ — فمن وعي المجتمع : أن تدرك مستويات الاعتقادِ الديني فيه ؛ وعندنا : أن المعتقدين يكونون على مستويات عامة وخاصة ومختصة ؛

فالعامة : في مستوى التشريع ؛ أن تنالهم الشريعة وأحكامُها ؛ فكل إنسان يتمتع بحقوقه المشروعة ويطالب بواجبات شرعيةٍ كذلك ؛

أدوات النداء : تمثل هذا العموم ؛ وتنادي القريبَ والوسيط والبعيد ••

وفي مشهور الحديث النبوي : أن مفهوم الإســلام هو مستوى الشريعة العامـة للجميع ••

أما الخاصة : ففي مستوى الإيمان ؛ وهــذا المستوى يستوعب المستوى السَّابق ويمتاز عنه بما هو أعمق وأرقى ، من وجهــة الوعي والذوق الداخليين ؛ فلأهل القلوب : ساعات يتجاوزون بها مستويات الأحكام العامة إلى أحلام عليا يذوقونها ويعرفون لطائفها وأحياناً يتحدثون عنها ويؤلفون فيها شعراً أو نثراً ‥ أو رسماً أو لحنــاً …

هذا المستوى تمثله من أدوات النــداء « يا » ؛ من جهة اختصاص الاسم الجليل الأعظم بها ؛ فقد عرفنا أن « الله » لا ينادى إلا بهذه الأداة ‥ يا ألله ‥

وفي سياق الحديث النبوي المشهور : يكون مفهوم الإيمــان هو مستوى الخصوص المتميز عن العموم بمزيــة عليــا ‥

وأما المختصة : فنعني بها مستوى الإحسان ؛ وفي هذا المستوى : يُصبح الإيمان اختصاصاً ‥ أي يصبغ المؤمن بصبغة دائمة ومميِّزة ‥ فكأنــه في حالة كشف وانفتاح ؛

وندائياً ، نرى البلاغة الأعلى ، أو بلاغة النداء الأعلى : تمثل هذا المستوى ‥ وصورة هذا النــداء : هي صورة « اللهم » ؛ أي عندما تنوب هذه الميم المشدَّدة عــن الأداة الأم « يا » ‥

وفي سياق الحديث : يُوصف هذا المستوى بالعبادة الرائية : « أن تعبــدَ الله كأنك تراه » ‥ أو العبادة المرئية « فــإن لم تكــن تراه فإنــه يراك » ‥ والرؤيا ؛ ونظرية الحقيقة والكشف : من أهم مسائل الأدب والفهم عموماً …

من وجهةٍ إيضاحية نقول : « إن الشريعة والمذهب والطريقة » تعمُّ هــذه المستويات ؛ فمثلاً :

الإسلام : شريعة عامة ؛ تجمع في مبادئها الأولى المذاهب والطرق جميعاً ‥ فالنداء : مبحث عام لكل من يتناوله ‥

لكن المذهب : خصوص" في الشريعة ؛ أي يتخـذ أسلوباً في التعامل مع الشريعة وكيفية فهمها ؛ كما يؤلف في النداء مؤلفون كثيرون ؛ كلهم يقربون النداء للأفهام ويتقربون به ، مع اختلاف صيغتهم وأساليب تناولهم ..

وهكذا تكون المذاهب الإسلامية المعلومة ؛ كمذهب أبي حنيفة ؛ أو مذهب مالك ؛ أو مذهب أحمد بن حنبـل ؛ أو مذهب الشافعي ؛ أو المذهب الإمامي ، وهو المعروف فقهياً : بمذهب الإمام جعفر الصادق ؛ أو المذهب الجعفري ...

هذه المذاهب : تعتبر في مستوى الخصوص ؛ ولهـا من الأدوات مستوى « يـا » ..

أما الطريقة : فخصوص في الخصوص ؛ فقـد تكون تفتحاً في مذهب من المذاهب ؛ كأن يكون الواحـد : مسلماً شافعياً قادرياً .. أي هو : مسلم ؛ على المذهب الشافعي من الطريقة القادرية ..

وقد تكون طريقته نقشبندية ، وهو حنفيّ المذهب ..

وقد تكون طريقته جنبلانية ، أو خصيبية وهو إمامي المذهب ..

والطريقة تخصص في التأمّل ، عبر مذهب من المذاهب ، في دين من الأديان ؛ وهي أشبه ما تكون تماثلاً مع النداء بميم التعظيم ، في أدوات النداء ..

وكأن النـداء بأدواته التسع : يمثل مجتمعاً تاماً من : وجهـة المستويات الاعتقادية ؛ شريعة؛ ومذاهب ؛ وطـرقاً ..

ونستطيع الآن : أن نفكر « لماذا » لم تـوْلَ بلاغة النداء بالميم عناية ؟ .. فلا يكاد أحـد من الباحثين : يلتفت إليها في دراسة أدوات النداء .. مع أنهـا تمثل بلاغـة النداء الأعلى ..

ربّما لأن المستوى : عال جداً ؛ وبحوث البلاغة أميل إلى العموم .. وفي أحسن أحوالها تبحث بالخصوص ..

وربَّما نسحب هذا الحكم على الطـرق العرفانية أو الصوفية : كذلك هي غير مقدرة ؛ بل هي مهملة ، وإن ذكرت فللهجوم عليها •••• وقد تعجل تصديق هذا الحكم قبل صدور الكتاب بقرار اللجنة السياسية ••

وبكل حال ، إن المجتمع والبلاغة : يتبادلان التأثير ؛ ويساعد أي منهما على فهم الآخـر ؛ وربما اطلعتَ على : « مجتمع العرب وشخصيتهم في البلاغة » ، كما سمَّيت بحثاً سابقاً لي بهذا المجـال ••

ب — ومن وعي النفس : أن تدرك مقاماتها إدراكاً واقعياً يتفق مع طبيعتها وصبغة كل مقـام ؛ لأن مقتضى حال كل مقام : يلون المعنى بلون خاص ؛

وللنفس سبعة مقامات ، لكل منها نوره ، كما يرى العلاة القادريون ؛

فالنفس الأمارة : ذات نور أزرق ••
والنفس اللوامة : ذات نور أصفر ••
والنفس الملهمة : ذات نور أحمر ••
والنفس المطمئنة : ذات نور أبيض ••
والنفس الراضية : ذات نور أخضر ••
والنفس المرضية : ذات نور أسود ••
والنفس الكاملة : شافة لا يظهر نورها ••

ورياضة العرفاء تقول بالاجتهاد للتحرر من هذه المقامات بأساليب ندائيـة مخصوصة بكل مقام ؛ لكن الصورة الندائية التخلصية دائماً بصورة اللهم ؛ ••

وقيمة استيعاب هـذه الزاوية من ملاحظاتنا : تظهـر في استكشاف مبالغ البلغاء ؛ فلكل بليغ مقامات نفسية : تنفتح منها بلاغة تعبيره ؛ ونعتقد أن الدراسات النفسية ، أدبية واجتماعية : لن تستوي ما لم تنتظم قواعدُ الوعي النفسية هذه ••

بكل حـال : أعتبر أدوات النداء ذَوَات علائق بهذه المقامات •• وأعتبر الميم •• و « يا » في حالتها المخصوصة : مستويي التحرر من المقامات السبعة ؛

في المقرر العرفاني : أن التخلص من النفوس السبعة يمنح المتخلّص مرتبة « الخواص الكاملين » •• وقد رأينا صورة البلاغة الممارسة مع هاتين الأداتين : « يا » و « مّ » •• فماذا يقـرر الطامحون ؟ !

جـ — ومن وعيِ اللغةِ : أن نُدركَ معنى اللفظ « نداء » ؛ وفق أصول اللغـة : صرفاً ، وفقهاً ؛ وصوتاً ، وصدىً ؛

فالنداء : مصدر الفعل المزيد ، « نادى » ؛ ومجرّده « ندي » ؛

والحروف المجردة « ندي » ، تعني : التجمّع ؛ والطراوة ؛ والصوت ••

وشعب المعنى الثلاث : تأخذ وجهات الرسالة الندائية من مستويات ، فردية وجماعية ؛ إنسانية وطبيعية ؛

والنداء : أوضحُ في الصوت ؛ فأصله المجرّد : يـدل دلالة العذوبة في الصوت ؛ ودلالة القوة الموصِلة ؛ ودلالة الجاذبية المؤثرة ، سواء أكان نـداء خفيّاً ، كما في « نداء زكريا » عليه السلام •• أو نداء جهيراً كما في فن الغناء •• أو صور الدّعـاء ••

وهذا النـداء الصوتي : نـداء فرديٌ •• وإن كان متجهاً إلى آخَرَ •• أو آخرين ••

أما المعنى الجماعي : فيظهر في مثل النادي والنديّ ، ومعناهما : « المجلس يندو القوم حواليه » ؛ ومنه : « دار الندوة » في مكة •• وسـائر « الندوات » الحديثة ، فكرية وأدبية ؛ دينيـة ، واقتصادية ؛ سياسية ، وعسكرية ؛ تربوية ، وفنيـة ؛

ونلاحظ مبادلة الواو للياء ؛ أو مجيئَها بدلاً منها في معـاني التجمع ؛

وهذان المعنيان : إنسانيان ؛ وفي كليهما تتضح رسالة النداء المواصلة بـين : متكلم ومخاطب ؛ أو متكلمين ومخاطبين ؛ ••

أما المعنى الطبيعي : فمن الندى المعلوم ؛ وقطرات الندى : تعبِّر عن خير الماء ؛ ومن الماء : مصادر الحياة جميعاً ؛ لذلك استخدموا التندّي للكرم ؛ فقالوا للسخيّ الجواد ، الذي يجود على أصحابه بدون طلب : « هو يتندى على أصحابه » ..

وهكذا تجتذب الحروف « ندي » خير الطبيعة إلى الإنسان ..

وهذه الجاذبية المعنوية ؛ أو هذا التجاذب بين الجهات الإنسانية والطبيعية : يُفسِّر رسالة النداء ، في أحوال من مخاطبات الطبيعة ، كما في حكايات داوود المزموري ؛ ففي القرآن إنباء" بالنداء الإعجازي في سياق قصة داوود ؛

« ولقد آتينا داوود
مِنّا فضلاً ؛
يا جبالُ
أوِّبي معَه
والطيرَ
وألَنّا له الحديد »

(سبأ : ١٠)

ودلالات الصرف : تدعونا إلى نادي الكلمة في معجم مثل « مقاييس اللغة لابن فارس » .. أو « لسان العرب لابن منظور » .. أو غيرهما من معجمات اللغة : عربيَّة وغير عربيَّة ..

والمادة المعجمية المجرَّدة « ندي » : تدعونا بدورها إلى التأمُّل بما يشتق منها ، أو بما اشتقت منه ؛

فهي ثلاثي : يستند إلى ثنائية ، النّون والدال .. ولهذا الثنائي : تضعيف الثاني ، طرداً وعكساً .. فنكون باتجاهي : « ندد .. دنَنَ » ..

وهذا من مباحث فقه اللغة ..

وكذلك المثالث الخمسة الملحقة بالثلاثي الذي نحن بصدده « ندي » ••

وإذا بادلنا بين الياء والواو ؛ بدت لنا مثالث جديدة للفعل « ندو » ؛

وبالنتيجة : تظهر لنا شُعَبُ الحروف الثلاثة بأربعةَ عشر فعلاً ؛ يجمعها جوامعُ : الصوتِ نداءً ، والتجمّع نادياً ، والليونة ندىً ؛

فالثنائي : « ند » ؛ يُلفَظُ مضعف الدال ؛ يقال : نَدَّ صوته يندُّه ، أي رفع صوته ؛ والنَّدُّ : التلُّ المرتفعُ ، وعودٌ جاذبُ الرائحة ، يتبخَّرُ به •• أما النِّد : فتعني ، « المِثل •• والنظير •• والعود الطيب الرائحة باللغة الفارسية •• »

ومن هذه المادة الثنائية : الناد •• والتناد ••

فالنادُّ : الرزق ••

والتناد : مفاعلة التنادي ، أو تبادل المناداة ؛ وتقرأ مفخمة الدال ، أو مشدَّدَتها ••

وفي العبارة القرآنية ، بلسان مؤمن قوم فرعون :

« وقال الذي آمن •••
ويا قومِ إنّي أخافُ عليكم
يوم التناد •• »

(غافر : ٣٢)

فيوم التنادي : هو يوم القيامة ؛

ومن تخريجات العالمين بالقراءات القرآنية : أن « التنادِ » بالتخفيف ، لمناداة أهل النار لأهل الجنة ؛ ليفيضوا عليهم مما رزقهم الله •• وأما بالتشديد « التنادّ » : فلفرار الناس من بعضهم في ذلك اليوم ••

وبالتخريجين تظلُّ في مستوى التنادي الأعلى بذلك اليوم ، « يوم التناد » ••

والوزن الصوتي للكلمة : يجمع بين طرفي النداء « المنادي والمنادى » ؛

ونلاحظ على هذا المستوى : حاكمية المنادي المهيب في ذلك اليوم •• فمن هو المنادي الذي يخشى يوم ندائه •• ؟

إن المنادي : اسم فاعل للمزيد الذي تصرّف على ثلاث دفعات ؛ من الثنائي « نـد » •• ومن المجرد « ندي » •• ومن المزيد « نادى » ؛

« واسْتَمِعْ
يومَ ينادِ المنادِ
من مكانٍ قريبٍ
يومَ يَسمعون الصيحةَ بالحقِّ ••
ذلكَ يومُ الخروج
نحنُ نحيي ونُميت
وإلينا المصير ••••
نحنُ أعلمُ بما يقولون
وما أنتَ عليهمْ بجبّار
فذكّر بالقرآنِ
منَ يخافُ وعيد » •

(ق : ٤١ ـ ٤٥)

المُناد : صوتٌ له صداه العالميّ ؛ بنيةً ومعنىً ؛

فالمعنى : لا يحتاجُ تأكيداً على شموله ؛ من يَفرّ من المصير المحتوم ؟

بالتأكيد : لا يندّ عنه أحد ؛ أي لا يشذّ ولا يتخلف أحد عن ملاقاة المصير باستجابةٍ حتمية للمنادي ••

والبنية الصوتية :نسمع مثلَها أو صداها في لغـات عالمية معروفـة الشهرة كالفرنسية والانكليزية ؛

ففي الانكليزية : Monad (مونا د)

ومن معاني الكلمة : الجوهر الفــرد ؛ أو أحد عناصر الوجود الأولية ؛ أو الوحدة ؛ أو : الواحد ••

ونحن نختار هذا المعنى « الواحد » ؛ فالواحد ، هو « المناد » وهو مالك يوم « التنــاد » ••

وفي الفرنسية : Monade (مُونَاد)

ومن معانيها : ما أشار إليــه المعجم الانكليزي •• واشتقوا منهــا مذهب الأحاداتية ، القائل بأن الكون مؤلف من عناصر أولية متآحدة ••

فهل سمعنا صدى الصوت المنادي ؟

ربّما يخطر للبال : أسئلة عديدة ، عند هــذا المستوى النــدائي الممتد في أربع تموجات ؛ ثلاثتها الأولى : فعلية ؛ والتموج الرابع احتضن باسميته الفواعل الفعليــة ؛

لا بأس من التأمل الهــادىء ؛

ند • ندد ••

ندي ••

نادى ••

منــاد •••

فالأصل الثنــائي : ذو دلالة سلامية ؛ فالنــد ، بكسر النون ، هو المثــل والنظير • ومنبع التطيب البخوري في لغــة عالمية •••

ومثناه : نِدان ••

وبسياق أسلوب النداء ؛ المنادي : ند ؛ والمنادى : ند آخر •• وتناديهما متبــادل ••

وفي الأطوار جميعاً ؛ تزيداً فعلياً ؛ واشتقاقاً اسميًا : يظل سـلام التواصل بالتناد ، ما لم يشذ ، أو يند النادون عن وجهة الأصل التي هي التماثل المطابق ••

وقـد رأينا الصورة الكاملة لهذا التطابق المتجاوب في سورة مريم ؛ وكيف نادى زكريا ربَّه •• ثم كيف ناداه ربُّه •• وكانت النتيجة الحيوية : يحيى •• سلام الله على يحيى وأبيه والمرسلين ••

وهذا التطابق بين طرفي النداء ، ولنقل بين نـِديه : يأخذ إلى سلامٍ آخر ؛ فالمطابقة البلاغية : ليست تضادّاً ، كما يظن ؛ بل هي التناغم ••

ولا يندّ عن هذا التناغم الحيوي شيء ، مهما بدا الظاهر مناقضاً أو مضاداً ؛ وهذه مسألة لها في فقـه اللغـة مساحة واسعة ؛ ومساحتها في فقـه الحيـاة : أوسع •• وسبحان الواسع الحكيم ••

البلاغة : أحكام وفق قواعد الحقيقة والمجاز •• وهي بكلّ الصور : تستند على اللغـة ••

واللغـة ، كما نشاهدها في مادة « ندي » : تتأصل وتتفرّع •• تقبـل التجريد وتقبـل التزيد •• تجري مجاري الأفعال •• وترقى مراقي الأسماء •• وكلّ موادّها : لا تندّ عن « مادة ندي » ••

فإذا عكس الثنائي « ند » •• يعطي مقلوبه « دن » •• فهل يُغيِّر اتجـاه المعنى الندائي •• أم يخصّصه بالصوت ؟

قاموسياً : المعنى يركز على التنغيم ؛ يقال دنّ الرجلُ دنيناً ، إذا نغَّم •• أو تكلَّم دندَنة ، أي لم يفهم منه الكلام ، بل النغم ••

فكأنّ الدندنة : نـداء صوتيّ ؛ وكأن ما يشتق منها : يؤكّد وجهـات المعنى الندائيّ ••

فلو قلنـا :

دن •• دنن

دنو ••

داني ••

مدانٍ ••

أليس الجامع المعنوي بينها : يقرّبُ ، أو يتودّد للقريب •• ؟

ولا تنسى المبادلة بين الواوْ والياء ، هنا ، أيضاً ••

كما نذكر بأن للكلمة تسعة وأربعين معنى ، أي شعبة •• فهل تتذكر الأفعال المتعلقة بمادة الحروف الثلاثة « ندي •• ندو » ؟

هل نجـربُ مناداةَ شُعَبِها مِن مقتضى الحال ؟ ••• أم نسلّم عـلى شُعيبٍ سلاماً •• ؟

إنّ السّلامَ على شُعيبٍ : واجبٌ بكلّ حـال ؛ فهو من أكابر معلّمي بلاغة النـداء ؛ وكان يلقبه خاتمَ الأنبياء (ص) بخطيبهم ؛ كما أورد الجاحظ في بيانـه •• وخبره وحواره مع قومـه في مدين : لوحَةٌ نتأمّلُها في معرِض الاستفهام ؛ لأن ألوانَها الشعبية تتمازجُ بطريقة بديعـةٍ ؛ فيُرى النبيُّ المعلّمُ بين قومِهِ : يُناديهم وينادونه •• يسألُهم ويسألونه ••

أمّا هنا : فقد أردتُ من ذكرِه ، (ع) ، عند هذه الذروة من معـاني النداء اللغوية ؛ لأعتذر لمن تخطـرُ لهم صعوبةٌ غير المألوف ، ولو كان أسهلَ وأقومَ ممّا ألفوه وتعوّدوه ؛ ففي حكاية شعيب مع قومه ، يقولون له مستغربين :

« يا شـعيبُ •• !

أصلاتُك تأمرُك

أن نتركَ : ما يعبُدُ آباؤنا •• ؟

أو :

أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء .. ؟

إنكَ لأنتَ الحليم الرشيد .. »

(هود : ٨٧/١١)

يا شـعيبُ ... !

ما نَفقَـهُ كثيراً ممَّا تقول ..

وإنَّا لنراكَ فينا ضعيفاً

ولولا رهطُك لرجمناك ..

وما أنتَ علينا بعـزيز ... »

(هود : ٩١/١١)

والمقصودُ في سياقِ بحثنا ، أنَّ قـومَ شعيبٍ : لا يفقهون كثـيراً ممَّا يقول ، مـع أن الذي يقوله بدهيٌّ طبيعيٌّ ؛ وربَّما يكون مقبولاً لدى أقـلِّ موظفيِّ التموين في زماننا ، من وجهة المنطق والاستقامة في التعامُل ؛ لقـد كان مضمون ندائه لهم خلاصةً عمليةً لرسالة الرسل أجمعين :

« يا قـوم ...

اعبُدوا اللهَ

ما لكمْ مِن إلـهٍ غـيرُه ..

ولا تنقُصُوا المكيالَ والميزانَ

إنِّي أراكمْ بخـيرٍ

إنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ محيط ..

« ويا قـوم ...

أَوفو المكيالَ والميزانَ بالقِسْطِ

ولا تبخَسوا الناسَ أشياءهم

ولا تَعثَوا في الأرضِ مفسدين ..

بقيَّةُ اللهِ :

خيرٌ لكمْ إن كنتم مؤمنين
وما أنا عليكم بحفيظ ٠٠٠ »

(هود : ١١/٨٤ ــ ٨٦)

هذا هو الكلامُ الواضح الذي نادى شعيبُ قومه من أجله : أن يوحِّدوا خالق أعينهم وأيديهم وبديعَ كلِّ شيء ٠٠ وأن يقوِّموا سلوكهم وفق هذه الأخلاقية الخيِّرة ، التي ينظر كل إنسانٍ فيها إلى الآخَرِ نظرته إلى نفسه ؛ فيحسن التعامُلَ معه في ما يُوزنُ وزناً ٠٠ أو ما يُكال كيلاً ٠٠ أو ما تقدر قيمته من الأشياء تقديراً ٠٠ أو ما يحبُّ صلاحه في الأرضِ من أملاكٍ عامَّة ومن أخلاق إنسانية وآداب اجتماعية لا يحق لأحد إفسادها ٠٠٠ أو ما يُرجى خيرُه الأوسَعُ في مستقبل الحياة ومصير الأحياء « بقيَّة اللهِ : خيرٌ » ٠٠

هذا المضمون الواضح في « رسالة النداء » ، التي وجَّهها شعيبٌ إلى قومه ؛ لكنهم صرَّحوا كما سمعناهم بجوابهم الندائي : « أنهم لا يفقهون كثيراً ممَّا يقول ٠٠ وأنَّهم يستغربون من رجلٍ حليم رشيد ، مثل شعيب ، أن ينهاهم عن عبادة أصنام لا تضرُّ ولا تنفع ٠٠ أو يأمرهم بحسنِ التصرفِ بأموالهم ٠٠ » ٠٠

إنهم لا يقفون عند هذا الحدِّ ٠٠ بل يهاجمون شعيباً بما سمعناه في ندائهم الثاني ؛ فيرونه : ضعيفاً فيهم ٠٠ ولولا رهطه ، أي أنصاره وعشيرته ، لرجموه ٠٠ ومع ذلك لا يرونه عليهم بعزيز ، على اختلاف معاني العزيز ٠٠

ويجيبهم شعيب بنداءات الحليم الرشيد ؛ فيناديهم مستفهماً بصور تعليمية ، توجههم إلى ما يُقنعُ برسالة ندائه ؛

فيقول جواباً لندائهم الأول :

« يا قوم ٠٠٠ !
أرأيتُمْ :
إنْ كنتُ على بيِّنة من ربِّي ٠٠

ورزقني منــهُ رزقــاً حسناً .. ؟
وما أريــدُ أن أُخالفكم
إلى ما أنهاكمْ عنــه ..
إنْ أريــدُ إلاّ الإصــلاحَ
ما استطعتُ
وما توفيقي إلاّ بالله ..
عليــهِ توكلتُ
إليــهِ أُنيب ..
ويا قــوم ... !
لا يَجرِمنَّكم شِقاقي :
أنْ يُصيبَكم
مثلُ ما أصابَ قــومَ نوحٍ
أو قــومَ هــودٍ
أو قــومَ صالحٍ
وما قــومُ لُوطٍ منكمْ ببعيد ..
واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه
إنَّ ربي : رحيمٌ ودود ..

(هود : ١١/٨٨ ـ ٩٠)

ويقول جواباً لندائهم الثاني ، وبأسلوبه البلاغيِّ المنشيء :

« يا قــومُ ... !
أرَهْطي أعــزُّ عليكم منَ الله .. ؟
واتخذتموهُ وراءَكم ظِهــريًّا .. ؟
إنَّ ربِّي بما تعملونَ محيط ..
« ويا قــوم ... !
اعملوا على مكانَتِكم

إنّي عامِــلٌ
سوفَ تعلمونَ :
مَن يأتيهِ عذابٌ يُخزيــه
ومَنْ هو كاذِبٌ
وارتقبوا
إنّي معَكُم رقيب » ..

إنّ التأمّلَ بأدوار هذه الحوارية ، بين شعيبٍ وقومه : يُظهــر للمتأمّل أسلوب المعلّم الرسول ، الذي وصفته بالبلاغيّ المنشىء ؛ أعني : أنه يريد إنشاءَ حيــاة جديدةٍ فيها الإصلاحُ والإنقاذُ معاً ؛

ونلاحظُ : المفارق الندائية بترتيب الحــوار ؛ لندرك الرسالة النــدائية ، شعيبيّاً .. ولندركها قوميّاً ؛

« وإلى مدينَ أخاهمْ شعيباً ؛
قــال : يا قــوم ... ويا قوم ..
قالوا : يا شعيبُ ...
قــال : يا قــوم ... ويا قوم ..
قالوا : يا شعيبُ ...
قــال : يا قــوم .. ويا قوم ... »

(هود : ١١/٨٤ ـ ٩٣)

إن فاتحة هذه النداءات : متصلة بالعطف مع نداءاتٍ سابقةٍ ، ذكّر شعيب قومه بعِبَرِها ؛ وتمنّى عليهم ألاّ يورطهم شقاقُهم له بمثل ما تورطت بــه تلك الأقوام من الهلاك بسبب مخالفتهم لأنبيائهم المرسلين لإصلاح حالهم وإنقاذهم .. وقــد ذكــر منهم أربعة أقوام ؛

ونلاحظ الترابط البنيوي بين نداءات هؤلاء الرســل المصلحين المنقذين ، في إطــار سورة هود ؛

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومـه ...
وإلى عـادٍ أخاهم هوداً ...
وإلى ثمـود أخاهم صالحاً ...
ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ : بالبشرى ؛
قالوا : سـلاماً ...
قـال : سـلامٌ ..
قالوا : لا تخف إنا أُرسِلنا إلى قوم لوط ...
وإلى مَدْيَن أخاهم شعيباً ..

(هود : ١١/٢٥ ـ ٨٤)

إنَّ الإنشاء الندائيَّ : محكم البناء لدرجةٍ إعجازية ؛ لكنه شعبيٌّ قريبٌ ؛ وطبيعيٌّ مقنعٌ ؛ فكلُّ قاعـدة من قواعد الأحكام : مطـارٌ تحلّقُ منه ، أو تحطُّ به ، مثل طوائرِ الأحلام ؛

أليس لكلِّ سببٍ نتيجـة ؟

كذلك لكلِّ نداء رسالة ؛ وفي كلِّ رسـالة : قواعد أحكام .. وطوائر ، أو رجاءات أحـلام ..

مَن يُلبي نداءَ النبيّ الموحِّد المصلح : ترفعـه قاعدة الحكم إلى تحقق رجـاء الحـلم ...

ومَن لا يُلبِّي ، بل يجادلِ ، ويُكابر ، ويؤذي حكيمه « الحليم الرشيد » : تهبط به قاعدة الحكم إلى فشل عناده وهلاك أضغانه ؛

ولننظر خاتمة مَن لبَّى ومَن لم يلبِّ من قوم شعيب :

« ولمَّا جـاءَ أمرُنـا
نجَّينا شعيباً
والذين آمنوا معـه برحمةٍ مِنَّا ..

وأخذتِ الذينَ ظلموا الصيحة
فأصبحوا في ديارهم جاثِمين ..
كأنْ لمْ يَغْنَوْا فيهـا
ألا بُعـداً لمَدْيَنَ
كما بَعِدَتْ ثمـود .. »

(هود : ١١/٩٣ ـ ٩٤)

هذه النتيجة ، بعد كل حساب ؛

والبلاغة الندائية ؛ ولنقل ، « البلاغة الشعيبية » بأسلوب النداء الإنشائي : تمثل لما سبقها وما تلاها من البلاغة النبوية .. فلننظر البلاغة النوحية .. والبلاغة الهودية .. والبلاغـة الصالحية .. ثم بلاغـة لوط .... ثم البلاغة الإبراهيمية والبلاغة الملائكية ؛ أي بلاغة الرسل الذين حاوروا إبراهيم بشأن قـوم لوط .. وبشروه بإسحاق .. ويمكن هنا الالتفات إلى بلاغـة أمٍّ إسحاق في حوارها مع الرسل المبشرين من الملائكة ..

البلاغة الشعيبية : اجتذبتنا إلى مدين البلاغة ، ونحن على ذروة من ذرى البلاغة الندائية ، في وعي الكلمة الاصطلاحية ، « نـداء » ..

عندما ارتقينا ذروة الثنائيِّ « ند » : كشف لنا الصوت البلاغيُّ في لغاتٍ عالميـة ووراء عالميـة ..

وعند هذا الكشف الأعلى : جذبنا نداءُ شعيب إلى تذكر الأقوام ؛ فهـل تغيَّرت أقوام الناسِ في الدنيا .. وهـل بلغ تطور الوعي في عالمنا مبالغ عالميته التواصلية ؟

هل يتنادى الناس بأحسن من تنادي شعيبٍ مع قومه ؟

لقد قالوا ما قالوه .. وصبر عليهم كما صبر .. وكانت النتيجة كما كانت ..

فهـل يتنادى المعلمون والمتعلمون إلى فقه كثير من المعاني التي لم تفقـه من قبـل ؟

اساليب

الانشاء الطلبي

١ – التمني : ليتكَ تصغي بقلبك ؛

٢ – الاستفهام : أتترك أرضكَ الخِصبةَ تبور ؟

٣ – الأمر : أمرُكَ الحقُّ ؛ فمُرْني

٤ – النهي : ؛ لا تُضِعْني

٥ – النداء : ؛ يا إلهي



هذه خمسة أساليب الإنشاء الطلبي ، مرتبة وفق نظام الكتب القديمة : التمني ، الاستفهام ، الأمر ، النهي ، النداء ••• وتكتمل دورة التعرف إلى ما يمكن لهذه الأساليب من تطوير وإخصاب : إذا عدنا من آخر « أسلوب النداء » إلى أول « رسالة انداء » •• فالأصل المنهجي : أن « رسالة النداء » تلي ما انتهينا إليه في « أسلوب النداء » •• لكن ما نحن به من « تربية الذوق النقدية على نقاءِ النصوص الإبداعية » : جعلنا نقدم الغاية على الوسيلة ، ليكون ذلك أبعثَ لعزائم الشباب والمعلمين •• فرسالة النداء ، بمقدمتها وبابيها وخاتمتها : تعطي الشرابَ المصفّى من المسألة ، وتظهر دور المعنى في رقي الوعي وسعادته ، على مستويات المجتمع والنفس واللغة والنبوّة ••• أو هي ، كما مثل لها ، تشبه أرغفة الخبز على المائدة ، بينما تشبه معطيات أسلوب النداء ، في النصوص القديمة والسابقة : السنابل في الحقول •• أو العجين في المعاجن ••• وبكلٍّ خير ••

القارئ حرٌّ في اختيار الكيفية التي يتناول بها أساليبَ الإنشاء •• وهو حر مرة أخرى في إنشاء أي من هذه الأساليب وفق ما يراه ، معتمداً أسس البحث الخمسة : تحديداً ، وتقصياً ، وتخيراً ، وتمثلاً وتعبيراً ••

بكل أساليب الإنشاء والخبر : أتمنّى أن أكون خادماً نافعاً •• والله أرجو ليتقبل مني •••

أسـلوب التمـنّي

قيلَ : ادخُلِ الجنّة ..

قالَ : يا ليتَ قومي يعلمون

بما غفـرَ لي ربّي

وجعلني من المُكرَمين ..

(يس : ٢٦ ــ ٢٧)

التمني : طلبُ حصولِ شـيءٍ على سبيل المحبّة ؛

: طلبُ أمر محبوبٍ ؛ لا يرجى حصوله : لاستحالته ؛

أو لعدم الطمع بنيله، مع إمكانه ..

لفظه الأصلي : ليت ..

ما يمكن التمني به ، أيضاً : هل ؛ لعلّ ؛ لو ..

كتب حديثة لمعالجته : علم المعاني ؛ لعبد العزيز عتيق ؛

لبكري شيخ أمين ؛

لمزيد نعيـم ....



- ١ -

نصغي إلى عبارة الكتاب القديم ، وهو يفرّعُ الإنشاء الطلبيَّ إلى فروعه الخمسة : التمني ، الاستفهام ، الأمر ، النهي ، النداء ؛ ليكونَ انتقالنا إلى المعالجةِ الحديثة واضحاً ومُقدَّراً •• وليرى طلابُ البلاغة : دوران المؤلفين حول محور واحد ، ولو كثرت الكتب البلاغية ، ثانوية وجامعية وعامة ••

يقول القزويني بنصِّ « الإيضاح » مفصّلاً أنواع الإنشاء الطلبي :

- ٢ -

وأنواعه كثيرة : منها التَمَنّي ؛ واللفظ الموضوع له « لَيْتَ » ولا يُشْتَرَطُ في التمني الإمكان ، تقول : ليتَ زيداً يَجِيءُ ، وليتَ الشَّبابَ يعود ، قال الشاعر :

« يا لَيتَ أيامَ الصِّبا رَوَاجِعا » (١)

وقد يُتَمَنَّى بـ « هَلْ » كقول القائل : « هَلْ لي مِن شَفِيع ؟ » في مكانٍ يعلم أنه لا شَفيعَ له فيه ؛ لإبراز المُتَمَنَّى – لكمال العناية به – في صورة الممكِن ، وعليه قوله حكايةً عن الكفار : « فهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فيَشْفَعُوا لَنَا ؟ » (٢) •

وقد يُتَمَنَّى بـ « لَوْ » كقولك « لو تأتيني فتُحدِّثَني » بالنصب •

قال السَّكاكي : وكأن حروف التَّنْديم والتَّخصيص – وهي : « هَلاَّ » و « ألاَّ » بقلبِ الهاء همزةً و « لَوْلا » و « لَوْما » – مأخوذةٌ منهما مركبتين مع « لا » و « ما » المزيدتين ؛ لتضمينهما معنى التمني ؛ ليتولَّد منه في الماضي

---

(١) الشاعر العجاج ، و « رواجع » يعربها الفراء وبعض اصحابه خبر « ليت » لأنها قد تنصب اسمها وخبرها جميعاً عندهم ، ويعتبرها غيرهم دليل الخبر معمولة له على الحالية ، والتقدير : يعدن رواجع ، أو ما اشبهه .

(٢) بعض الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

التنـديمُ نحـو « هَلاَّ أكرمتَ زيـداً » وفي المضارع التخصيصُ ، نحـو « هَلاَّ تقـومُ » .

وقد يُتَمَنَّى بـ « لَعَلَّ » فتُعطيَ حكم « ليت » نحو « لعلِّي أحُجُّ فأزورَكَ » بالنصب ، لبعد المرجُوِّ عن الحصول ، وعليه قراءةُ عاصِمٍ في رواية حَفْصٍ : « لَعَلِّي أبْلُغُ الأسْبَابَ ، أسْبَابَ السَّمَوَاتِ فأطَّلِعَ إلى إلهِ مُوسَى » (١) بالنصب .

- ٣ -

من المؤلفين الجامعيين : من يبـدأ معالجة فروع الطلب ؛ من « الأمـر » ؛ ثم يأتي بالنهي ؛ ثم بالإستفهام ؛ ثم بالتمني ؛ ويختم بالنداء ، كما فعـل الدكتور عبد العزيز عتيق ، في كتابه : « علم المعاني » (٢) .. وكما فعل الدكتور مزيد نعيم ، في وجيزه ؛ (٣٣ - ٤٤) ..

ومنهم من يساير ترتيب الإيضاح ، كما فعـل الدكتور بكري شيخ أمين ، بمؤلفه الذي يحمل هذا العنوان : « علم المعاني » (٣) .

المؤلفات البلاغية الحديثة : تقرِّبُ النصَّ القديم ؛ وهذا التقريب : يُساعِدُ طالِبَ البلاغةِ لذاتها ؛ وتعين من يطلبها لتذوقِ الأدبِ ؛ وفي كتب النقد الأدبيِّ : نلاحظ ذكاءَ المنتبهين إلى دور البلاغة في معاملة « المعنى » (٤) ..

---

(١) بعض الآية ٣٦ وبعض الآية ٣٧ من سورة غافر .
(٢) ٧٥ - ١٢٩ وفي هـذه الصفحات إيجاز لفروع الإنشاء غير الطلبي ، أيضـاً ؛ المدح والذم ، التعجب ، القسم ، الرجاء ، العقود ..
(٣) ٨١ - ١١٧ كذلك أشار الى فروع الإنشاء غير الطلبي هنا ..
(٤) يلاحظ ما كتبه الدكتور مصطفى ناصيف ، في كتابيه : نظرية المعنى في النقـد العـربي .. ومشـكلة المعنى في النقـد الحديث .. وكذلك ما كتبـه الدكتور نعيم اليـافي عن « الموقف البلاغي » ، في الشعر العربي الحديث ..

أسلوب الاستفهام

ومَا لِيَ لا أعبُدُ الذي فطرني ؛
وإليهِ تُرجَعُون ؟
أَأَتَّخِذُ مِنْ دونهِ آلِهةً ؛
إنْ يُرِدْنِ الرحمنُ بِضُرٍّ ،
لا تُغْنِ عنِّي شفاعتُهم شيئاً ؛
ولا يُنقِذون ..
(يس : ٢٢ ـ ٢٣)

وناداهُما ربُّهما :
ألَمْ أنهَكُما عن تلكما الشجرة ؛
وأقُلْ لكما :
إنَّ الشيطانَ لكما عدوٌّ مبين ؟
(الأعراف : ٢٢)

قال له موسى : هلْ أتَّبِعُكَ على أن تعلِّمني
مما عُلِّمْتَ رشداً ؟ !
قال : إنَّكَ لن تستطيع معيَ صبراً
وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ به خُبراً ؟ !
(الكهف : ٦٦ ـ ٦٨)

الاستفهام : طلب الفهم ؛ مثل الاسترزاق : طلب الرزق ؛ ومثل الاستغفار : طلب الغفران ؛ ومثل الاستعلاء : طلب العلو ..

وأسلوب الاستفهام عن المعاني : له ألفاظ مخصوصة ؛ حرفان ، هما : هل ، والهمزة ؛ وتسعة أسماء ، هي : ما ؛ من ؛ أي ؛ كم ؛ كيف ؛ أين ؛ أنّى ؛ متى ؛ أيّان ؛ ؟

وللمعنى المطلوب فهمه بوساطتها : ثلاث جهات ؛ هي : التصديق ، وتختص به « هل » وحدها .. والتصور ، وتختص به الأسماء التسعة .. والجمع بين التصديق والتصور ، وتلك طاقة الهمزة ؛

التصديق والتصور ، في كتب البلاغة : مسألتا تعرّف ؛ إلى صدق نسبة المسند إلى مَن يُسند إليه ، مثل : أقام زيدٌ ؟ والجواب المصدّق : قام .. أو لم يقم ... أو إلى ماهية وجود ما ، مثل : أدِبْسٌ في الإناءِ أم عَسَلٌ ؟ .. والجواب يُحدّد صورة الموجود المباشرة بذاتِه ؛ إن كان دبساً فدبساً .. وإن كان عسلاً فعسلاً .. ويُسمّون تحديد المفرد هذا : تصوراً ..

لكن التصديق والتصور ، من وجهة أدبية : تمثلان ما هو الطبيعيّ الواقعيّ الذي تصدق عليه الوقائع القائمة .. وما هو التخييليّ الذي يفوق الواقع ، ويرى رؤىً يصورها له كشفه الذي يُميّزه بما اكتشفَ ورأى ..

ومؤرخو الآداب والأفكار : يرون الواقعيَّ مستبعداً التصور .. ويرى « تفاوت الشعراءِ مثلاً في تصور الموضوع الواحد ، وفي إبرازه إلى الوجود » ،

على حد تعبير « المعجم الأدبي ، لعبد النور » •• وما نقله عن « لوفقر ، في علم الجمال ، ص : ٩٤ ، ١٠٧ » ••

ما بين جهات الاستفهام : تقومُ وجهات التفهم الفلسفيِّ والفنيِّ والاجتماعي والديني •• ومع ذلك : فليست شروح البلاغة أكثر من المفاتيح المعينة على دخول البيوت، أو الكشف عن مياه الأعماق وكنوزها ••

الاستفهام البلاغي : نوع من أنواع الإنشاء الطلبي ؛ « وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصةٍ » •• وقد سلفت أسماء الأدوات ، التي يبدأونها بالهمزة ؛ فيقولون ما يشبه هذا :

أ — أأسبوعاً قضيتَ في انتظارنا أم أكثر من أسبوع ؟

ب — أينزل الثلجُ شتاءً في صحراء العرب ؟

في المثال (أ) : يطلب التصورُ الانتظاريُّ بتعيين المفرد ؛ وذلك بإدراك أن زمن الانتظار كان أسبوعاً ، أو أكثر من أسبوع •• لأن نسبة الانتظار معلومة •• والمجهول من الأمر : هو المنتظَرُ المطلوب معرفته ••

في المثال (ب) : تطلبُ معرفة نزول الثلج أو عدم نزوله على صحراء العرب في الشتاء ؛ وعلم ذلك يكون بالجواب : نعم ، ينزل الثلج ••• أو : لا ، لا ينزل الثلج شتاء على صحراء العرب •• لأن الجانب المجهول ، هنا ، هو نسبة النزول الثلجي ؛ ومعرفة النسبة تسمى : التصديق •• كما سميت معرفة المفرد : تصوّراً •••

الدارسون البنيويون : يلاحظون بنية الجملة ، عندما تكون الهمزة للتصور ؛ فإنها تتلى بالمسؤول عنه دائماً ، كما يُذكر له في الغالب معادلٌ بعد « أمْ » ؛ تأمل (أ) •• بينما لا يجدون للمسؤول عنه معادلاً ، إذا كان الاستفهام متجهاً لمعرفة النسبة ؛ تأمل (ب) ••

وملاحظةُ البنية : تثيرُ انتباهنا إلى حركة المعنى في الصورة الاستفهامية ؛ فالمسؤول عنه بهمزة التصور : يليها مباشرة ؛ كيفما كانت رتبته في الجملة ؛ أعني : مسنداً إليه ، مسنداً ، مفعولاً به ، حالاً ، زماناً ، أو غير ذلك من المتعلقات .. ومن الأمثلة المدرسية : ما يحمل إلى تراكيب أدبية لا تحصى شرط تحقق السلامة البنيوية ؛ نلاحظ بساطة التمثيل لصلة المسؤول عنه بهمزة التصور بمثل هذه الأمثلة :

« أأنت الذي جاء لزيارتي أمس أم غيرك ؟ ..
« أمسافرٌ أنت في الصيف أم مقيم ؟ ..
« أكتاباً قرأت في الأدب أم أكثر من كتاب ؟ ..
« أماشياً تغدو إلى عملك أم راكباً ؟ ..
« أساعة أمضيت في زيارة صديقك أم ساعتين ؟ ..
« أإلى الشعر تميل أم إلى الأدب القصصي ؟ .. »

نلاحظ اتصال المسؤول عنه : بالهمزة .. أي ليس بينهما فاصلٌ في بناء اللفظ ... كما نلاحظ اتصال « أم » أي هي لا تقطع ما يليها عما سبقها ؛ بل تجعله داخلاً بمعنى ما سبقها ؛ ففي المثال الثاني : تجعل المسافر والمقيم في حالة اتصالٍ معنوي ، يُعين على تصورٍ معيّنٍ للمسؤول عنه في الصيف « أمسافر أنت في الصيف أم مقيم » ؟ ... وقد لا تذكر « أم » ولا المعادل بعدها ، مع حضور المعنى في التقدير ، كقوله تعالى : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » ... والمقدر : أم غيرُك ... ؟

هذا وضع « أم » بعد همزة التصور .. لكن وضعها بعد همزة التصديق ، أو بعد « هل » التي تختص بالتصديق وحده : يختلف ؛ فلا تكون متصلة ؛ بل « تقدر منقطعة » ؛ وتكون بمعنى « بل » ، التي هي للانتقال من كلام إلى آخر ، لا يمتد تأثير الاستفهام السابق إليه ... وانقطاع أم : يقلب الكلام الذي يليها خبرياً لا إنشائياً ؛ ومن أمثلة ذلك ، قول جرير :

أتصحو أم فؤادك غـير صـاحٍ ٠٠ ؟
عشيَّة هـمَّ قومك بالرَّواحِ ٠٠٠

فالهمزة للتصديق ، وأم في تقدير المنقطعة ، والكلام بعدها خبري : « فؤادك غير صاحٍ تلك العشية » ٠٠

ومن أمثلة « هل » التصديقية ، دائماً :

ألا ليتَ شعري هل تغيَّرت الرحى ؟

رحى الحرب ، أم أضحت بفَلْج كما هيا ؟

هـل : لمعرفة النسبة ، لذلك فإن « أم » : منقطعة ، لا تصل ما بعدها بما سبقها ، وما بعدها من الخبر لا الإنشاء ، « أضحت الحرب بفَلْجٍ ، أي بذلك الوادي بين البصرة إلى مكة ، كما هي » ٠٠٠

كذلك تلاحظ البساطة والتركيب في جملتي التصديق ، مع : هل ، وهمـزة التصديق ، فإذا سُئِلَ بهما عن « وجود شيء أو عدمه » : اعتبرتا في البساطة ، مثل : « هل يصدأ الذهب » ؟ ٠٠ والجواب : نعـم ٠٠ أو : لا ٠٠ ومثل : هـل نهر النيل يصب في البحر الأبيض ٠٠ ؟ هل الرافدان : دجـلة والفرات ، يصبان في شط العرب ، أو في بحر عمان ، أو المحيط الهندي ؟ ٠٠ فالأداة مركبة لاستفهامها عن وجود شيء لشيء ٠٠٠

هـذا التوقف مع بنية الجملة الاستفهامية : يقربنا إلى فهـم المعنى وتعليل حركته بين التصديق والتصور ٠٠ أو عبرهما ٠٠ أليس الاستفهام لعلم ما لم يكـن معلوما ؟ !

قبل متابعة القزويني في « إيضاحه » لأنواع الإنشاء الطلبي : نشير إلى ملتقى المعنى بالنحو في أسلوب الاستفهام ، فمن ألفاظ الاستفهام : ما هو مشترك مـع

جوازم الفعل المضارع ؛ وهي اثنا عشر جازماً ؛ يرتبونها في مباحث النحو : بحرفين وعشرة أســماء ؛

الحرفان : إن ، وإذما ؛ ولا يشاركان بألفاظ الاستفهام ..

والأسماء : مَن ؛ ما ؛ مهما ؛ متى ؛ أيَّان ؛ أيــن ؛ أنَّى ؛ حيثمـا ؛ كيفما ؛ أي ... تقارن بما يخص الاستفهام .. والمقارنة : تفتح أبواب التأمل بالعلائق بين الأساليب : الاستفهامية .. والشرطية .. المنتظرة بالإطلاق والواقعة بالجــزم ...

وهذه عبارة الإيضاح بالاستفهام ؛ يتابع فيقول [1] :

- ٢ -

ومنها الاستفهامُ ، والألفاظ الموضوعة له : الهمزة ، و « هل » ، و « ما » ، و « أيّ » ، و « كَمْ » ، و « كَيْفَ » ، و « أين » ، و « أنَّى » ، و « متى » ، و « أيَّانَ » .

فالهمزة لطلب التصديق ، كقولك : « أقــامَ زيدٌ ؟ » و « أزيدٌ قائمٌ » أو التصوُّر ، كقولك : « أدِبْسٌ في الإنــاءِ أمْ عَسَلٌ ؟ » و « أفي الخابِيةِ دِبْسُكَ أمْ في الزِّقِّ » [2] ولهــذا لم يقبح « أزيــدٌ قائم ؟ » و « أعَمْراً عَرَفْتَ ؟ » .

والمسؤول عنه بهــا هو ما يليها ؛ فتقول : « أضربتَ زيْداً ؟ » إذا كان الشَّكُّ في الفعــلِ نفسهِ ، وأردتَ بالاستفهام أن تعلمَ وجودَه ، وتقــول : « أأنتَ ضربتَ زيْداً ؟ » إذا كان الشكُّ في الفاعل : مَنْ هُوَ ؟ وتقــول : « أزيداً ضربتَ ؟ » إذا كان الشكُّ في المفعول : مَنْ هو ؟

---

(١) حقق نص القزويني : محمد عبد المنعم خفاجي .. ولاحظ حركة عرضنا لهــذا الأسلوب لأغراض نقدية تربوية ؛ من وجهــة بلاغية وأدبية : لعــل الانتبــاه يرصدها هنا وفي المقــدمة .

(٢) الخابية والخابئة : الجرة الضخمة ، والدبس بالكسر : عسل النحل أو عسل التمر ونحوه ، والزق : وعاء من جلد يحمل فيه الماء ونحوه من السائل .

ومنها : التوبيخ والتَّعْجِيبُ جميعاً ، كقوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله : وكُنْتُمْ أمْواتاً فأحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليْهِ تُرْجَعُونَ » [1] أي : كيف تكفرون ، والحال أنكم عالمون بهذه القصة ؟ .

أما التوبيخُ ؛ فلأن الكفر مع هـذه الحال ينبىء عـن الانهماك في الغفلة أو الجهـل .

وأما التعجيب ؛ فلأن هذه الحالَ تأبى أن لا يكون للعاقل علمٌ بالصانع ؛ وعلمُه به يأبى أن يكفر . وصدورُ الفعل مع الصارف القوي مَظِـنة تعجُّبٍ .

ونظيره « أتَأمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وَأنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ » [2] .

- ٣ -

أسلوب الاستفهام : بنية للتعرُّف إلى عـلم المجهول ؛ وهذا تحديد لإثارة التنبه إلى دور هـذه البنية في الفهـم : على مستوى الواقعية .. وعلى مستوى التجاوزية ، أو التصورية ؛ وضابط هذا المستوى : ذوقيٌّ يُفهَمُ من سياق الكلام وقرائن الأحوال ؛ فقـد يفهم من أسلوب الاستفهام مقاصد أخرى للمعنى ، غـير طلب العـلم بما لم يكن معلوماً ؛ مثـل : النفي ؛ التعجُّب ؛ التمني ؛ التقـرير ؛ التعظيم ؛ التحقير ؛ الاستبطاء ؛ الاستبعاد ؛ الإنكار ؛ التهكم ؛ التسوية ؛ الوعيد ؛ التهويل ؛ التنبيه على الضلال ؛ التشويق ؛ الأمر ؛ النهي ؛ العرض ؛ التحضيض ؛ وغير ذلك : كالتفجع ؛ والتبكيت ؛ والإفهام ؛ والتكثير ؛ والإخبار ؛ والتحقيق ؛ والشرط [3] ...

إن التأمل بأمثلة الكتاب القديم : تمنح فرصة لاكتشاف قيَم التذوق والفهم ما بين : الواقع والمثال ، التصور والتصديق ... ؟ !

---

(١) سورة يونس : ٥٩
(٢) سورة البقرة : ٤٤
(٣) نقلت عبارة « الإيضاح » التامة : للمقارنة مع الكتب الناقلة عنه .. وللموازنة مع مثل « أسلوب النـداء بصورة رسالة النداء » .. ولاحظ : معـاني أدوات الاستفهام المحددة ثم المطابقة بما تخـرج إليه ..

و « هَلْ » لطلبِ التصديق فَحَسْبُ ، كقولك : « هل قام زيدٌ ؟ » و « هل عمرٌو قاعدٌ ؟ » ولهذا امتنع : « هَلْ زيدٌ قامَ أمْ عمرٌو ؟ » وقَبُحَ : « هلْ زيداً ضربتَ » ؟ لما سبقَ أنَّ التقديمَ يستدعِي حصُولَ التصديق بنفس الفعل ، والشكَّ فيما قُدِّمَ عليه ، ولم يقبُح : « هل زيداً ضربتَه ؟ » لجواز تقدير المحذوفِ المفسِّرِ مُقَدَّماً كما مَرَّ .

وجعل السكاكيُّ قبحَ نحو « هلْ رجلٌ عَرَفَ ؟ » لذلك ، أي لما قبُح له « هل زيداً ضربتَ ؟ » ويلزمه أنْ لا يقبُحَ نحوُ « هل زيدٌ عرفَ ؟ » لامتناع تقدير التقديم والتأخير فيه عِنْدَهُ على ما سبق .

وعَلَّلَ غيرُه القبحَ فيهما بأن أصلَ « هَلْ » أن تكونُ بمعنى « قَدْ » إلاَّ أنهم تركوا الهمزةَ قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام .

و « هل » تُخصِّص المضارعَ بالاستقبال ، فلا يَصِحُّ أن يقال : « هل تَضْرِبُ زيداً وهو أخوكَ » كما تقول : « أتضربُ زيداً وهو أخوكَ ؟ » ولهذين – أعني اختصاصَها بالتصديق ، وتخصيصَها المضارعَ بالاستقبال – كان لها مزيدُ اختصاصٍ بما كونُه زمانياً أظهر ؛ كالفعل .

أمَّا الثاني فظاهرٌ ، وأما الأول فلأن الفعل لا يكون إلا صفةً والتصديقُ حُكْمٌ بالثبوت أو الانتفاء ، والنفْيُ والإثباتُ إنما يتوجَّهان إلى الصفات لا الذَّوات ؛ ولهذا كان قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » [1] أدلَّ على طلب الشكْرِ من قولنا : « فهل تشكرون ؟ » وقولنا : « فهل أنتم تشكرون ؟ » لأن إبراز ما سيتجدَّد في مَعْرض الثابت أدلُّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله ، وكذا من قولنا : « أفأنتم شاكرون ؟ » وإن كانت صيغتُه للثبوت ؛ لأن « هل » أدْعَى للفعل من الهمزة ، فتركُه معه أدلُّ على كمال العناية بحصوله ، ولهذا لا يحسُن « هل زيدٌ منطلقٌ ؟ » إلا من البليغ .

---

(1) بعض الآية ٨٠ من سورة الأنبياء .

وهي قسمان : بَسيطةٌ وهي التي يُطلَبُ بها وجودُ الشيء ، كقولنا : « هل الحركةُ موجودةٌ ؟ » ومُرَكَّبَةٌ وهي التي يُطْلَبُ بها وجودُ شيءٍ لشيء ، كقولنا : « هل الحركةُ دائمةٌ ؟ » .

والألفاظُ الباقيةُ لطلب التصور فَقَطْ ...

أما « ما » فقيل : يُطْلَبُ به إما شرح الاسم ؛ كقولنا : « ما العَنْقاءُ ؟ » وإما ماهيّةُ المُسَمَّى ؛ كقولنا « ما الحركة ؟ » والقسمُ الأول يتقدم على قِسْمَيْ « هل » جميعاً ، والثاني يتقدم على « هل » المركبة دونَ البَسيطةِ ؛ فالبسيطة في الترتيب واقعة بين قسمي « ما » .

وقال السكاكي : يُسأل بـ « ما » عن الجنس ، تقول : « ما عِنْدَكَ » أيْ : أيُّ أجناس الأشياء عندك ؟ وجوابه : إنسانٌ ، أو فرسٌ ، أو كتابٌ ، أو نحوُ أيُّ أجناس الأشياء عندك ؟ وجوابه : إنسانٌ ، أو فرسٌ ، أو كتابٌ ، أو نحوُ ذلك ، وكذلك تقول : « ما الكلمة ؟ وما الكلام ؟ » وفي التنزيل : « فما خَطْبُكم ؟ »[1] أي أيُّ أجناسِ الخُطوب خطبُكم وفيه : « ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي » [2] أيْ أيُّ مَنْ في الوجودِ تؤثرونه للعبادة ؟

أو عن الوصف ، تقول « ما زيدٌ ؟ وما عَمْرٌو ؟ » وجوابه : الكريمُ ، أو الفاضلُ ، ونحوُهما .

وسؤالُ فِرْعَوْنَ : « وما رَبُّ العَالَمين ؟ » [3] إما عن الجنس ؛ لاعتقاده - لجهله بالله تعالى - أنْ لا موجود مُستَقِلاً بنفسه سِوَى الأجسام ، كأنه قال : أيُّ أجناسِ الأجسامِ هُوَ ؟ ، وعلى هذا جوابُ

---

(١) بعض الآية ٥٧ من سورة الحجر ، او الآية ٣١ من سورة الذاريات .
(٢) بعض الآية ١٣٣ من سورة البقرة .
(٣) بعض الآية ٢٣ من سورة الشعراء .

موسى عليه السلام بالوصف ؛ للتنبيه على النظر المؤدّي إلى معرفته ، لكنْ لمّا لم يطابق السؤالَ عندَ فِرْعَوْنَ ؛ عَجَّبَ الجَهَلَةَ الذينَ حوله من قول موسى بقوله لهم : « ألاَ تَسْتَمِعُونَ ؟ » [1] ثم لما وجده مُصِرّاً على الجواب بالوصف إذْ قال في المرّة الثانية : « رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ » [2] ؛ استهزأ به وجَنَّنَه ، بقوله « إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » [3] وحين رآهُم موسى عليه السلامُ لم يَفْطَنُوا لذلك في المرّتَين غلَّظَ عليهم في الثالثة بقوله « إن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » [4] . وإما عن الوصف طَمَعاً في أن يَسْلُكَ موسى عليه السلام في الجواب معه مَسْلَكَ الحاضِرين لو كانوا هم المسؤولين مكانَه ؛ لشُهرته بينَهم بربِّ العالَمين ، إلى درجة دَعَتِ السَّحَرَةَ إذْ عرفوا الحقَّ أن أعقبوا قولهم « آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ » [5] وقولهم « رَبِّ مُوسَى وهَرُونَ » [6] نَفْياً لاتّهامِهِم أنْ عَنَوْهُ ، في جَهْلِهِ [7] بحال موسى إذْ لم يكن جَمَعهما قبل ذلك مَجْلِسٌ ، بدليل (أنه) قال : « أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ؟ قَالَ : فَأْتِ بِهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[8] فحين سَمِعَ الجوابَ تعدَّاه فتعجَّبَ واستهزأ ، وجنَّنَ ، وتَفَيْهَقَ بما تفيهق من قوله : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ » [9] .

---

(١) بعض الآية ٢٥ من سورة الشعراء .
(٢) بعض الآية ٢٦ من سورة الشعراء .
(٣) بعض الآية ٢٧ من سورة الشعراء .
(٤) بعض الآية ٢٨ من سورة الشعراء .
(٥) بعض الآية ٤٧ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الشعراء .
(٧) معطوف كلمة شهرته المجرورة بلام التعليل في قوله« لشهرته بينهم رب العالمين » .
(٨) الآيتان ٣٠ ــ ٣١ من سورة الشعراء .
(٩) بعض الآية ٢٩ من سورة الشعراء .

وأمَّا « مَنْ » فقال السَّكاكيُّ : هو للسؤال عن الجنس من ذوي العلم ، تقول : مَنْ جِبْرِيلُ ؟ بمعنى : أبَشَرٌ هو أمْ مَلَكٌ أمْ جِنِّيٌّ وكذا : مَنْ إبليسُ ؟ ومَنْ فلانٌ ؟ ومنه قوله تعالى حكايةً عن فِرْعَوْنَ : « فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسَى ؟ » [1] أيْ أمَلَكٌ هُوَ أمْ بَشَرٌ أمْ جِنِّيٌّ ؟ مُنْكِراً لأن يكون لهما ربٌّ سِواه ؛ لادِّعائه الرُّبُوبِيَّةَ لنفسه ، ذاهباً في سؤاله هذا إلى معنى : ألَكُمَا ربٌّ سِوايَ ؟ فأجاب موسى عليه السلام بقوله : « ربُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » [2] كأنه قال نَعَمْ لنا رَبٌّ سِواكَ ، هو الصانع الذي إذا سلكتَ الطريقَ الذي بَيَّنَ بإيجاده لِما أوْجَدَ ، وتقديرِه إيَّاه على ما قَدَّرَ ، واتَّبَعْتَ فيه الخِرِّيتَ الماهِرَ ، وهو العقلُ الهادي عن الضلال ؛ لَزِمَكَ الاعترافُ بكَوْنِه رَبّاً ، وأنْ لا ربَّ سِواهُ ، وأنَّ العبادةَ له مِنِّي ومِنْكَ ومنَ الخلقِ أجْمَعَ حَقٌّ لا مَدْفَعَ له .

وقيل : هو للسؤال عن العارض المُشَخِّصِ لذي العلم ، وهذا أظهر ؛ لأنه إذا قيل : مَنْ فلانٌ ؟ يُجاب بـ « زيد » ونحوه مما يفيد التشخيص ، ولا نُسَلِّم صحَّةَ الجواب بنحو « بَشَر » أو « جِنِّيٌّ » كما زعم السَّكاكيُّ .

وأما « أيّ » فللسؤال عمَّا يميز أحَدَ المُتَشارِكَيْنِ في أمْرٍ يعمُّهما ، يقول القائل : عندي ثيابٌ ، فتقول : أيُّ الثيابِ هِيَ ؟ فتطلب منهُ وصفاً يميزها عندَكَ عما يشاركها في الثوبِيَّة ، وفي التنزيل « أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ؟ » [3] أي : أنحنُ أمْ أصحابُ مُحَمَّدٍ عليه السلام ؟

---

(١) بعض الآية ٤٩ من سورة طه .

(٢) بعض الآية ٥٠ من سورة طه .

(٣) بعض الآية ٧٣ من سورة مريم .

وفيه : « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ؟ » [1] أي : الإِنْسِيُّ أم الجني ؟ .

وأما « كَمْ » فللسؤال عن العدد ، وإذا قلت : كم دِرْهماً لك ؟ وكَمْ رجلاً رأيتَ ؟ فكأنك قلت : أعشرون أم ثلاثون أم كذا أم كذا وتقول : كَمْ درهمُك وكمْ مالُك ؟ أي : كم دانِقاً ؟ أو كمْ ديناراً ؟ وكمْ ثوبُك ؟ أي : كمْ شِبْراً ؟ أو كم ذِراعاً ؟ وكم زَيدٌ ماكثٌ ؟ أي : كَمْ يوماً ؟ أو كم شهراً ؟ وكم رأيتُكَ ؟ أي : كم مَرَّةً ؟ وكم سِرْتَ ، أي : كم فرسخاً ؟ أو كم يوماً ؟ قال الله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » [2] أي يوماً ، أو كم ساعةً ؟ وقال : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ » [3] وقال : « سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ » [4] ومنه قول الفَرَزْدَقِ :

كَمْ عَمَّةً لَكَ يا جَرِيرُ وخالةً
فَدْعاءَ قَدْ حلَبتْ عَلَيَّ عِشارِي ؟ [5]

فيمَنْ رَوَى بالنصب ، وعلى رِوايةِ الرفع تَحتمِلُ الاستفهاميَّة والخبريَّةَ .

وأما « كَيْفَ » فللسؤال عن الحال ، إذا قيل : كَيْفَ زيدٌ ؟ فجوابه : صَحِيحٌ أو سَقِيمٌ ، أو مَشْغُولٌ ، أو فارِغٌ ، ونحوُ ذلك .

---

(1) بعض الآية ٣٨ من سورة النمل .
(2) بعض الآية ١٩ من سورة الكهف .
(3) الآية ١١٢ من سورة المؤمنون .
(4) بعض الآية ٢١١ من سورة البقرة .
(5) فدعاء : معوجة اليدين من العمل . العشار : جمع عشراء ، كنفساء وزناً ومعنى .

وأما « أيْنَ » فللسؤال عن المكان ، إذا قيل : أيْنَ زيدٌ ؟ فجوابه : في الدار ، أو في المسجد أو في السوق ، ونحوُ ذلك .

وأما « أنَّى » فتُستَعْمَلُ تارةً بمعنى « كيف » قال الله تعالى : « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئْتُمْ » [1] أي : كَيْفَ شِئْتُمْ ، وأخرى بمعنى « مِنْ أيْنَ » قال الله تعالى : « أنَّى لَكِ هَذَا ؟» [2] أي : مِنْ أيْنَ لَكِ ؟ .

وأما « مَتَى » و « أيَّانَ » فللسؤال عن الزمان ، إذا قيل : متى جئتَ ؟ أو : أيَّانَ جئتَ ؟ قيل : يومَ الجمعةِ ، أو يومَ الخميس ، أو شهرَ كذا ، أو سنةَ كذا ، وعن عليٍّ بن عيسَى الرَّبَعِيِّ : أن « أيَّانَ » تُستَعْمَلُ في مواضع التفخيم كقوله تعالى : « يَسْأَلُ أيَّانَ يومُ القيامةِ » [3] « يَسْأَلُونَ أيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ » [4] .

ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تُستَعْمَلُ في معانٍ غير الاستفهام بَحسبَ ما يُناسب المقَامَ .

منها : الاستبطاء ، نحو : كَمْ دعوتُك ؟ وعليه قولهُ تعالى : « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ » [5] .

ومنها : التعجُّبُ ، نحو قوله « مَالِيَ لا أرَى الهُدْهُدَ » [6] .

ومنها : التنبيهُ على الضلال ، نحو : « فَأيْنَ تَذْهَبُونَ » [7] .

---

(١) بعض الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٣٧ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٦ من سورة القيامة .
(٤) الآية ١٢ من سورة الذاريات .
(٥) بعض الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٦) بعض الآية ٢٠ من سورة النمل .
(٧) الآية ٢٦ من سورة التكوير .

ومنها : الوعيدُ ، كقولك لِمَنْ يُسِيءُ الأدبَ : أَلَمْ أُؤَدِّبْ فُلاناً ؟ إذا كان عالماً بذلك ، وعليه قولُه تعالى : « أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ؟ »[1] .

ومنها : الأمرُ ، نحو قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »[2] ونحو : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »[3] .

ومنها : التقريرُ ، ويُشْتَرَطُ في الهمزةِ أن يَلِيَهَا المُقَرَّرُ بِهِ ، كقولك : أفعلتَ ؟ إذا أردتَ أن تُقَرِّرَهُ بأنّ الفعل كان منه ؛ وكقولك : أأنتَ فعلتَ ؟ إذا أردتَ أن تقرِّرَهُ بأنه الفاعل .

وذهب الشيخ عبدُ القاهر والسكَّاكيُّ وغيرُهما إلى أن قوله : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ »[4] من هذا الضرب ، قال الشيخ : لَمْ يقولوا ذلك له ــ عليه السلام ــ وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأن كسرَ الأصنام قد كان ، ولَكِنْ أن يُقِرَّ بأنه منه كان ، وكيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا »[4] وقال عليه السلام : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا »[5] ولو كان التقرير بالفعل في قولهم : « أَأَنْتَ فَعَلْتَ » لكان الجواب : « فعلتُ ، أو لم أفعل » .

وفيه نظرٌ ؛ لجواز أن تكون الهمزة فيه على أصلها ؛ إذ ليس في السِّياقِ ما يَدُلُّ على أنهم كانوا عالمين بأنه ــ عليه السلام ــ هو الذي كَسَرَ الأصنام .

وكقولك : « أزيداً ضربتَ » إذا أردتَ أن تُقَرِّرَهُ بأنّ مَضْروبَهَ زيدٌ .

---

(١) الآية ١٦ من سورة المرسلات .
(٢) بعض الآية ١٤ من سورة هود ، أو الآية ١٠٨ من سورة الأنبياء .
(٣) بعض الآية ٤٠ من سورة القمر .
(٤) بعض الآية ٦٢ من سورة الأنبياء .
(٥) بعض الآية ٦٣ من سورة الأنبياء .

ومنها الإنكار : إما للتوبيخ ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ، نحو أعصيت ربك ؟ أو بمعنى لا ينبغي أن يكون ، كقولك للرجل يُضَيِّعُ الحقَّ : أتنسى قديمَ إحسانِ فلانٍ ؟ وكقولك للرجل يركب الخطَر : أتخرج في هذا الوقت ؟ أتذهبُ في غير الطريق ؟ والغرضُ بذلك تنبيهُ السامعِ حتى يَرْجِعَ إلى نفسه ، فيَخْجَلَ أو يَرْتَدِعَ عن فِعل ما هَمَّ به .

وإما للتكذيب [1] بمعنى « لَمْ يَكُنْ » كقوله تعالى : « أفأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ واتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إنَاثاً ؟ » [2] ، وقوله : « أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ » [3] أو بمعنى « لا يكون » نحو : « أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ » [4] وعليه قولُ امْرِىءِ القَيْسِ :

أيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي
ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوال ؟ ! [5]

فيمن روى : « أيقتلني ؟ » بالاستفهام ، وقولُ الآخَرِ :

---

(١) عطف على قوله « إما للتوبيخ » في قوله ومنها الإنكار إما للتوبيخ .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الصافات .

(٤) بعض الآية ٢٨ من سورة هود .

(٥) المشرفي : السيف : منسوباً إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب ، ومضاجعي : ملازمي ، عن طريق التجوز ، والمسنونة : المشحوذة المحددة ، والزرق : جمع أزرق وزرقاء ، وتوصف النصال ونحوها بالزرقة إذا اشتد صفاء لونها ، وإنما يشتد صفاؤها لشدة صقلها ، والأغوال : جمع الغول ، ومن معانيه : كل ما يتلون ويتشكل من الجن ..

أَأَتْرُكُ إنْ قَلَّتْ دراهِمُ خَالِدٍ

زِيارَتَهُ ؟! إنّي إذاً لَلَئِيمُ [1]

والإنكار كالتقرير ، يُشْتَرَطُ أنْ يَلِيَ المُنْكَرُ الهمزةَ ؛ كقوله تعالى : « أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ؟ » [2] « أغَيْرَ اللهِ أتَّخِذُ وَلِيّاً ؟ » [3] « أبَشَراً مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ » [4] وكقوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ • أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » [5] أي ليسوا هم المُتَخَيِّرِينَ للنبوة مَنْ يصلُح لها ، المتوَلّين لقِسْمَةِ رحمةِ الله التي لا يتولاّها إلاّ هُوَ بباهر قدرته وبالغ حكمته .

وعدّ الزمخشري قوله « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » [6] وقوله : « أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أوْ تَهْدِي العُمْيَ » [7] مِنْ هذا الضرب ، على أن المعنى : أفأنت تقْدر على إكراههم على الإيمان ؟ أو أفأنت تقدر على هدايتهم على سبيل القسر والإلجاء ؟ أي : إنما يقدرُ على ذلك الله ، لا أنتَ .

---

(١) « إن » يجوز أن تكون همزتها مفتوحة . على انها المصدرية ، ملاحظاً قبلها لام التعليل ، والمصدر المسبوك منها ومن الفعل بعدها علة لترك المنكر بالهمزة . ويجوز أن تكون مكسورة ، على أنها شرطية ، وجوابها فعل الترك المنكر بالهمزة ، وخالد : هو ابن يزيد بن مزيد الشيباني ، يمدحه عمارة بن عقيل بن جرير الشاعر ويذم تميم بن خزيمة النهشلي ، بقصيدة منها هذا البيت .

(٢) بعض الآية ٤٠ من سورة الأنعام .

(٣) بعض الآية ١٤ من سورة الأنعام .

(٤) بعض الآية ٢٤ من سورة القمر .

(٥) الآية ٣١ وبعض الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٦) بعض الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٧) بعض الآية ٤٠ من سورة الزخرف .

وحَمَلَ السكاكي تقديمَ الاسم في هذه الآيات الثلاث على البناء على الابتداء دون تقدير التقديم والتأخير ، كما مَرَّ في نحو : أنا ضربتُ فلا يفيد إلا تَقَوِّيَ الإنكار .

ومِنْ مَجِيءِ الهمزة للإنكار نحوُ قوله تعالى : « أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ » [1] وقولُ جَرِيرٍ :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ ركِبَ المطَايا
وأنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راح [2]

أي : الله كافٍ عبدَه ، وأنتم خيرُ من ركبَ المطايا ؛ لأنَّ نَفْيَ النفي إثباتٌ ، وهذا مرادُ مَنْ قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أي للتقرير بما دخله النفي ، لا التقرير بالانتفاء .

وإنكارُ الفعل مُخْتَصٌّ بصورة أخرى ، وهي نحوُ قولك : أزيداً ضربتَ أم عَمْراً ؟ لمن يدَّعي أنه ضرب إمَّا زيداً وإمَّا عَمْراً ، دون غيرهما ؛ لأنه إذا لم يتعلَّق الفعلُ بأحدهما ، والتقدير أنه لم يتعلق بغيرهما ؛ فقد انتفى من أصله لا مَحَالَة .

وعليه قوله تعالى : « قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ؟ » أُخْرِجَ اللفظُ مُخْرَجه

---

(1) بعض الآية ٣٦ من سورة الزمر .

(2) المطايا : الركائب ، واحدتها مطية على ون فعلية ، واندى : اكرم ، من الندى ، وهو الكرم ، والراح هنا : الأكف ، واحدتها راحة ، والأكف : جمع كف ، وجرير : ابن عطية بن الخطفي التميمي قريع الفرزدق ومهاجيه ومناقضه في النقائض المشهورة .

(3) بعض الآية ١٤٣ من سورة الانعام .

إذ كان قد ثبت تحريمٌ في أحد الأشياء ، ثم أريدَ معرفةُ عَيْنِ المُحَرَّم ، مع أنّ المراد إنكارُ التحريم من أصله .

وكذا قوله : « اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ » إذْ معلومٌ أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذْنٌ فيما قالوه ، من غير أن يكون هذا الإذْنُ قد كان من غير الله ، فأضافوه إلى الله ، إلا أن اللفظ أُخْرِجَ مُخْرَجَه إذا كان الأمرُ كذلك ؛ ليكون أشدَّ لنفي ذلك وإبطالِه ؛ فإنه إذا نُفِيَ الفعلُ عما جُعِلَ فاعلاً له في الكلام ولا فاعلَ له غيره ، لزم نفيُه من أصله .

قال السكاكي رحمه الله : وإياكَ أن يزول عن خاطرك التفصيل الذي سبق في نحو : أنا ضربتُ ، وأنتَ ضربتَ ، وهو ضربَ ؛ من احتمال الابتداء ، واحتمال التقديم ، وتفاوُتِ المعنى في الوجهين ؛ فلا تحمل نحو قوله تعالى : « اللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ » على التقديم ؛ فليس المراد أنّ الإذْنَ يُنْكَر من الله دون غيره ، ولكنْ احتمله على الابتداء ، مراداً منه تَقْوِيَةُ حُكم الإنكار .

وفيهِ نظر ؛ لأنه إن أراد أن نحو هذا التركيب — أعني ما يكون الاسم الذي يلي الهمزة فيه مظهراً — لا يفيد توجُّه الإنكار إلى كونه فاعلاً للفعل الذي بعده ، فهو ممنوع ، وإن أراد أنه يفيد ذلك إن قُدِّرَ تقديم وتأخير وإلاّ فلا — على ما ذهب إليه فيما سبق — فهذه الصورة مما مَنَعَ هو ذلك فيه على ما تقدم .

لا يقال : قد يلي الهمزةَ غيرُ المُنْكر في غير ما ذكرتم ، كما في قوله :

---

(١) بعض الآية ٥٩ من سورة يونس .
(٢) انظر شرح الشاهد ١٣١ .

« أيقتلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي ؟ ! » [1]

فإن معناه أنه ليس بالذي يجيء منه أن يقتل مثلي ؛ بدليل قوله :

يَغِطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُه
لِيَقْتُلَنِي ، والمرءُ ليسَ بِقتَّالِ [2]

لأنا نقول : ليس ذلك معناه ، لأنه قال : والمشرفي مضاجعي ، فذكر ما يكون مَنْعاً من الفعل ، والمنع إنما يُحتاج إليه مع من يُتَصَوَّر صدور الفعل منه دون من يكون في نفسه عاجزاً عنه .

ومنها : التهكم ؛ نحو : « أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في أَمْوالِنَا مَا نَشَاءُ » [3] .

ومنها : التحقير ، كقولك : من هذا ؟ وما هذا ؟ .

ومنها : التهويل ، كقراءة ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : « وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ مَنْ فِرْعَوْنَ ؟ » [4] بلفظ الاستفهام ، لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى العذاب بأنه مهينٌ لشدته وفظاعة شأنه ؛ أراد أن يصوِّر كُنْهَهُ ، فقال « مَنْ فِرْعَوْنَ » أي : أتعرفون مَنْ هو في فَرْط عُتُوِّه وتَجَبُّره ؟ ما ظنُّكم بعذاب يكون هو المعذَّب به ؟ ثم عرَّف حاله بقوله « إِنَّهُ كَانَ عالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ » [5] .

ومنها : الاستبعاد نحو : « أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ ، مَجْنُونٌ ؟ » [6] .

ومنها : التوبيخ والتعجيب .. [7]

---

(1) انظر شرح الشاهد ٢٢٨ .
(2) غط النائم : نخر في نومه ، وغط البعير : هدر في شقشقته ، والبكر : الفتى من الإبل ، والخناق : ما يخنق به من حبل ونحوه .
(3) بعض الآية ٨٧ من سورة هود .
(4) الآية ٣٠ وبعض الآية ٣١ من سورة الدخان .
(5) بعض الآية ٣٠ من سورة الدخان .
(6) الآيتان ١٣ ــ ١٤ من سورة الدخان .
(7) انظر عبارته المنقولة إلى فاتحة البحث ص ١٤٦ .

اســلوب الأمــر

إنما أمــرُه :

إذا أراد شيئاً ،

أن يقول له :

كــنْ ...

فيكون ..

فسبحانَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ
وإليه تُرجعون ...

(يس : ٨٢ ـ ٨٣)

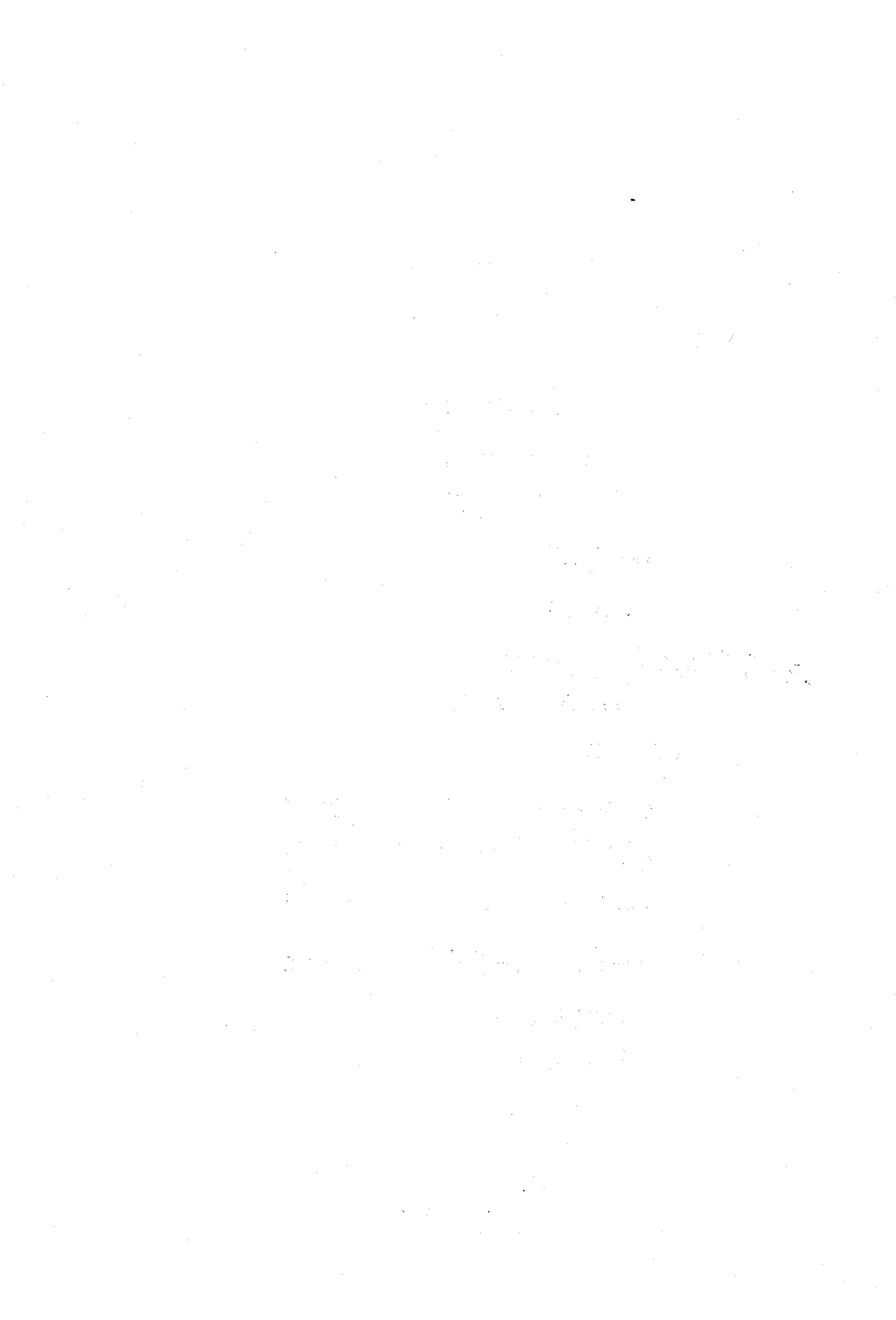
فانفــخ البوقَ وارتحــقْ برحيــقي

وامــلأِ الكــونَ بالشذى يا صديقي

إنَّ داوودَ للرَّشــادِ وخُضــراً

يا شــعبيُّ فاختَتِــمْ بالرَّفيــقِ

(١٩٨٧/٩/٤)
(١٤٠٨/١/١٠)



- ١ -

الأسلوبُ الأمريُّ : حالةٌ ثالثةٌ من حالاتِ التصريفِ الفعليِّ نقول : أمَرَ ، يأمرُ ، مُرْ .. ونقول : قرأ ، يقرأ ، إقرأ ...

ومن هذه الصيغة : بُدِئَتْ الرسالةُ الخاتِمة ، وبها خُتِمَتْ ، والملاحظون المتأنون يدركون بلاغة « الأمر » وطاقته الإبلاغية ، فقد افتتحت سورة « العلق » بقوله تعالى : « اقرأ باسمِ ربِّكَ ... » وختمت سورة النصر ، بقوله تعالى : « فسبِّح بحمدِ ربِّكَ .. واستغفره ، إنَّه كان توّاباً » .. وبين السورتين : اثنتا عشرة ومئة سورة ، واستقراءُ الأمر فيها : يمنح فرصةً لتذوق الإنشاء الطلبي بهذا الأسلوب ، الذي قال به القزويني في « إيضاحه » :

- ٢ -

ومن أنواع الإنشاء الأمرُ والأظهر أن صيغته - من المُقْتَرِنَةِ باللام نحو : ليحضر زيدٌ ، وغَيْرِها نحو : أكرم عمراً ، ورُوَيْدَ[1] بَكْراً - مَوْضوعةٌ لطلب الفعل استعلاءً ، لتبادُرِ الذهن عند سماعها إلى ذلك ، وتوقف ما سواه على القرينة .

قال السكّاكيُّ : ولإطباق أئمة اللغة على إضافتها إلى الأمر بقولهم : صيغةُ الأمر ، ومثال الأمر ، ولام الأمر ، وفيه نظرٌ لا يخفى على المتأمل .

ثم إنها - أعني صيغةَ الأمر - قد تُسْتَعمَل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام : كالإباحة ، كقولك في مقام الإذْن : جالس الحَسَنَ أو ابنَ سِيرِينَ .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة البقرة .
(٢) بعض الآية ٤٤ من سورة البقرة .
(٣) رويد : اسم فعل بمعنى أمهل .

ومن أحْسَنِ ما جاء فيه قولُ كُثَيِّرٍ :

أسيئي بنا أو احْسِني ، لا ملومةٌ
لَدَيْنا ، ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ [1]

أي : لا أنتِ مَلُومَةٌ ولا مَقْلِيَّةٌ .

ووجهُ حسنِهِ إظهارُ الرِّضا بوقوع الداخل تحت لفظِ الأمر حتى كأنه مطلوبٌ أي : مهما اخْتَرْتِ في حقِّي من الإساءة والإحسان ، فأنا راضٍ به غايةَ الرِّضا ، فعامليني بهما ، وانظري : هل تتفاوت حالي معك في الحالين ؟ .

والتهديد ، كقولك لعبد شتم مولاه وقد أدَّبه : اشتُم مَوْلاك ، وعليه : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » [2] .

والتعجيز ، كقولك لمن يدَّعي أمراً تعتقد أنه ليس في وُسْعِهِ : افْعَلْه ، وعليه : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » [3] .

والتسخير ، نحو : « كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ » [4] .

والإهانة ، نحو : « كُونُوا حِجَارَةً أوْ حَدِيداً » [5] وقوله تعالى : « ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ » [6] .

---

(1) مقلية : بغيضة مكروهة ، تقلت : تكرهت وتبغضت ، وفي البيت التفات عن طريق الخطاب الى طريق الغيبة ، حسنه ابتعاد الشاعر عن أن يسند الى حبيبته في خطابها فعلا يبغضه ويكرهه ، وصاحب البيت هو كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ .
(2) بعض الآية ٤٠ من سورة فصلت .
(3) بعض الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(4) بعض الآية ١٦٦ من سورة الأعراف ، خاسئين : مبعدين مطرودين لا يسمح لكم بالقرب من الناس .
(5) بعض الآية ٥٠ من سورة الإسراء .
(6) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

والتسوية ، كقوله : « أنْفِقُوا طَوْعاً أوْ كَرْهاً ، لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ » [1] وقوله « اصْبِرُوا أوْ لا تَصْبِرُوا » [2] .

والتمنّي ، كقول امرئِ القَيْسِ :

ألا أيُّها الليْلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِي [3] .

والدعاء ، إذا استُعْمِلَتْ [4] في طلب الفعل على سبيل التضرُّع ، نحو « رَبِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ » [5] .

والالتماس ، إذا استُعْمِلَتْ فيه [6] على سبيل التلطُّف ، كقولك لمن يُساوِيك في الرتبة : « افْعَلْ » [7] بدون الاستعلاء .

والاحتقار ، نحو : « ألْقُوا مَا أنْتُمْ مُلْقُونَ » [8] .

ثم الأمر ، قال السكاكي : حقُّه الفور ؛ لأنه الظاهرُ من الطلب ، ولتبادُرِ الفهمِ عندَ الأمرِ بشيء بعدَ الأمرِ بخلافه إلى تغييرِ الأمرِ الأوَّل دونَ الجمع وإرادةِ التَّراخِي ، والحقُّ خلافُه لما تبيَّن في أصولِ الفِقْه .

---

(١) الآيــة ٥٣ من سورة التوبــة .
(٢) الآيــة ١٦ من سورة الطــور .
(٣) . بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل .
انجل : كيف أيها الصبح ، وقد يوصل باللام ياء في الرسم فتكون حينئذ ياء إشباع للكسرة ، أما الياء التي هي لال الفعل فمحذوفة لبناء الأمر كما هو ملعوم.
الإصباح : طلوع الصبح ، أمثل : أفضل .
(٤) نائب الفاعل عن ضمير يعود على « صيغة » السابقة ؛ أي صيغة الأمر .
(٥) بعض الآيــة ٢٨ من سورة نوح .
(٦) الضمير المجرور يعود إلى طلب « الفعل » .
(٧) ليس المراد ذات « افعل » وإنما المراد كل ما تصوغه على صيغة الأمر مما تشاء من المواد ثلاثية كانت أو مزيدة .
(٨) بعض الآيــة ٨٠ من سورة يونس ، أو ٤٣ من سورة الشعراء .

- ٣ -

تستوقف العبارة الإيضاحية : « إن صيغة الأمر : تُستعمل في غير طلبِ الفعلِ بحسب مناسبة المقام » ..

مناسبة المقام المشار إليها قد تكون بسبعة عشر مناسبة تتفرّع عن المعنى الأصلي وتتجاوزه ، وهي :

١ – الدعاء ، ربّنا فاغفرْ لنا ..

٢ – الالتماس ، وارفعيني إلى سمائك ..

٣ – التمنّي ، ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازل ..

٤ – النصح والإرشاد ، فانظر فيما فسرتُ لك ..

٥ – التخيير ، فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك ..

٦ – الإباحة ، فقل ما شئتَ فيَّ فلي لسانٌ
ملِيءٌ بالثناء عليكَ رطبُ ..

٧ – التعجيز ، فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان ..

٨ – التهديد ، فاصنع ما تشاءُ ..

٩ – التسوية ، اصبروا أو لا تصبروا ..

١٠ – الإهانة والتحقير ، ذقْ إنكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ ..

١١ – التسخير ، أو التكوين ، كونوا قِرَدَةً خاسئين ..

١٢ – التلهيف أو التحسّر ، موتوا من الغيظ غماً في جزيرتكم ..

١٣ – التعجب ، أسْمِعْ بهم وأبصرْ .. وأحببْ بأيامه ...

١٤ – الندب الذي يسرح المخاطب ، فانتشروا في الأرض ..

١٥ – التسليم ؛ فاقضِ ما أنتَ قاض ••

١٦ – الوجوب ؛ أقيموا الصلاة ، ••

١٧ – الخبر ؛ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً •••

أما معناه الأصلي الأم : فطلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ؛ بصيغة فعل الأمر : اسمعني •• أو المضارع المقرون باللام : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ •• أو اسم فعل الأمر : عليكم أنفسكم ، أي الزموها •• أو المصدر النائب عن فعله : وبالوالدين إحساناً ؛ أي أحسنوا أحسانا ••

هذه بُنى الأمر فما هي نوايا المعنى فيها لإنشاء مطالب إبداعه ؟

أسلوب النّهي

وقلنا : يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ
الجنةَ ، وكُلا منها رغَداً حيث شئتما ،
ولا تقربا هـذه الشجرةَ ،
فتكونا من الظالمين ،

(البقرة : ٣٥)

فلا يَحزُنْكَ قولُهم ،
إنّا نعلَمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلِنونَ ...

(يس : ٧٥)

فـلا تَعْجَبْ .. مُدَسّاةُ النفوسِ
يُسوّي جهلُها لَيْثاً بتَيْسِ
ومُرّ أمرَ الهُدى .. عميَتْ ثمودُ
يُدمدِمُ ربُّهم بقُوى الأنيسِ

(١٤٠٨/١/١٠ = ١٩٨٧/٩/٤)



- ١ -

النهيُ : وجهُ الأمر الآخر ؛ فالأمر : أسلوبٌ لإنشاءِ فعلٍ ؛ والنهي : أسلوبٌ للكفِّ عن الفعل ، أو الامتناع عنه .. فهو أمرٌ ناهٍ على سبيل الاستعلاء والإلزام ؛ وتظهر ألوان المعنى جليــة في الاستعمال ؛ كما في قوله تعــالى : « فلا تكونَنَّ من الجاهلين » .. هذا نهيٌ : يلزم بالحذر من الجهل بأية صورة ؛ لكن هذا النهي جاء في بنيةٍ لفظية متكاملة ؛ « وإنْ كان كبُرَ عليكَ إعراضُهم فإن استطعتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرض ، أو سلّماً في السماء ؛ فتأتيَهم بآيةٍ ؛ ولو شاء الله لجعلهم على الهدى : فلا تكونَنَّ ... »

هذه الآية الخامسة والثلاثون من الأنعام : توضح صبغة المعنى الناهية ..

- ٢ -

ومنها النَّهْيُ ، وله حَرْفٌ واحــدٌ ، وهو « لا » الجازمةُ في قولك « لا تَفْعَلْ » [١] وهو كالأمر في الاستعلاء .

وقد يُسْتَعْمَلُ في غير طلب الكَفِّ أو التَّرْكِ ، كالتهديد ، كقولك لعبدٍ لا يَمْتَثِلُ أمْرَكَ : لا تَمتثِلْ أمري .

واعلم أن هذه الأربعة – أعني التمنّي ، والاستفهامَ ، والأمر ، والنَّهْيَ – تشترك في كونها قَرِينَةً دالّةً على تقدير الشَّرْطِ بعدَها ، كقولك : ليت لي مالاً أنْفِقْهُ ، أي : إن أرْزَقْه ، وقولك : أيــنَ بيتُكَ أزُرْكَ ، أي : إن تُعرِّفْنيه ، وقولك : أكرِمْني أُكْرِمْك ، أي إن تُكرِمْني .

قال الله تعالى : « فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثْنِي » [٢] بالجزم ،

---

(١) ليس القصد إلى لفظ « تفعل » بذاته ، بل إلى كل فعل مضارع وقع بعد « لا » الناهية أياً كانت مادته . وأياً كانت صيغته .

(٢) بعض الآية ٥ من سورة مريم . الولي : من معانيه من يلي المرء من ذريته ويخلفه.

فأما قراءة الرفع فقد حملها الزَمَخْشَرِيُّ على الوصف ، وقال السكاكي الأولَى حملُها على الاستئناف دون الوصف ؛ لهَلاكِ يَحْيَى قبل زَكَرِيَّا عليهما السلام ، وأراد بالاستئناف أن يكون جوابَ سؤالٍ مُقَدَّرٍ تضمنَّه ما قبله ، فكأنه لما قال : فَهَبْ لي ولياً ، قيل : ما تصنع به ؟ فقال : « يرثني »فلم يكن داخلاً في المطلوب بالدعاء وقولك : لا تَشْتُمْ يَكُنْ خيراً لك ، أي : إنْ لا تشتم .

وأمَّا العَرْضُ ، كقولك لمن تراه لا ينزل « ألا تَنْزِلْ تُصِبْ خيراً » ، أي : إن تَنْزِل ؛ فمُوَلَّدٌ من الاستفهام ، وليس به ؛ لأن التقدير أنه لا ينزل ، فالاستفهام على عدم النزول طلب للحاصل ، وهو محال .

وتقدير الشرط في غير هذه المواضع لقرينةٍ جائزٌ أيضاً ، كقوله تعالى : « فَاللهُ هُوَ الوَلِيُّ » [1] أي : إن أرادوا ولياً بالحق فالله هو الوَلِيُّ بالحق لا وَلِيَّ سواه . وقوله : « ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ » [2] . أي : لو كان معه إلهٌ اذن لذهب .

- ٣ -

المعنى الحقيقي في أسلوب النهي ، كما في أسلوب الأمر ، وكما في أساليب الإنشاء الطلبي ، جميعاً : مركز تنطلق منه فروع ، يُسمونها : « خروج عنه ، أي عن المعنى الحقيقي » ؛ وهي ، عندنا : توكيد لطاقته الإنشائية ، التي تتفتح في أساليب تنوّع معنى النهي وتظهر مدوده في مثل : الدعاء ، « ربنا لا تؤاخذنا ».. أو الالتماس : « يا ابن امِّي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » .. أو التمنِّي : « أعينيَّ جودا ولا تجمدا » .. أو النصح والإرشاد : « فلا تقنع بما دون

---

(١) بعض الآية ٩ من سورة الشورى . الولي : من معانيه النصير .
(٢) بعض الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

النجوم » •• أو التوبيخ : « لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله » •• أو التحقـير :
« دعِ المكارم لا ترحـل لبغيتها » •• أو التيئيس :

لا تطلبنَّ كريمـاً بعـد رؤيته
إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا ••

صور المعنى هذه : تفتحات بأسلوبيات جديدة لبذرته الأصلية وهيئته الأم ؛ فهي بهيئة النهي لمقاصد معنوية اقتضاها السياق ؛ من أقصى الترغيب إلى أقصى الترهيب ؛ فلا تقنع بما دون النجوم •• ولا تقـلع عن عنادك •• يريـد ترغيبه ثم تهـديده •• أليس النهي وجهاً للأمر ؟ ! !



اسلوب النداء

ونادى نوحٌ ابنَهُ ، وكان في مَعْزِلٍ :

يا بُنَيَّ اركبْ معنا ؛

ولا تكنْ من الكافرين ..

ونادى نوحٌ ربَّه ؛ فقال :

ربِّ إنَّ ابني مِنْ أهلي ؛

وإنَّ وعْدَكَ الحقُّ ؛

وأنتَ أحكمُ الحاكمين ..

قيلَ : يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ مِنَّا

وبركاتٍ عليكَ ، وعلى

أُمَمٍ ممَّنْ معكَ ...

وأمَمٌ سنمتِّعُهم

ثم يمسُّهمْ منَّا عذابٌ أليم ..

(هود : ٤٢ ـ ٤٨)

أسلوبُ النداء : خامس أبوابِ الإنشاء الطلبيّ ، كما رتبها قدامى الباحثين في « علم المعاني » •• وقد رتبت تناول الأبواب الخمسة : وفق ما في الكتاب القديم ؛ مختصر القزويني ؛ الإيضاح ؛ ثم مفتاح العلوم ، الذي هو أصل الكتابين السابقين •• لكنني آثرت ترتيباً آخرَ ، يجعَلُ النـداء أسلوباً تأسيسياً لقانون الطلب ؛ لأنـه بطبيعته : يفترض الإقبالَ المتبادل بـين المنادي والمنادى ، على مستويات مختلفة ، قد تكون من مستوى طفل ، كما لاحظنا في الباب الأول من « رسالة النداء » •• وقد تكون من مستوى مناجاة الإلـه الأحد ، كما لاحظنا في الباب الثاني من الرسالة المذكورة •• ومن أعـذبِ النداءاتِ المقترحة بغـاية الإقبال : نـداءُ مَن وُصفَ بأنه « زين العابدين » (ع) ••والعبادة سِمَةُ الغايةِ من إيجادِ العالمين ، كما في عبارة الوحي : « وما خلقتُ الإنسَ والجِنّ إلاّ ليعبدون » ••

عبـارة زين العابدين الإقبالية :

« يا مَن حـازَ كلّ شـيءٍ ملكوتاً
يا مَن قهـرَ كلّ شـيءٍ جبروتاً ••
أوْلِجْ قلبي فـرحَ الإقبالِ عليك
وأدخلني بميـدانِ المطيعين لك » ••

صورة النـداء ، هنا : تقرر ما تعارف عليه مُعرّفو النـداء ، القائلون « هــو أسلوب يطلب المنادي فيه إقبـال المنادى عليه ، بعـد تنبيهه بأسلوبية النـداء » •••

وصورة إخراجنا : وحّدت بـين ما كان عليه الترتيب ؛ تمنّي ، استفهام ، أمر ، نهي ، نـداء ••• وبين ما أراه : نداءً ، فاستفهاماً ، فأمراً ، فنهياً ، فتمنيا ••

وهذه النية التوحيدية : حملتني إلى وضع « رسالة النداء » فاتحةً لمعالجة أبواب الإنشاء الطلبيِّ •• ثم إلى وضع الأساليب الخمسة ، وفق ترتيبها القديم ••

ولتكون وجهتنا محققة منهجيتها التي اتبعت : تركت للقارىء حرية الإنشاء وهو يقرأ ، كأن يبدأ بقراءة : « أسلوب النداء » ، كما هو هنا ؛ ثمَّ يعود إلى « رسالة النداء » ؛ ثمَّ يتأمَّل في النصوص المختارة من معالجات النداء ، في : علمي المعـاني والنحو ••

بعـد هـذه القراءة : يستطيع إنشاء الأساليب الأخرى ، بهـذا الترتيب الذي رأينـاه ••

ويُساعد على تحقيق هذه القراءة الإنشائية ، وفق منهج مقترح : أن كلَّ أسلوبٍ عُولجَ مستقلاً ؛ له مقدمته وتطويره وخاتمته ؛ ويمكن أن يكون كتاباً مستقلاً : كما أرينا هذا الإمكان بالمثال المقدَّم في « رسالة النداء » •••

ومقدمة الإنشاء : مرنة ؛ ومرونتُها : غاية من غاياتنا في « التربية النقدية والبلاغة الممارسة » •• وقد ختمت بالسؤال المثير : « كيف نرى أصالة الإنشاء في حداثة فروعه الطلبية وغـير الطلبية ؟ » •••

هل نذكر معاني الإنشاء الثمانية ؟

هل ظهرت لنا في وحدة الأصل والفروع مع رسالة النـداء ؟

هل نقـرأ أسلوب النـداء مع رسالته مـرة أخرى ؟

- ١ -

ختم القزويني أبوابَ الإنشاء الطلبي : بالنداء ؛ لكنه أوجزه بفقرتين •• فقـال :

ومنها النـداء • وقد تُستَعمَلُ صيغتهُ في غـير معناه ، كالإغـراء في

قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلومُ ؛ والاختصاص في قولهم : أنا أفعلُ كذا أيُّها الرجلُ ، ونحن نفعلُ كذا أيُّها القومُ ، واغْفِرِ اللّهُمَّ لنا أيَّتُها العِصابةُ • أي : مُتَخَصِّصاً من بين الرجال ، ومُتَخَصِّصِينَ من بين الأقوام والعصائب •

ثم الخبرُ يَقَعُ موْقِعَ الإنشاء ، إمَّا للتفاؤل ، أو لإظهار الحرص في وقوعه كما مرَّ ؛ والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين ، أو للاحتراز عن صُورة الأمر • كقَوْلِ العبدِ للمَوْلَى إذا حَوَّل عنه وَجْهَه : ينظر المَوْلى إليَّ ساعةً ؛ أو لحمل المخاطَب على المطلوب ، بأن يكون المخاطب مِمَّن لا يُحِبُّ أن يُكذِّب الطالبُ ، أو لنحو ذلك •

وأكمل ملاحظته فيما يتعلق بتبادل الخبر والإنشاء : بفقرةٍ أخيرةٍ ؛ تعتبر خاتمة أبواب الإنشاءِ الطلبي ؛ فقال منبِّهاً :

« ما ذكرناه في الأبواب الخمسة السابقة ليس كله مُخْتَصاً بالخبر ، بل كثيرٌ منه حكمُ الإنشاء فيه حكمُ الخبر ؛ يظهر ذلك بأدنى تأمُّل ؛ فليعتبره الناظر • »

لقد اعتبرت ملاحظته ، ونظرت في معالجته لبابِ النداء ، كما يسمِّيه ؛ أو أسلوب النداء ، كما نقول •• فلم أقتنع بما جاء في تصديره لكتاب الإيضاح ؛ لأن أسلوب النداء : مظلوم ؛ ولأنَّ القزويني : قاضٍ ؛ رأيتُ أن أرفع لأسلوب النداءِ : تظلُّماً ، أطالبُ فيه بإنصافه •• وأضربُ مثلاً في إحياءِ مسائل التراث : التي وأدها الكسل •• أو بوَّرها التعود والاقتناع بمثل مقولة « ليس في الإمكان أحسن ممَّا كان » •••

- ٢ -

ما نحن به الآن : ليس منزلة الشيخ القزويني •• وليس مذهبه •• وليس كتاب « الإيضاح » أو « التلخيص » •• أو المؤلفات التي جعلته « العالم العلاَّمة المهيمن ببحوثه على بلاغات المدارس والجامعات » ••فهذه أمور : سلَّم بها

المسلمون ، كما تفهم من الدكتور عبد المنعم خفاجي في مقدمة تحقيقه لكتاب الإيضاح •• وقضيتنا المعروضة للقضاء ، هي : النداء ؛ يقول القاضي القزويني :

« فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ؛ ترجمته : بالإيضاح ؛ وجعلته على ترتيب « مختصري » ، الذي سميته : « تلخيص المفتاح » •• وبسطت فيه القول : ليكون كالشرح له ؛ فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيه المجملة ••• وعمدت إلى ما خلا عنه « المختصر » ، مما تضمنه « مفتاح العلوم » •• وإلى ما خلا عنه « المفتاح » من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – في كتابيه : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » •• وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما : فاستخرجت زبدة ذلك كله ؛ وهذبتها ؛ ورتبتها ؛ حتى استقرّ كلّ شيءٍ في محلّه •• وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري ، ولم أجده لغيري ؛ فجاء ، بحمد الله ، جامعاً لأشتات هـذا العلم » •• (ص : ٧٠ – ٧١) ••

إن هذا القول : يقدّم ضماناتٍ مقنعة بما يقول من عرّف بأول كتابه بألقاب ضخمة ؛ فهو : « العالم العلامة ، خطيب الخطباء •• ابن قاضي القضاة •• متّع الله المسلمين بمحيّاه ، وأحسن عقباه » •• (٧٠)

نحن نقول : آمين •• ويسعدنا أن يكون منا صاحب هذه الألقاب الأخاذة •• لكننا نحبّ متابعة قضية النداء بمنهجية ، ذات وثائق : تمنح الثقة بما يقال ، والاقتناع بالثمار الدالة على طيب الشجرة ••

لفهم هـذه المسألة : لا بـد من السعي ، خطوةً خطوة ؛ فالقاضي يقول ما معناه :

أ – إنّ ما جاء في « الإيضاح » كالشرح لما جاء في « المختصر » ••

ب – إن « الإيضاح » استكمل البحث من « مفتاح العلوم » ••

جـ – إنه أخـذ المكملات من « الجرجاني » •• وغيره ••

د - إنه أضاف ما ليس عندهم ، كما بدا له ..

هـ - مسائل الإيضاح : زبدة ذلك وجامع أشتاته ..

نحقق هذه المعطيات بالنسبة لقضيَّة النداء ، فهل يحقق نصُّ الإيضاح ، الذي صدَّرنا به كلامنا : ما أكده لنا كلام صاحبه ؛

والسؤال الأول : هل شرح عبارة « المختصر » ؛ فأوضحَ مواضعَها المشكلة ، وفصَّلَ معانيها المجملة ؟

الجواب في عبارة المختصر المتعلقة بالنداء ، فماذا قال فيها ؟ ..

- ٣ -

يقول في التلخيص ، شارحاً أبواب الإنشاء الطلبي :

« ومِنْها النِّداءُ ، وقَدْ تُسْتَعمَلُ صِيغَتُهُ في غيْرِ مَعْناهُ ، كالإغْراءِ في قَوْلِكَ لِمَنْ أقْبَلَ يَتَظَلَّمُ : يَا مَظْلُومُ ؛ والاخْتِصاصُ في قَوْلِهِمْ : أنَا أفْعَلُ كَذَا أيُّها الرَّجُلُ ، أيْ مُتَخَصِّصاً مِنْ بَيْنِ الرِّجَالِ . ثمَّ الخَبَرُ قَدْ يَقَعُ مَوْقِعَ الإنشاء : إمَّا لِلتَّفَاؤُلِ ، أوْ لِإظْهَارِ الحِرْصِ في وُقُوعِهِ ، كمَا مَرَّ ؛ والدُّعَاءُ بِصِيغَةِ المَاضِي مِنَ البَلِيغِ يَحْتَمِلُهُمَا ؛ أو لِلاِحْتِرَازِ عَنْ صُورَةِ الأمْرِ ، أوْ لِحَمْلِ المُخَاطَبِ عَلَى المَطْلُوبِ ، بأنْ يَكُونَ مِمَّنْ لا يُحِبُّ أنْ يُكَذِّبَ الطَّالِبُ .

(تَنْبيه) الإنْشَاءُ كالْخَبَرِ في كَثيرٍ مِمَّا ذُكِرَ في الأبْوَابِ الخَمْسَةِ السَّابِقَةِ ، فَلْيَعْتَبِرْهُ النَّاظِرُ .»

يمكن للقارىء المهتم : أن يفهم مستوى هذا الشرح من المقارنة بين عبارة « التلخيص » ، هذه ، بين عبارة « الإيضاح » ، التي تقدمت ..

والسؤال الثاني : هــل أعطى النــداءَ في « الإيضاح » ما لم يكــن في « المختصر ، أو التلخيص » •• وهل هذا المعطى هو كلّ ما في « مفتاح العلوم ، للسكاكي » ؟

الجواب عند السكاكي في المفتاح ؛ فماذا يقول بأسلوب النــداء ؟

- ٤ -

لقد جعل النداء في باب خامس ، من قسم المعاني في كتابه « مفتاح العلوم » ؛ وهــذه عبارته في هــذا الباب :

« ما يتعلق بالنداء من حروفه وتفصيل الكلام في معانيها : سبق التعرض لذلك في « عــلم النحو » ؛ فلا نتكلم فيه ؛ ولكن ههنا نوع من الكلام صورته صورة النداء وليس بنداء ، فننبه عليه ؛ وتلك الصورة هي قولهم : أما أنا فأفعل كذا أيها الرجل ؛ ونحن نفعل كذا أيها القوم ؛ واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ؛ يراد بهذا النوع من الكلام الاختصاص ؛ على معنى : أنا أفعــل كذا ، متخصصاً بذلك من بــين الرجال ؛ ونحن نفعل كذا متخصصين من بين الأقوام ؛ واللهم اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب • واعلم أن الطلب كثيراً ما يخرج ، لا على مقتضى الظاهــر ؛ وكذلك الخبر فيذكر أحدهما في موضع الآخــر ؛ ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكتٍ ، قلما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا ولا يعض فيه بضرس قاطع ؛ والكلام بذلك متى صادف متممات البلاغــة افترّ لك عن السحر الحلال بما شئتَ ؛ ومن المتممات : ما قد سبق لي : أن نظم الكلام إذا استحسن من بليغ لا يمتنع أن لا يستحسن مثله من غير البليغ وإن اتحد المقام إذ لا شبهة في صحة اختلاف النظم مقبولاً وغير مقبول عند اختلاف المقام فلا بد لحسن الكلام : من انطباق له على ما لأجله يُساق ، ومن صاحب له عراف بجهات الحسن لا يتخطاها ، وإلا لم يمتنع حمل الكلام منه على غيرها ويتعرى عــن الحسن لذهاب كسوته ، ولا بــد مع ذلك من أذن لافتنانات البلاغة مصوغة : فما الآفــة العظمى والبلية الكبرى لتلك الافتنانات إلا من أصمخة هي لغيرها مخلوقة ؛ إذا اتصل بذويها كلام

لا ترى به الدرّ الثمين : مسخه لهم جهلُهم مسخاً يفوقه قيمة المشخلبُ ؛ ولأمر ما تجد القرآن متفاوت القدر ارتفاعاً وانحطاطاً بين العلماء في نوعنا هذا وبين الجهلة ؛ والجهات المحسنة لاستعمال الخبر في موضع الطلب تكثر : تارة تكون قصد التفاؤل بالوقوع كما إذا قيل لك في مقام الدعاء : أعاذك الله من الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، ووفقك للتقوى ؛ ليتفاءل بلفظ المضي على عدّها من الأمور الحاصلة التي حقها الإخبارُ عنها بأفعالٍ ماضية وأنه نوع مستحسن الاعتبار ؛ وقل لي إذا حسن اعتبار ما هو أبعد كإباء الكتاب في حق المخدرات لفظ حراستها وما هو أبعد وأبعد كإباء أهل الظرف إهداء السفرجل إلى الأحبة لاشتمال اسمه إذا سمي بالعربية على حروف سفرجل فما ظنك بالقريب ؟ وهل خلع هارون على كاتبه إذ سأله عن شيء فقال : لا ، وأيد الله ، أمير المؤمنين إلا لأنه لم يسمع ما عليه الأغبياء فيما بينهم من لا أيدك الله بترك الواو ؟ أو غير هارون حين خرج إلى ناحية لمطالعة عمارتها وقد تراءت له في طريقه أشجر من بعيد ، فسأل عنها كاتباً يصحبه ، فقال الكاتب : شجر الوفاق ؛ تفادياً عن لفظ الخلاف ، فكساه ؛ أفترى ذلك لغير ما نحن فيه ؟ أو هل حين غضب الداعي على شاعره أبي مقاتل الضرير حين افتتح :

* موعد أحبابك للفرقة غد * أغضبه شيء غير معنى التفاؤل ، حتى قال له : موعد أحبابك يا أعمى ولك المثل السوء وأمر بإخراجه ؛ ؟ وهل تسمية العرب الفلاة مفازة ، والعطشان ناهلا ، واللديغ سليماً ، وما شاكل ذلك : إلا من باب التفاؤل ؟ فالمفازة هي المنجاة ؛ والناهل هو الريان ؛ والسليم هو ذو السلامة ؛ وتارة لإظهار الحرص في وقوعه ؛ فالطالب متى تبالغ حرصه فيما يطلب : ربما انتقشت في الخيال صورته لكثرة ما يناجي به نفسه ؛ فيخيل إليه غيرُ الحاصل حاصلاً ، حتى إذا حكم الحس بخلافه غلطه تارة واستخرج له محملاً أخرى ؛ وعليه قول شيخ المعرة :

ما سرتُ إلا وطيفٌ منك يصحبُني سرى أمامي وتأويباً على أثري

يقول : لكثرة ما ناجيت نفسي بك انتقشت في خيالي ؛ فأعدك بين يدي مغلطاً للبصر بعلة الظلام إذا لم يدركك ليلاً أمامي وأعدك خلفي إذا لم يتيسّر لي تغليطه

حين لا يدركك بين يديّ نهــاراً ؛ وتارة لقصد الكناية كقول العبد للمولى إذا حوّل عنه الوجه : ينظر المولى إليّ ساعةً ؛ ووجه حسنه إما نفس الكناية إن شئت ، وإما الاحتراز عن صورة الأمر وإما هما ؛ وتارة لحمل المخاطب على المذكور أبلغ حمل بألطف وجــه ؛ كما إذا سمعت من لا تحب أن ينسب إلى الكذب يقول لك تأتيني غــداً أو لا تأتيني ؛ وتارة مناسبات أخر فتأملها ففيها كثرة ؛ وما من آيــة من آي القرآن واردة على هذا الأسلوب إلا مدارها على شيء من هــذه النكت • قال تعالى – وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله – في موضع لا تعبدوا – وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم – في موضع لا تسفكوا – يا أيها الذين آمنوا هــل أدلكم على تجــارة تنجيكم من عذابٍ أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله – في موضع آمنوا وجاهدوا ، فانظر • ومن هذا القبيل قول كل من يقول من البلغاء في الدعاء رحمه الله أو يرحمه ؛ ومن الجهات المحسنة لإيراد الطلب في مقام الخبر : إظهار معنى الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الطلب إظهاراً إلى درجة كأن المرضي مطلوب • قال كثيِّر :

❋ أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ❋ فذكر لفظ الأمر بالإساءة ثم عطف عليه بلفظ أو الأمر بضد الإساءة تنبيهاً بذلك على أن ليس المراد بالأمر الإيجاب المانع عن الترك لكن هو الإباحة التي تنافي تخير المخاطب بين أن يفعل وأن لا يفعل فاعلا كل ذلك لتوخي إظهار مزيد الرضى بأي ما اختارت في حقه من الإساءة أو الإحسان أو توخي إظهار نفي أن يتفاوت جوابه بتفاوته وقوعاً وعدم وقوع ؛ كما يقول : صُمْ أو لا تصُمْ ؛ فإني لا أترك الصيام ، توهم من تخاطب أنك تطلب منه أن يصوم وينظر في حالك أو لا يصوم وينظــر ليتبين ثباتك على الصيام صام هو أو لم يصم ؛ وعليه قوله تعالى – استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم – وكذا قوله – أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يُتقبَّل منكم – وما شاكل ذلك من لطائف الاعتبارات ؛ والأمر في باب التعجب من نحو : أكــرم بزيد ؛ على قول من يقول : انه بمعنى الخبر ، آخــذاً همزته من قبيل ذي كذا جاعلاً الباء زائدة ، مثلها في« كفى بالله »منخرط في هذا السلك، ولهذا النوع أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر أساليب متفننة إذ ما من مقتضى كلام ظاهري

إلا ولهـذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة على ما ننبه على ذلك منـذ اعتنينا بهذه الصناعة ، وترشد إليه تارة بالتصريح وتارات بالفحوى ، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ولا كالأسلوب الحكيم فيها وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ، كما قال :

أتَتْ تشتكي عندي مزاولةَ القِرى وقد رأتِ الضيفانَ يَنحُون منزلي
فقلت كأنّي ما سمعتُ كلامها هم الضيفُ جدّي في قِراهم وعجّلي

أن السائل بغير ما يتطلب ، كما قال تعالى — يسئلونك عن الأهِلّةِ قل هي مواقيت للناس والحج — قالوا في السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يتزايد قليلاً قليلاً حتى يمتلىء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأُجيبوا بما ترى ، وكما قال — يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ؟ — سألوا عن بيان ما ينفقون فأُجيبوا ببيان الصرف ، ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخي التنبيه له بألف وجه على تعدّيه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه ، أو أهمّ له إذا تأمل ، وأن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور ، وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجي وسلّ سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب ، إذ توعده الحجاج بالقيد في قوله : لأحملنَّك على الأدهم ، فقال متغابياً : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، مبرزاً وعيده في معرض الوعد ، متوصلاً أن يريه بألطف وجه أن امرأً مثله في مسند الإمرة المطاعة خليق بأن يصفد لا أن يصفد وأن يعد لا أن يوعد .

وليكن هذا آخر كلامنا الآن في علم المعاني منتقلين عنه الى علم البيان بتوفيق الله وعونه حتى إذا قضينا الوطر من إيرادنا منه لما نحن له استأنفنا الأخذ في التعرض للعلمين لتتميم المراد منهما بحسب المقامات إن شاء الله تعالى » .

- ٥ -

هـذه عبارة السكاكي في النداء ، وقد أخذ منها القزويني : ما رأيناه في إيضاحه ، والمقابلة بين ما قالاه في « الاختصاص .. والدعاء » : سهلة .. لكن ما وراء ذلك : فعبارة المفتاح أغنى وأوفى ، بل ليس في الإيضاح ما فيها ..

ومن جهة أخرى ، فإن صاحب المفتاح : أشار إلى « ما يتعلق بالنداء في حروفه ، وتفصيل الكلام فيها » .. في القسم المخصَّص لعلم النحو من كتابه .. وهذه الإشارة : لم يظهر شيء من تأثيرها في « إيضاح » القاضي القزويني ، أو « تلخيصه » ..

لذلك أرى أن نصغي إلى أستاذ القزويني في هذه المسائل ، أعني السكاكي .. فماذا قال بالنداء ؟

نسمع منه : أنواع الحروف .. والتفصيل بحروف النداء .. يقول ، في قسم النحو :

« وأما النوع الحرفيّ فيعمل الرفع والنصب والجر والجزم ، ولا يترتب الكلام ههنا إلا بتقسيمات وهي أن الحروف ضربان : عاملة ، وغير عاملة . والعاملة ضربان أيضاً : عاملة عملاً واحداً ، وعاملة عملين . والعاملة عملاً واحداً ضربان : عاملة في الأسماء ، وعاملة في الأفعال . والعاملة في الأسماء ضربان : جارّة وناصبة ، والعاملة في الأفعال ضربان : جازمة وناصبة . والعاملة عملين ضربان : عاملة نصباً ثم رفعاً ، وعاملة رفعاً ثم نصباً . فالحاصل من أقسام العاملة ستة : أحدها الجارة ، وثانيها الناصبة للأسماء ، وثالثها الجازمة ، ورابعها الناصبة للأفعال ، وخامسها الناصبة ثم الرافعة ، وسادسها الرافعة ثم الناصبة .

فالقسم الأول ، وهي الجارة تسعة عشر وأنها لازمة للأسماء ،

(والقسم الثاني) وهي الناصبة للأسماء ثمانية أحرف ، وهي ضربان ضرب

ينصب أينما وقع وهو ستة أحرف ؛ وهي : يا وأيا وهيا لنـداء البعيد حقيقة ؛ كنحو : يا عبد الله ، إذا كان بعيداً عنك أو تقديراً لتبعيدك نفسك عنه هضماً ، كنحو : يا إله الخلق ، أو لما هو بمنزلة البعيد من نائم أو ساهٍ تحقيقاً أو بالنسبة إلى جدّ الأمر الذي ينادى له كنداء الله سبحانه لنبيه بـ يا • وأي والهمزة لنداء القريب وقد ينظم في جملته « يا » و « وا » للندبة خاصة ولا يندب غير المعروف وكثيراً ما يلحق آخر المندوب ألف وهاء بعدها للوقف كنحو : وازيداه ، واغلام عمراه ، وامن حفر بئر زمزماه ؛ أو آخـر صفته عند يونس دون الخليل كنحو : وازيد الظريفاه ؛ هذه الستة تنصب المنادى لفظاً إذا كان نكرة نحـو : يا رجلاً أو مضافاً لفظاً نحو : يا غلامَ زيد أو تقديراً فيمن يقول يا غلامَ غلامِ زيـد إذا كرّر المنادى في حال الإضافة ولم يَنْوِ الإفراد ؛ أو مضارعاً للمضاف وهو كل اسم غـير مضاف تعلق به شيء هو من تمام معناه كنحو : يا ضارباً زيـداً ، أو يا مضروباً غلامه ، ويا خيراً من زيد ، ويا ثلاثة وثلاثين ؛ أو تقديراً نحو : يا لزيد في الاستغاثةِ ، على قول من يقول في اللام إنها حرف جرّ لكن فتحت مع المنادى الواقع موقع الضمير فتحها مع نفس الضمير ؛ وكذا في يا للماء إذا تعجبت ، ونحو : يا زيداً في الندبة ، ونحو : يا غلام مما هو مفرد مقصود ؛ أو يا غلام غلام زيـد فيمن ينوي الإفراد فإنـه يضم ؛ وكذا إذا كان من الأعلام المفردة نحو : يا زيـد ويا هند إذا لم يكن موصوفاً بابن مضاف إلى علم أو ابنة هي كذلك فإنه عنـد الوصف بذلك يفتح ؛ وأما نحو : يا الغلام مما يجمع فيه بين الضم وحرف التعريف فلا يجوز إلا عند الكوفيين والألف واللام في قولهم : يا ألله ، ليستا حرف تعريف استدلالاً بانتفاء اللازم وهو قطع الهمزة على انتفاء الملزوم ، وقد كان من حـق الهمزة في اللهم على قولنا القطع لكن لقصور العوض عن بلوغ درجة المعوَّض عنه لم يقطع والضمة في هذا النوع لما استمرّت بحيث لم تترك حـال الاضطرار إلى التنوين كقوله : ❋ سلام الله يا مطرٌ عليها ❋ بخلاف فتحة غـير المنصرف أشبهت الحركة الإعرابية التي من شـأنها الاستمرار في أنواعها فحملت التوابع مفردة سوى البدل ونحو : زيد وعمرو من المعطوفات تارة على اللفظ وأخرى على المحل في غير المبهم ، وفي المبهم أيضاً وهو أي واسم الإشارة لكن ما عـدا

الصفة ، فإنها عند غير المازني لا تكون إلا بالضم أو مضافة ، فعلى المحل البتة ؛ ووصف أي لا يجوز إلا بما فيه الألف واللام أو باسم الإشارة نحو : يا أيها الرجل ويا أيّ هذا ، ووصف اسم الإشارة لا يكون إلا بما فيه الألف واللام نحو يا هذا الرجل ويا هؤلاء الرجال ، ومن شأن المنادى إذا أضيف إلى المتكلم أن يقال في الأغلب يا غلامي وفي غيره يا غلامى ويا غلاماً ؛ وقالوا يا أبت ويا أمت معوّضين تاء التأنيث بدليل انقلابها هاء في الوقف عن ضمير المتكلم وعاملوا ابن أمي وابن عمي في النداء تارة معاملة غلامي وأخرى معاملة ابن غلامي .

(فصل) واعلم أن الترخيم ، عندنا ، من خصائص المنادى لا يجوز في غيره إلا لضرورة الشعر ؛ وأن حذف حرف النداء إنما يجوز في غير أسماء الإشارة وغير ما لا يمتنع عن لام التعريف إذا لم يكن مستغاثاً ولا مندوباً ، ونحو : « أطرق كرى وحارى لا تستنكري عذيري » ، من الشواذ ؛ وإن خذف المنادى كنحو يا بؤس لزيد وألا يا اسلمي ، جائز » .

- ٦ -

هذا نص السكاكي في إيضاح معاني حروف النداء .. وفي خصائص المنادى ، التي منها : الترخيم ، كما ختم كلامه ..

والغاية من إيراده ، هنا : استكمال بحثه في « النداء » ؛ فهو الذي أحالنا إلى قسم النحوِ من « المفتاح » لهذا الاستكمال ..

والوجه الثاني للغاية : يتعلّق بما أثاره القزويني في مقدمة « الإيضاح » ؛ فقد نص على أنه « عمد إلى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه مفتاح العلوم » .. وقد يكون هذا العمد : صحيحاً في غير باب النداء .. لكنه في هذه المسألة : يعفينا من الموافقة على ما نصّ عليه .. لأنّ ذلك ظلم للموضوع وللسكاكي ، معاً ... وليست الوقائع والبينات بخافية ..

وثالث الوجوه لغايتنا : هو ارتباط النحو والمعنى ؛ فالنداء : يمتد في القسمين من كتاب السكاكي .. وفي العلمين حيث بُحثا ...

ورابع الوجوه : استكماليٌّ أيضاً ؛ فقد تقصيتُ المسألة عند الجرجاني في كتابيه : فلم أجد عنده في « النداء » ما عند السكاكي ..

لذلك طرحت قضية النداء للبحث مجدّداً ؛ فهل يشفي ما تقدّم فيها ؟ !

- ٧ -

ليسَ ما قدّمه القزويني : شافياً ولا وافياً ؛ فقد مسخ أسلوب النداء بأسطر قليلة في حين أنه ضخّم دعواه باستيفاء كل مسائل الإيضاح ، كما هي في تراث السكاكي والجرجاني وغيرهما ..

وقد لاحظنا التباينَ بين أسطره المخلّةِ الإيجاز وبين إفاضةِ صاحب المفتاحِ بالمسألة ..

هذه الخطوة الأولى من التحقق : تعيد للقزويني وعمله اعتباراً كان مسلوباً .. وتقرّبُنا من موضوعية البحث في النداء : حروف نداءٍ ، وصيغ مناداة ..

الخطوة الثانية : تدعو لتقصي الموضوع عند الباحثين فيه ؛ من وجهة علم المعاني ، ومن وجهة علم النحو ..

ولا يخلو كتاب نحو قديم أو حديث : من التعرض للنداء ، ابتداءً بكتاب سيبويه .. وحتى « النحو الواضح » ، وما كتِبَ بعده ... وكذلك في كتب البلاغة القديمة والحديثة .. لذلك كان التوقف مع جميعها يقتضي ما لا تعطيه الحال ، في ظروف تقديم كتابنا « علم المعاني ومقتضى الحال » ..

- ٨ -

وقد قبلت الإشراف على رسالة دكتوراه ، عنوانها : النداء في القرآن ؛ قدمها : أحمد فارس .. كما شاركت بمناقشة رسالة ماجستر بالعنوان ذاته ، في جامعةٍ أخرى ؛ قدمت الرسالة : نوال سلطان ..

أعني أنّ ما أوهمنا به « ملخص القزويني وإيضاحه » : ليس معبراً عن حقيقة النداء وغناه ؛ والنداء : واحدة من مسائل التراث ..

- ٩ -

تأملت في نماذج من معالجات النداء : معنوياً ، ونحويّاً ؛ وقد قرّبَ أصحابها أسلوب النداء لطلاب البلاغةِ والنحو ..

من هذه المعالجات : ما جاء في « علم المعاني » ؛ لمزيد نعيم ؛ وهو الكتاب الذي كان مقرراً في السنوات الأربع الماضية ؛ وقد خصّ النداء بواحدٍ وعشرين سطراً : عرف النداء ؛ وأغراض أدواته ؛ والمعاني المستفادة منه ..

فالنداءُ : طلبُ الإقبال بحرفٍ نابَ منابَ « أدعو » ، لفظاً ، أو تقديراً .. وأدواته ثمانية : أ ، أي ، يا ، و آ ، آي ، أيا ، هيا ، وا .. والمعاني المستفادة منه : الإغراء ، التحسّر ، الاختصاص ...

ومن هذه المعالجات : ما جاء في « علم المعاني » ؛ لبكري شيخ أمين ؛ وقد زاد على سابقه في المعاني التي تخرج إليها حروف النداء ، فعدّ عشرة منها : التحسر ، الندبة ، الاستغاثة ، الزجر ، التعجب ، التحقير ، التحبب ، الإغراء ، الاختصاص ، الاستغاثة ..

ولهذه المعالجة : محاسن إيضاح لمعاني الأدوات متعاونة مع المعنى العام الذي تضمنه الكلام ..

ومن هذه المعالجات : ما كتبه عبد العزيز عتيق ، في « علم المعاني » ؛ فقد بدأ بتعريف النداء .. ثم حروفه .. ثم معانيه وما يخرج إليه من معانٍ ، مثل : الإغراء ، التحسر ، الزجر ، الاستغاثة ، التعجب ، الندبة ، الاختصاص ...

ومزية هذه المعالجة : كثرة الأمثلة ؛ حتى كأن بحثَ النداءِ : معرض لمختارات شعرية مفيدة ..

ومن المعالجات النحوية الحديثة : ما يدعو إلى التأمل في دقائق هذا الأسلوب ؛ وقـد تأمّلتُ بثلاثة نماذج منها ؛

النموذج الأول : ما جـاء في كتاب سعيد الأفغاني ؛ « الموجـز في قواعد اللغة العربية » •• وهو بحث لمّ ما يتعلق بأحكامِ المنادى بإحدى عشرة صفحة (٢٩٢ – ٣٠٢) ••

وهو مثل البلاغيين : حدّدَ حروف النداء الثمانية ، وعرّف المنادى باسم يذكر بعد أداة نداء استدعاءً لمدلوله •• ثم قـدم ما يتعلّق ، بتابعِ المنادى •• والمنادى المضاف إلى ياء المتكلم •• والمرخم •• ومناديات سماعية •• وتراكيب : الاستغاثة والتعجب والندبة •• ومهّد لكل ذلك بأحكامٍ تتعلق بكيفيات إعراب جملة النداء •• ثمّ ختم بشواهد عامة منتقاة لأجزاء الأحكام الإعرابية ••

النموذج الثاني : ما كتبه مهدي المخزومي ؛ « في النحو العربي » ؛ فقـد اعتبر النداء أسلوباً •• وعرفه « بتنبيه المنادى وحمله على الالتفات » •• ثـم أوضـح أغراض أدوات النـداء « يا ، أيا ، هيا ، وا » ••• وذهب مذهب عبد الرحمن أيوب بما سماه « دراسات نقدية في النحو العـربي » : فـلم يعتبر النداء جملة ، كما اعتبره النحاة •• بل اعتبره : « تنبيهاً ولا شيء آخـر » •• (ص ٣٠٤) •• وبعد مناقشة « حركات المناديات » ، ختم بحثه بقوله :

« وخلاصة القول : إن النـداء ليس جملة فعلية ، ولا جملة غير إسنادية ؛ وإنما هو مركب لفظي بمنزلة أسماء الأصوات ، يستخدم لإبلاغ المنادى حاجـة ، أو لدعوته إلى إغاثة أو نصرة ، أو نحو ذلك » •• (٣٠١ – ٣١١) •

النموذجان : مختلفا الوجهات ؛ الأول : يقرر أحكام النداء تقريراً شاملاً كما هو في المتعارف العلمي المقلّد •• والثاني : يُجرّب نقـدَ الأحكام بصورة تجعل أسلوب النداء مثيراً للتأمل من جديد ••

النموذج الثالث : ما جاء حول النداء في سياق « القصص اللغوي » ، الذي أذيع من إذاعتي دمشق والكويت ، بعنوان « اللغـة والحياة » ؛ وكان برنامجاً أسبوعياً ، استمر ثلاثـة وخمسين أسبوعاً ، بـين ١٩٧٦ إلى الشـهر الخامس من ١٩٨٠ ..

أشير إلى إذاعة هذا العمل لا إلى نشره في كتاب ؛ لأن ذلك هو الواقع ؛ والذي نشر من (٢١٢) حلقـة : لا يتجاوز العشرين ، في مجـلات وصحف ، وعشرة منها في « أساسيات النحو العربي » ... ولأنني أريد أن أنبّه إلى الإمكانية الشعبية لقواعد اللغـة .. وقد اقتنع عدد من الراغبين بإشاعة اللغة بهذا الأمر ، وأنشأوا برامج لغوية إذاعية وتلفزيونية ، فيما بعـد ...

- ١٠ -

الذي يخصُّ بحثنا هنا : ثلاث حلقات ، أعطيت عناوين شعبية ، هي :

أ - الرحمة والقوة في النـداء والاستغاثة
ب - صمتُك المتوهجُ في أساليب النـداء
جـ - مَن أنادي ؟ وبمن أستغيث ؟ وكيف أندب ؟

العناوين الثلاثة ، هـذه : من مجموعة تحمل اسمَ ، « العيادة اللغوية من محاورات اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ..

ونلاحظ : أن للقواعد شاعرية .. وأن للغة عيادة .. وأن المسألة حوارية بين أشخاص عبر اللغـة وشؤون الحياة ..

إن قراءة الحلقات الثلاث (٧١ - ٧٢ - ٧٣) : تحمل إلى جوٍّ واقعيٍّ تجري فيه الحيـاةُ على طبيعتها ؛ « فالناس هم الناس ، والأشياء هي الأشياء ؛ وتمرُّ الأيام : فإذا نحن مع شخصيات وجودية ؛ أمٌّ يموت وحيدها ... وضابط يتجنّبُ الاصطدام بعصفور .. وطالبة جامعية تتعلم فن الكتابة .. ومُهجَّر من

لبنان يعود إلى زيارتها ، فتأخذه أحوال" عند « عين الجديدة » ؛ فيتحدث عن « صبايا الوزال » •• وعن « اليابسة الخضراء » ؛ وعن « أشجار على نهر الإعراب » ••• ويتمّ ذلك عبر حوار بين « جهاد وأمل » ؛ تترجم له ويترجم لها •• »

ومن مزايا المحاورة : أنها تتم في مشاهد منها ، عبر ما يُسمَّى « العيادة اللغوية » ؛ وأن معجزة الشفاء من الآلام والأحزان : تتم في محاورات الندبة •• مما يجعلُ لأسلوب النداء : وسيلة شفاء بالشاعرية والتفكير عبر القاعدة اللغوية ••

البلاغة في معالجة النداء ، هنا : لا تباشر التعريفات ، بل تجعلها حية عملية ؛ فلا تقول لنا ما سمعناه في المعالجات السَّابقة ، بل ترينا : كيف يقبل المخاطب على المتكلم •• وكيف يتبادلان المرتبة ؛ فلا متكلم ولا مخاطب ؛ بل كل منهما : المتكلم والمخاطب بالثانية الواحدة ••• ولا تقول لنا : إنه أسلوب النداء للتنبيه ؛ بل ترينا : كيف تتألق النباهة في التيقظ من عسكريّ حتى لا يصدم بسيارته عصفوراً •• ومن شاعرة حتى تتجاوز الانكسار أمام الموت الذي خطف وحيدها ••

أسلوب النداء بمنهج « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » : يُعطي ما تعطيه نماذج المعالجات النحوية من أحكام ، ويتجاوزها إلى أحلام الكلمات التي تصورها البلاغة بصور المجاز (١) •• أليست تلك رسالة النداء ؟

(١) إن الدخول إلى نصوص المحاورات أكثر إقناعاً فلتقرأ كما هي في ملحق النصوص ؛
ولتلاحظ حاشية أسلوب الرجاء ..



اسـاليب

الانشـاء غـير الطـلبي

١ – القسَم : والسَّماءِ والطَّارقِ ..

٢ – التعجب : أعجِبْ بأمٍّ .. ما ألطفَ الأقدارَ ..

٣ – العقـود : إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم..

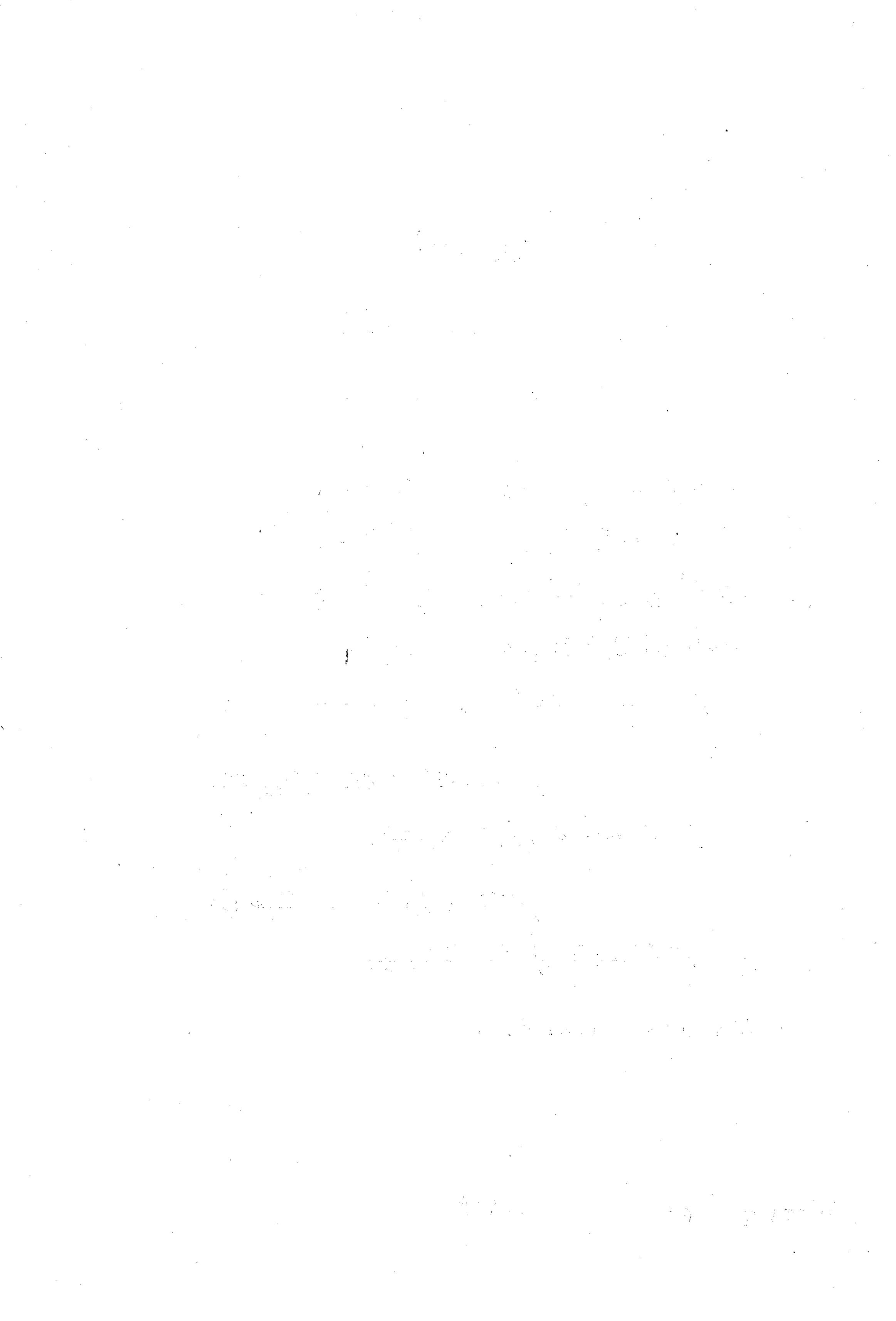
٤ – الرجـاء : عسى أن يقولَ الحبَّ ...

٥ – المدح والذم : ألا حبَّذا صحبةُ المكتبِ ..

مَناشِيءُ إثبـاتٍ تؤكِّدُ ما مضَى
وتُنشِيءُ ما يأتي كما حالُه اقتضَى

وفي صَفَرٍ يَخضرُّ أيلولُ خُضْرِه
بِبِلْيَا فيَاهَلْتُو لِيَاهُ بمـا ارتضى

٧ صفر ١٤٠٨ = ٣٠ أيلول ١٩٨٧



وهـذه خمسة أساليب الإنشاء غير الطلبي ؛ وهي ، عنـدنا ، أحوالٌ من تراكيبِ الجمل : تطابق مقتضى الحال ؛ وفي صور المطابقة : ما يظهـر للزمان أوجهاً في تجلياتِ المعنى المراد •• ولكل وجه خصوصه البنيوي ؛ ليكون مطابقاً لنيةِ القسم وغايته •• أو لنية التعجب وحاجته •• أو لنية العقود وأغراضها •• أو لنيَّة الرجـاء وأمنياته •• أو لنية المدح وتودداته ؛ أو لما يعاكسها ••

هذه الأساليب : ذوات مواقع وسطى بين قرار الخبر وبين منتظر الإنشاء الطلبي ، كما هو معلوم في تفاصيل الخبر وأساليب الطلب •• وهـذا التوسط : يمنح أساليب الإنشاء غير الطلبي مِنَح الشمول الزمني ؛ فكأنها تشرف عـلى ما كان في ماضي الوجود الخبري •• وعلى ما يكون في مستقبل الوجود الطلبي •• لذلك تمثل بالبرازخ بين الماضي والمستقبل فيما هو الحال الحاضر ؛ ولذلك بنيته الدالةُ على التمام المكتمل بالمشهود الموجود الذي تلمس آثاره المنشئة ، كالقول : « بعتك هذه الدار » •• فهذه الصيغة العقدية : أنشأت حقًّا حالياً ، وفق متعارف العقود في الماضي ؛ وحق الحال : يتفتح في الاستقبال ••

لكل أسلوب رسالته ؛ وكما رأينا في رسالة النداء : نرى للقسم رسـالة ؛ وللتعجب رسالة ؛ وللعقود رسـالة ؛ وللرجـاء رسالة ؛ وللمدح رسالة ؛ وللذم رسـالة •• وقـد أفضت في إثبات ما لهذه الأساليب من قـيم بلاغية : بمقدار مقتضى الحـال ؛ وكل أسلوب يقوم بذاتـه ويتعاون مع مماثلاته : لينفي الوأد ويثبت خـير الوُدّ ••

اســلوب القســم

لَعلّيَ أنْ أعطَى ..

بوجهكَ طَلبتي

ووجهُكَ مَن يبــقَى

بكــلٍّ حقيقــةِ

يراوحُ نجمُ الصبّحِ في كلِّ مطلَعٍ

وأقسِمُ بالإشــراقِ

أنَّكَ طَلْبَــتي

١٤٠٨/٢/٧ = ١٩٨٧/٩/٣٠



- ١ -

طريقنا في معالجة النــداء : تصح على أساليب الإنشاء الطلبي الأخرى ..
كما تصحّ على أساليب الإنشاء غــير الطلبي .. وأظنها أقنعتنا بطــرح المسائل
مجدّداً ، وعدم الاطمئنان إلى ما انتهى إليه الباحثون في تقريراتهم .. والنــداء :
كان مثــالاً مقنعاً واضحاً ...

رأينا تبادل الخبر والإنشاء في أساليب الإنشاء الطلبي : نداءً ، واستفهاماً ،
وأمــراً ، ونهياً ، وتمنّياً ..

وتلك الرؤية : أعطاها خروج الأسلوب الإنشائي عن مقتضى الظاهر إلى
مقتضى حال السياق .. ومثل هذه الرؤية : تشمل أساليبَ الإنشاء غير الطلبي ..
وقــالوا :

الإنشاء غــير الطلبي : لا يستدعي مطلوباً .. ومن أساليبه : القَسَم ..
العقود .. التعجب .. الرجــاء .. المدح والذم ...

ومن الباحثين : من رأى إخراجه من أساليب البلاغة إلى أساليب النحو ؛
ومنهم من رأى اعتباره في قسم الخبر : لأن حروف القسم أدوات توكيد للخبر
مثلاً ؛ ولأن معناه : يرافق وجود لفظه ، خلافاً للإنشاء الطلبي الذي يتأخر وجود
معنى جملته عــن وجود اللفظ ؛ لذلك لا يحتمل المعيــار المشهور بالتصــديق
والتكذيب .. بينما يحتمله ما له وجود خارجي قبل النطق به ؛ وذلك الخبر :
الذي تصحّ ملامحه على أساليب الإنشاء غــير الطلبي ...

هــذا المجمل لتفريقاتهم بين الأساليب : يظهر في معالجاتهم الوجيزة جدّاً
لكل من الأساليب غير الطلبية ؛

- ٢ -

فالقسَم مثلاً :

يكون بثلاثة أحرف ؛ الباء ، التاء ، الياء ، كما يكون بغـيرها ؛ ومن الأمثلة القسمية :

أ – باللهِ ما قلتُ باطـلاً ..
ب – تالله لأفعلنَّ الخـيرَ ..
ج – والله إنَّ الوحيَ لحقٌ ..
د – لعمرُكَ ما في الأرضِ ضيقٌ على امرىءٍ
سـرى راغبـاً أو راهبـاً وهو يعقـل
هـ – أُقسِمُ بالله : إنَّ خاتم النبيين رحمة عالمية ..
و – وحقِّ وجهكَ ما نسيتُ جماله ..

فحروف القسم : تجـرّ المقسم به ؛ ويكون اسماً ظاهـراً ؛ أو ضميراً : حلَف بالله .. وحلف به ..

نلاحظ أن الحرف هو الباء ..

أو الواو : فتدخل على الاسم الظاهر ، مثل : والليـل ..

والتـاء : تدخل على لفظ الجلالة فقط ، مثل : تالله ..

ومن صيغ القسَم المشهورة : « لعمر » ؛ وتستعمل : مضافةً إلى اسـمٍ ظاهرٍ ؛ أو إلى ضمير .. فيقال : لعمرُ اللهِ .. لعمرك .. والتقدير المعنوي : لعمرُ الله قسمي ، أو يميني ، أو ما أحلف بـه ...

- ٣ -

إن استقصاءَ أسلوب القسَم : في مواطـن بحثـه من الكتب القـديمة

والحديثة •• ثمّ في استخدام القرآن له •• ثمّ في صوره المستعملة في « نهج البلاغة ذي الفقر » •• يُعطينا عن القسم كما أعطتنا « رسالة النداء » من النداء ••

ومن المهمّ أن يجرّب طلاب علم المعاني : هذه التجربة المستقصية المتأنية ؛

فالقسَم في القرآن ، وحده : رسالةٌ لا تقل عن رسالة النداء •• ونشير إلى آياتٍ من أوائل السور •• وإلى آياتٍ من أثناء السور ••

١ – أسلوب القسَم في سورة التكوير ، سابعة السور في ترتيب النزول ؛

فمن القسَم بلفظ القسم نفسه ، وفق الترتيب النزولي :

الواحدة والثمانون في الترتيب المجموع ، (١٥ – ٢٩) :

فلا أقسِمُ بالخُنّس ؛ الجوار الكنّس ؛
والليل إذا عسعسَ ؛ والصبح إذا تنفّس ؛
إنّه لقولُ رسولٍ كريم ••• مُطاعٍ ثَمَّ أمين ••
وما صاحبكم بمجنون •• ولقد رآه
بالأفق المبين •• وما هو على الغيبِ بضنين ••
وما هو بقولِ شيطانٍ رجيم ••
فأينَ تذهبون •• ؟
إنْ هو إلاّ ذِكرٌ للعالَمين ••
لمنْ شاءَ منكم أن يستقيم •••
وما تشاؤن إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ رب العالمين ••

٢ – أسلوب القسَم في سورة القيامة ، السورة الإحدى والثلاثون ؛ تنزيلاً ؛ الخامسة والسبعون جمعاً ؛ (١ – ٤)

لا أُقسِم بيوم القيامة ••
ولا أُقسِم بالنفس اللوّامة ••

أيحسبُ الإنسانُ ألَّنْ نجمعَ عظامَه ..
بلى قادرين على أن نسوِّيَ بنانَه ..

٣ – أسلوب القسَم في سورة البلد ، الخامسة والثلاثون نزولاً ، التسعون جمعاً ؛ (١ – ٥)

لا أقسِمُ بهذا البلد ..
وأنتَ حِلٌ بهذا البلد ..
ووالدٍ وما ولد ..
لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَد ..
أيحسَبُ أن لنْ يقدِرَ عليه أحد ..

٤ – أسلوب القسَم في سورة الواقعة ، السادسة والأربعين ، نزولاً .. السادسة والخمسين جمعاً ؛ (٧٥ – ٨٢)

فلا أقسِمُ بمواقع النجوم ..
وإنّه لقسمٌ لو تعلمونَ عظيم
إنّه لقرآنٌ كريم .. في كتابٍ مكنون ..
لا يمسُّه إلاّ المطهرون .. تنزيل من رب العالمين ..
أفبهذا الحديثِ أنتم مدهنون .. وتجعلونَ رزقَكم أنَّكمْ تكذِّبون ؟ ! ..

٥ – أسلوب القسَم في سورة الحاقة ، الثامنة والسبعين نزولاً .. التاسعة والستين جمعاً .. (٣٨ – ٤٤)

فلا أقسمُ بما تبصرونَ وما لا تبصرون ..
إنّه لقولُ رسولٍ كريم ..
وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ..
ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون ..
تنزيلٌ من ربِّ العالمين ..

٦ - أسلوب القسَم في سورة المعارج ، التاسعة والسبعين نزولاً •• السبعين جمعاً •• (٤٠ - ٤٢) ••

فلا أقسمُ بربِّ المشارقِ والمغارب ••
إنّا لَقادرون ••
على أن نُبدِّلَ خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ••
فذرهمْ يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومَهم الذي يوعَدون ••

٧ - أسلوب القسَم في سورة الانشقاق ، الثالثة والثمانين نزولاً •• الرابعة والثمانين جمعاً •• (١٦ - ٢٠)

فلا أقسمُ بالشَّفق ••
والليلِ وما وَسَق ••
والقمرِ إذا اتَّسَق ••
لتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبق ••
فما لَهمْ لا يؤمنون •• ؟
وإذا قُرِىءَ عليهم القرآن لا يسجدون •• ؟

هذه سبع صور قسميّة : جاءت بلفظ الفعل الذي سمي الأسلوب باسم مجرّده أو مصدره « أقسم » •• اثنتان منها : جاء القسَم فيها ابتداءً للسورة •• وخمس : جاء قسَمها أثناء الكلام ، كما يلاحظ من أرقام الآيات ••

لإدراك بلاغة الإنشاء فيها : نتأمّل بُناها اللفظية ، توصّلاً إلى مغازيها المعنوية ؛

في الصورة الثانية ؛ نلاحظ جواب القسم كيف جاء ؛ فلقد توصل القسم إليه بأسلوب الاستفهام •• وأسلوب الاستفهام من أساليب الإنشاء الطلبي ••

في الصورة الثالثة : جاء جوابُ القسم جملة خبرية مؤكدة •• لكنه أتبع بجملة الاستفهام ••

« لا أقسمُ بهـذا البـلد ....

لقد خلقنا الإنسان في كَبَـد .. »

لا : زائدة في سائر صور القسم .. أقسم : فعل مضارع مرفوع ؛ فاعله مستتر وجوباً ، تقديره : « أنا » .. الباء : حرف جر .. هذا : اسم إشارة مبني في محل جر بالباء .. البلد : بدل من اسم الإشارة ، مجرور مثله ..

لقد خلقنا : اللام واقعة في جواب القسم للتأكيد .. قـد : حرف تحقيق مؤكد .. خلقنا : فعل وفاعل ..

جملة « خلقنا » : فعلية ، لا محل لها من الإعراب ؛ لأنها جواب القسم ؛ لا يصح تأويلها بمفـرد ، كما يقول النحاة ، ومثلها جملة أخرى : كالابتداء .. وصلة الموصول .. والمفسِّرة .. والمعترضة .. وجواب الشرط الجازم أو غـير الجازم ولم يقترن بالفاء ولا بإذا .. أو المعطوفة على جملة لا محل لها ..

لا مزيد على هذا في بحوث النحو الكثيرة ، هذا أسلوب القسم ؛ وجوابه : لا محل له من الإعراب ؛ لأنه لا يقدر بمفرد .. وتشاركه في ذلك أساليب الجمل المشار إليها ..

من وجهة المعنى : ينزل الخبر منزلة الغرض الإنشائي ؛ فكأنه يطلب إلى كلِّ إنسان أن ينشىء في نفسه قناعة الواقع ، التي هي « خلق الإنسان من كبد » .. فكأنه أسلوب الأمر « تبصَّر بخلق الإنسان : ألم يخلق من كبد ؟ » ...والجملة السابقة : لـم تحوجنا إلى تأويل ؛ فهي استفهام صريح « أيحسب الإنسان ألَّن نجمعَ عظـامه » ؟ ..

والتفكر : يوصلنا إلى الترجح بالمعنى بـين الخبر والإنشاء في الأسلوب القسمي .. أقسم بيوم القيامة والنفس اللوّامة وجعـل جسر الجواب استفهاماً إنشائياً صريحاً .. وأقسم بالبلد ومَن حَلَّ به والوالد ومن لد ثم صرَّح بالجواب

الخبري ؛ لكنه الخبر الشامل لما كان من خلق الإنسان سابقاً لزمان النطق ، ومرافقاً له ، ولاحقاً له ، على مرّ الدهور ••

وعلى هذا النحو من التفكير : يمكن للدارس أن يفهم بلاغة الإنشاء القسميّ ، مستغرقة طلب غير الحاصل وقت الطلب والحاصل معاً ••

في الجمل الخمس الباقية : جاء الجواب خبرياً ؛ لكن ذلك لم يخفِ الغرضَ الإنشائي الصريح ، كما في الصورة السابقة : « فما لهم لا يؤمنون •• وإذا قُرِئَ عليهم القرآن لا يسجدون » ؟ ! ••

في هذا الاستفهام مثل التعجّب أيضاً ، ممن يرى : « الحمرة في الأفق بعد غروب الشمس » •• ويرى ما يضمه الليل من كائنات •• ويرى اكتمال القمر في الليالي البيض التمامية بعدما كان في أحوال غير تامة •• ويرى نفسه في تحولات الناس من الطفولة إلى الهرم ، ومن الحياة إلى الموت •• مَن يرى هذه التحولات في طبيعة الشمس والليل والقمر والإنسان : كيف لا يؤمن بالله •• وكيف لا يسجد له إذا قُرِئَ القرآن ؟ ••

عنيت أن صورة القسم : تضمنت معاني الطلب التي يقتضيها أسلوب الاستفهام •• كما تضمنت معاني غير الطلب التي يومئ إليها الدارسون في التعجّب والقسم •••

إذا أحبّ دارس أن يتأمل صورة القسم الأخرى في فواتح السور •• أو في أثنائها •• فلا بد أنه واجد في المعاني الشاملة التي تكسر حدود التعريفات المألوفة لأساليب الإنشاء الطلبي •• وكما قلت ، سابقاً ، يستطيع المهتم أن يرى للقسم ما رأيناه للنداء من خطورة بلاغية وخصب معنوي •• فإذا أحبّ التأكد المهتمون : فليفعلوا بهذا الذي نعتقده لبلاغة القسم وأساليب غير الطلب ••

نمثل بثلاثٍ من الصور القسمية الأخرى ؛ لنتمّ صوره إلى عشرٍ ؛ ولنرى تناوبَ الطلب وغير الطلب ؛ وكذلك تبادل الإنشاء والخبر ••

٨ – أسلوب القسم الثامن : نأخذه من سورة الفجر ؛ وهي العاشرة نزولاً ، التاسعة والثمانون جمعاً •• (١ – ٥) ••

والفجرِ •• وليالٍ عشر •• والشفع والوتر ••
والليــلِ إذا يسرِ ••
هل في ذلك قسَمٌ لِذي حِجر ؟ ••

نلاحظ معنى الجوابِ في جملة الاستفهام ؛ « هل في ذلك قسَم ؟ • » ••

٩ – أسلوب القسم التاسع : نأخــذه من سورة النجــم ، وهي الثالثــة والعشرون نزولاً ، الثالثة والخمسون جمعاً •• (١ – ٤) •• (١٠ – ١٥) ••

والنجمِ إذا هَوى ••
ما ضلَّ صاحبكم وما غَوى ••
وما ينطــقُ عن الهــوى
إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يُوحَى ••••
فأوْحَى إلى عبدِه ما أوْحَى ••
ما كــذبَ الفؤادُ ما رأى ••
أفتُمارونَه على ما يرى ؟
ولقد رآه نزلةً أخرى •• عند سدرةِ المنتهى ••
عنــدها جنَّةُ المأْوى •••

صورة القسم هذه : تعطي الجواب خبراً صريحاً قاطعاً ، مع عدم تأكيده •• ثم تُفَصِّلُ حتى الاستفهام التعجُّبي •• والتأمل بالآيات : يكشف بلاغة القسم الإنشائي في رؤية الإعجاز الواقعي الذي تمَّ بالإسراء فعلاً ، والذي صيغ على هذا النحو المبدوء بالقسم (١ – ١٨) ••

١٠ – أما أسلوب القسم العاشــر : فنأخــذه من سورة الشمس ، وهي السادسة والعشرون نزولاً ؛ الواحدة والتسعون جمعاً •• (١ – ١٠)

والشمسِ وضحاها •• والقمرِ إذا تلاها ••
والنّهارِ إذا جلاّها •• والليلِ إذا يغشاها ••
والسماءِ وما بناها •• والأرضِ وما طحاها ••
ونفسٍ وما سوّاها •• فألهمها فجورها وتقواها ••
قــد أفلــحَ من زكّاها ••
وقــد خابَ من دسّاها •••

جملة الجواب : خبرية الصيغة « قد أفلحَ مَن زكّاها » •• لكنها تستغرق المعنى الطلبي ؛ فهي : إغــراء بتزكية النفس لتكون فالحــةً فائزة •• وهي : تعاطف التحذير من تدسيةِ النفس المهلكة ••

بلاغة القسَم : تفهم من معنى السياق الذي اقتضى حــاله أن يكون على الصورة التي جاء عليها •• والبلاغة أليست مقتضى حال ؟ ••

إن فواتح السوَر القسمية : تفتح أبوابَ الإنشاء الإبداعي لمن يستفتحون•• فهــل نستفتح ؟ ! ! ••

١١ – من السُّوَر المفتتحة بالقسَم : سورة الطارق •• لكنهــا جمعت بين نوعي القسم : الافتتاحي والداخلي ؛

ففي افتتاحِها : (١ – ٥)

والسماءِ والطارقِ ••
وما أدراكَ ما الطارق ؟
النجــمُ الثاقِب
إنْ كلُّ نفسٍ لمّا عليهــا حافظ
فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ •••

وفي أثنــائها : (١١ – ١٤)

والسماءِ ذاتِ الرَّجْع ..
والأرضِ ذاتِ الصَّدْع ..
إنَّهُ لقولٌ فصلٌ
وما هُوَ بالهَزْلِ ...

هاتان صورتا قسم : ثانيتهما خبرية واضحة البنية ؛ فالجواب جملة الخبر « إنه لقولٌ فصل » .. وإن كان المعنى : يستوعب ضرورة الإيمان بهذه الحقيقة الثابتة .. فكأنه يطلب هذا الإيمان : عابراً إليه من التأكيد بقسم لا مفرَّ من سعته ؛ فهو بالسماء ذات المطر الذي يرجع إلى الهطول بين الحين والحين ؛ وهو بالأرض ذات النبات الذي يصدِّع ترابها ويخرج منه قوتاً للناس .. ولغير الناس .. وإذا كان لا يستطيع أحدٌ تجاوز هذه الرحابة ، وبها أجري القسم : لتأكيد جديَّة هذا القرآن .. ألا يدعو ذلك إلى الإقبال عليه واستلهامه ما يفصل بين الحق والباطل ؟

أما الصورة الأولى : فمركَّبة من الاستفهام والخبر والأمر ، في سياقها القسميِّ ؛

فالقسم في السماء ومَن يطرقها في الليل ؛ وقد خصَّ الطارق بأسلوب الاستفهام ، طلباً لفهمه المحدَّدِ على وجه ذي خصوص .. فهو : النجم المضيء ؛ لأنه يثقبُ الظلام بضوئه ..

وجواب القسم في الآية الرابعة « إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليها حافظ » .. وهذه البنيةُ تحتاج تأملاً بمفرداتها .. لأن هذا التأمل : يَثقب البنية فتظهر لؤلؤة النية .. فلنحاول ..

إنْ : مخفَّفة من الثقيلة « إنَّ » .. واسمُها : محذوف ، وهو « الهاءُ » ضميرُ المبادلة مع النجم الثاقب .. وكأنما كانت البنية : إنَّه كلُّ نفسٍ ..

وقال بعض المفسرين ، أي : ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها وفعلها ، ويحصي ما يكتبه من خير وشر ..

ومَن قرأ « لما » بالتخفيف ؛ فالمعنى : إن كل نفس لعليها حافظ •• وكانت « إن » عنده : المخففة من الثقيلة ؛ واللام معها : هي اللام التي تدخل مع هذه المخففة لتخلصها من « إن » النافية و « ما » صلة ، كالتي في قوله : فبما رحمةٍ من الله •• وعما قليل •• وتكون « إن » : متلقية للقسم كما تتلقاه مثقلة •••

ومَن ثقّل « لما » كانت « إن » عنده النافية ، كالتي في قوله : فيما إنْ مكّنّاكم فيه •• و « لما » في معنى « إلاّ » ؛ وهي متلقية للقسم •• وقد استعملت « لمّا » بمعنى إلا في موضع آخر ، هو : سألتك لما فعلت ، بمعنى : إلا فعلت •••

(مجمع البيان : جـ ٥ / ٤٧٠ ــ ٤٧١)

بإيجاز : تقرأ الآية قراءة تخفيف وقراءة تثقيل ؛ فمع التخفيف : تكون « ما » زائدة •• و « إن » مخففة من الثقيلة ؛ ويكون اسمها محذوفاً ؛ أي : إنه •• واللام : فارقة ••• ومع التثقيل : تكون « ما » بمعنى « إلا » •• وتكون « إن » : نافية ••

إن التأمل بجملة الجواب في هذه الصورة القسمية : يفتح أبواباً إلى تنوُّع المعاني وفق القراءة •• وقد يُغيِّر مواقعَ من تلاقي القسم بجوابه •• كما يُغيِّر من اعتبار الأحكام البلاغية في فوارق الأساليب غير الطلبية عن الأساليب الطلبية ••

ولنعد إلى الآيات الأربع : لنتبصَّر صورة القسم وجوابه •• وهذا التبصر الشامل للصورة : يمنحنا فرصة للقول : « والسماء والطارق ••• لعَلَيْها حافظ » •••

هذه الفرصة التبصرية تُري : التدعيم الإنشائيّ لما يراد الالتفات إليه من أجزاء « المقسم به » •• والسماء والطارق : هما المقسم به إجمالاً •• لكن التخصيص : نحا ناحية الطارق ؛ فالطارق الذي يستفهم لمعرفته ، هو النجم الثاقب ؛ إنه كلُّ نفس •• وهذا الإفراد ثم الجمع : مشمول بحفظ الحافظ المؤكّد •• ويُشبه هذا الكلام ما معناه : أن الخلق الكثير من نفس واحدة ••

ومن المفسرين من رأى النجم جمعاً ، فقال : « والنجم الكواكب الطالعة في السَّماء ؛ يقال لكل طالع : ناجم ، تشبيهاً به : نجم النبت ، ونجم السن ، والقرن •• والثاقب : المضيء ، المنير ؛ وثقوبه : توقده بنوره ؛ والثاقب : العالي الشديد العلو » ••

لكن دراسة العلائق بين الصورة القسمية ، التي هي : صورة النجم الثاقب ••• وبين الصورة الإنسانية التي تعقبها ، وقد افتتحت بأسلوب الأمر باللام؛ ليكون السياق مماشياً لجواب القسم المقترن باللام الفارقة ••

نلاحظ الصورتين معاً :

« والسماء والطارق ••• لعليها حافظ ••
فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ؛ خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ •• »

يبدو « الماء الدافق » : معادلاً مناظراً « للنجم الثاقب » •• وقيل بتفسيرهما : « الثاقب : العالي الشديد العلو •• والدفق : صب الماء الكثير باعتماد قوي ؛ ومثله : الدفع ؛ فالماء الذي يكون منه الولد : يكون دافقاً ؛ وهو : القاطر المصب ؛ وهي : النطفة ، التي يخلق الله منها الولد ؛ وقيل ، ماء دافق : معناه مدفوق ؛ ومثله : سرٌ كاتم ؛ وعيشة راضية ؛

والآياتُ التي تتم صورة الأمر : تقرر تفاصيل هذا الماء الدافق ؛ فهو : « يخرج من بين الصُّلب والترائب » •• والترائب : نواحي الصدر ؛ واحدتها : تريبة ؛ وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب ••

وبعد هذه الصورة الأمرية : تأتي صورة القسم الجديد ؛ وهي تمتين للقسم الأول ؛ لكنه تفصيل : يتناول السَّماءَ ومقابلتَها الأرض •• كما تناول القسم الأول تفصيل الطارق ومقابله الدافق ••

وتختم السورة : بصورة رابعة ؛ يَقمعُ فيها الإنشاءُ بالأمر : تأكيدَ الخبر ؛ وآياتها :

إنّهم يَكيدونَ كيداً ؛
وأكيدُ كيداً ..
فمهّلِ الكافرين ؛
أمْهِلْهُمْ رويداً ...

إن صورة القسم بالسَّماء ذات الرَّجع ، والأرض ذات الصَّدع : مثلها صورة القسم بالطارق ، النجم الثاقب .. والصورتان تحملان أمراً يؤكّد فاصلية القول وحاكمية النفس .. كل نفس عليها حافظ مدبِّر ، لا مفرَّ لها منه ؛ ولا قوة لها بدونه ؛ وهذا هو القول الفصل ، تؤكّده سور الوحي ، التي منها : الطارق ..

فهل يطلب أسلوب القسم أمراً غير حاصلٍ وقت الطلب ؟ !

١٢ — من ألفاظ القسم : أيمُ ؛ وعَمر ؛ وحق .. الخ .. ومع مثل هذه الألفاظ : يبلغ الأسلوبُ مداه الأعلى .. وعندما نصفه بالأعلى : نعني احتضانه للأدنى .. ولما بين الأعلى والأدنى .. وتجسيم المعنى باللفظ : هو الذي يظهر مستواه المراد ..

نأخذُ مثالاً من نهج البلاغة ذي الفِقر ؛ لعلي (ع) : (خ ١٠٢/ف ٦)

«وأيمُ اللهِ
لأبقَرَنَّ الباطلَ
حتى أُخرِجَ الحقَّ من خاصرته » ..

هذه صورة قسمية من البلاغة الممارسة ؛ والبلاغة الأصل : هي المستعملة من بلغاءِ اللغة الخبراء .. وعن صيغ استعمالاتهم : يشتق الباحثون قواعد البلاغةَ ..

كيف نقرأ هذه الفقرةَ بجملها الثلاث ؟
ما معنى الأيم ؟ ولماذا تعتبر مقسماً به ؟

الأيم في القاموس ، تعني : الطهارة ؛ والحية ؛ واليمين ؛ وهـذه المعـاني الثلاثة : تُعتَصَر اعتصاراً من المادة المعجمية ؛ لأنَّ القارىء المتعجّل : لا ينتبه لمرامي الكلمات المعنوية ؛ فيبقى عند محسوساتها •• ولا يرون للقسم إلاَّ المعنى الثالث ، فيقولون :

« أيمُنُ اللهِ : اسمٌ وضع للقسم ؛ والتقدير : أيمُنُ الله قسمي ••• وفيه لغات ، تساوى فيه قراءات أيمُن مع قراءات أيم » ؛

يقولون : أَيْمُنُ اللهِ •• وإِيْمُنُ اللهِ •• وأَيْمَنُ اللهِ •• وأَيمِنُ اللهِ ••

ويقولون ، بمعناها : أَيْـمُ الله •• وإِيمِ اللهِ •• وأَمِ ُ اللهِ ، بتثليث الميم •• ومَـُنِ ُ اللهِ ، مثلثة الميم والنون •• ومِ ُ اللهِ ، مثلثة ••

ويقال : يمينُ اللهِ لا أفعـل ••

واليمين : ج أيمان ؛ البركة والقوة واليمين ؛ واليمين : القسَم ، مؤنثة ••

فعندما تأتي صورة القسم « وأيمُ الله » •• فإنها تعني : أيمُنُ الله قسمي •• وهي جمع لليمين •• ويقال : فلان عندنا باليمين ؛ أي بالمنزلة الحسنى ••

وأيمُ اللهِ : تعني الحلف ببركات الله وقُواه ، بيُمنِه وحسناه ••

هذا المعنى الثالث للأيم •• أمَّا المعنيان الآخران : فالحية والطهارة ؛ وكيف تكون صورة القسم بحيَّةِ اللهِ ؟

يقولون : الأيم ، هو الحية البيضاء اللطيفة ؛ وقد شبهتْ بالأرض لملاستها وخصوبتها ••

ويقولون : الأيم ، هو من يبقى بلا زواج من الذكور والإناث ••

وكلامهم طويل ً بهـذا •• يجده من يحب الاستزادة في « لسان العرب » ، أو غـيره من المعجمات ••

غرضنا البلاغي ، هنا : أن نستوضح علاقة المعاني اللغوية بالاستعمال البلاغي في صورة القسم •• فهل يتضمن الاستعمال هذه الدلائل ؟

وأيمُ اللهِ لأبقَرنّ الباطلَ ؛

هـذه جملة القسم وجوابها معهـا مؤكـداً باللام ؛ والبقر : يعني الشق والفتح •• والباطل : يعني العرضيّ والزائل •• فبقر الموزة مثلاً : يعني شـق قشرتها التي لا تؤكل ، توصلاً إلى اللب المنشود •• وبقر الجوزة أيضاً : يَعني كسر قشرتها الخارجية لاستخراج ما في بطنها ، أو جوفها •• والابتقار ، عموماً : عملية شق للقشور والأسطحة ؛ لغرض استخراج ما في الصميم من مكونات الخير ؛ قد تكون ولداً : إذا تناول البقر استيلاد امرأة ، أو ما يُستولد من كائنات مثل البقرة أو الناقة أو الفرس أو الغنمة أو العنزة •••

إن الاستعمال : أومأ بهذه المعاني ؛ لأنـه وضع جملة ثالثة : تعلّل عملية البقر ؛ وتشرح غاية الجواب القسمي ؛ وهي :

حتى أخرج الحـقّ من خاصرته ••

إن إخراج الحـق من الخاصرة : عملية استيلاد على نحو طبي حديث ؛ إما دفعاً للعسر الذي قد يعترض عملية الولادة الطبيعية •• وإمّا رفعاً لسوية المولود الذي يراد استنجابه •• والمولود ، هنا : هو الحق •• والحق : جدير ٌ بهـذه العنايـة الباقرية الخاصرية ••

ومما أشار إليه شراحُ « نهـج البلاغة » : أن عملية الشق لجوف الباطلِ تكون بقهر أهـل الباطل وانتزاع الحـق من أيـدي المبطلين •• وقال الشيخ محمد عبده : والتمثيل في غاية من اللطف ••• (نهج البلاغة جـ ١/ص ١٩٩) ••

هذا الأسلوب القسميّ في الاستعمال : يبصرنا بما جاء بتحديده ، كقول القزويني عن السكاكي •• « إن الإنشاء الطلبي يستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب » •• مثل هذا التحديد يعني : أن الإنشاء غيرَ الطلبيّ : لا يستدعي مطلوباً •• أو أن مطلوبه : يكون حاصلاً وقت الطلب ••

معلوم أن القسم : من أساليب الإنشاء غير الطلبي •• وقد رأينا صور استعماله العشر •• ثم استوقفتنا صورته المركبة في سورة « الطارق » ورأينا الغنى التركيبي بإيضاح القسم « بالنجم الثاقب » •• ونذكر بأن الثاقب ، هو المضيء الذي يثقبُ الظلام •••

وهنا ، نحن مع الصورة القسمية الثاقبة •• أليس بقر الباطل لاستخراج الحق من خاصرته : مثل ثقب الظلام لتحرير النور من وراء أسدافه وحجبه •• ؟

لكن معنى الاستعمال في « البلاغة الممارسة » أوسع من الحدود التي رسمتها البلاغة للإنشاء •• وأوسع من المواقف التي وقفتها المَعْجَمةُ للكلمات ••

فبقر الباطل لاستخراج الحق : جواب القسم بأيم الله •• وهذا الجواب هل كان « مطلوباً حاصلاً وقت الطلب » •• أم كان يستدعي « غير حاصل وقت الطلب » •• ؟

سياق المعنى : يفترض المستقبلية ؛ فيكون اتجاه الاستعمال إلى حقيقة الإنشاء الطلبي ، مع أن الأسلوب من أساليب الإنشاء غير الطلبي ••

وهذا المعنى السياقي : يؤكده النصّ الكلي ؛

ففي الخطبة الثانية بعد المائة : وضوح لما كان مما يقسَم على وجوده •• ولما سيكون مما يقسَم على إيجاده •• ويمكن التأمّل بالنصّ ، وهو ستّ فِقَرٍ ؛ كنا مع فقرته السادسة ؛ وفقرته الخامسة : قسم أيضاً ، وهي :

٥ – « وأيمُ الله ••

لقد كنتُ في ساقتِها حتى تولَّت بحذافيرها •• واستوثقتْ قيادَها :

ما ضعفتُ ، ولا جَبُنْتُ ، ولا خُنتُ ، ولا وهَنتُ ••

٦ – « وأيم الله ••

لأبقَرن الباطلَ حتى أخرجَ الحقَّ من خاصرته ••• »

واضح اتجـاه القسم إلى الماضي الذي كان من جمـلة الجواب في الفقرة الخامسة•• وواضح اتجاهه إلى ما سيكون من جملة الجواب في الفقرة السادسة ••

القسم الأول ، يقرر وجوداً كان « لقد كنتُ في ساقتها » ••

والقسم الثاني ، يأمل وجوداً يكون « لأبقرنَّ الباطل ••• » ••

فالسياق المتكامل للكلام : يفترض احتضانَ الماضي والمستقبل وما بينهما من حاضر ؛ كما حقق لنا الاستعمال البلاغي لأسلوب البلاغة الأعلى ••

وهذا التكامل الغائي : يرفع الوسائل معـه ؛ لتكون كلها صالحة لتأديـة أدوارها •• وبهذا الرفع : يكون معنى الأيم الحسي ممكناً في القسم ؛ فحية الله : قد تكون غير المعنى الحسي القريب للأفعى البيضاء اللطيفة •• قـد تكون نفسه الحيَّة أبداً •• ؟ ••ونفسه الحية أبداً ، والتي كتب عليها الرحمة •• أليست في العزوبية أبداً •• ؟ •• ألا تبقى بلا زواج مع صلاحها •• ؟

أيم الله : أوسع وأعلى في الاستعمال النهجي من حدود البلاغة والمعجم •••



أسلوب التعجب

يقتضي القصدُ من لغاتِك معنى
دلَّني اللفظُ أن أراه بِمَبْنَى
ثمَّ معناه دلَّني لجديدٍ
من معانيهِ ذاكَ معنى المعنى

مقتضَى الحالِ نيَّةٌ في الوجود
فابدأي الفنَّ بُنْيَةً وأعيدي
لُغَتي خاضِراءُ أنعِمْ بحُسنى
ما أحبَّ البديعَ ينشرُ عيدي

شَجرُ النورِ في الكِنايةِ فنٌّ
وزمانٌ من الأبوَّةِ وابنُ
لفمِ النبعِ في الطهارةِ معنى
سارَ في النهرِ والمباسم يَحنو

١٩٨٧/١٠/١



أَعْجِبْ بأمٍّ جاوزتْ تِسعينا
شيخُ العجوزِ مُوَلَّدٌ عِشرينا

ما ألطفَ الأقدارَ في إعجازها
حُيِّيْتَ إبراهيمُ عشرَ مِئين ...

ما أوسَعَ ساحةَ التأليفِ وما أضيقَ بئرَها ؛ ترى امتداداً كما بين حمص ودمشق ، وعلى يمينك ويسارك .. لكنه امتدادُ البورِ مهيمناً على المعمور .. قيل : بسبعَ عشرةَ مدينةً كدمشقَ ، تنام في بور ما بينها وبين حمص .. لكن قلّةَ الماءِ وقلةَ المتعاملين مع أعماق الأرض : جعلت ساحةَ البور تتسع وألزمت البئر بالنحافة والضيق وفرضت الصمتَ على ماء الأعماق ..

لمقتضى مثل هذه الأحوال : أنشأ المنشئون أسلوبَ التعجّب ؛ ليصوّروا إعجابهم بأمرٍ خارق يفوق حدود الأمور المألوفة ، كما في قصة سارة زوج الخليل ، فقد أنجبت بعد التسعين ؛ وكما في سيرة الخليل ذاته ، فمن ذريته عشرون نبيّاً ذكروا في القرآن ، مع أنه أنجب اسماعيل من هاجر ، في الثمانية والثمانين .. وبعد أربعة عشر عاماً : أنجب اسحاق من سارة وهي في الواحدة والتسعين من عمرها ..

للتعبير عن مقتضى هذه الحال : جاء التعجّب ، استعظاماً وتقديراً ، فقيل : « أعجِبْ بأمٍّ ... ما ألطفَ الأقدارَ » .. كما نرى الصورة في الرباعية ، التي افتتحنا بها معالجة هذا الأسلوب ..

وقد يكون للتعبير بأسلوب التعجب : غيرُ الاستعظام التقديري .. قد يكون للتعبير عن إنكار الأمر والحضّ على تجاوزه ، كما في الإشارة إلى مسألة التأليف الثقافي .. وإلى مسألة العمران الطبيعي ..

ومع « رسالة النداء » : رأينا سعة الادعاء باستكمال البحث ، كما في مقدمة « إيضاح القزويني » •• ورأينا ضيق البئر والشحّ بالماء المخصب للأرض ، أو الساقي للناس •• وحضتنا رؤية الواقع على تغييره ؛ فكانت « رسالة النـداء » : حفراً فجَّر بالسَّبر خِصبَ الأسلوب ؛ حتى كأنه نهـر دائم الجريان ؛ أو خزان بئريّ : يعطي لكل اتجاه ثقافي وتاريخيٍّ ، طبيعي وإنساني ؛ كما أخبرتنا النتيجة ومحاصيلها •••• ذلك في الإنشاء الطلبي ••

ومع ، « أسلوب القسم » من أساليب الإنشاء غير الطلبي : أكـدنا هذه الواقعة القائمة في التأليف البلاغي ••

وهنا ، نقلنا المسألة إلى أسلوب التعجب على نحوٍ عمليٍّ ؛ فتعجبنا من السعة والضيق معاً •• ويلاحظ الإيجاز المعبِّر بالقول : « ما أوسع ساحة التأليف •• وما أضيقَ بئرها » •• وهذا لإثارة الإنكار والحض على تغيير الوضع ••

يبدو تفتح الإثارة الثقافية : بنقلها إلى مستوى العمرانِ الطبيعي ؛ والصورة التعبيرية : موضحة لأسلوب التعجب الذي أوجز مسألة التأليف ؛ لذلك وضـع عجائبَ الواقع بديلاً عن الأسلوب ؛ ليقول بالحال : وهذا هو العجب فتعجَّبْ من نومِ المدن والعواصم في البور الشاسع الممتد بين دمشق وحمص •• والإثارة وراء الاسمين الجميلين : لأن ما بين حلب وحماه : أعجب •• ولأن ما بين البصرة وبغداد : أكثر إدهاشاً •• ويمتد الخاطر إلى بور الأرض العربية : فكأنها الصحراء ، وعمرانها : واحات ، أو نقـاط خضر ضئيلة في هـذا البحر المتلاطم من رمـل البور وصخره وترابـه •••

ألا يثير ذلك العتجبَ المنكِرَ لمنكَرَ البور •• ؟

ألا يثـير الانتباه الآمـرُ بمعروف السعي المغيِّر لهـذا الوضع الطبيعيِّ المؤسف •• ؟

إن بلاغة التعجب في أمثلة هذا النص : تظهر من ربط المثال الشعري بالمثال النثري •• لأنها تذكر بالمعجزة •• تحضُّ على تغيير البور وتجاوز الفقر في الطبيعة

والمجتمع •• وتحرِّض على العمل بلا هوادة ؛ لأن التغيير ممكن وليس إخصابُ الأرض البور بأعجب من إنجاب شيخ في المئة وعجوز في التسعين ••• والحضُّ واقعي : ليس غيبياً ، كما يقال لأساليبنا ؛ فأولاد إبراهيم : عشرون نبياً فهو أبو الأنبياء •• هذه واقعة إعجاز تاريخيٌّ ، تُقدِّمُ مركَّباً وجودياً تتحد فيه الإنسانية بالنبوة ، لتتذوقَ بالإمكان ما يوجب الإيمان بهذا الخارق وراء الظاهر ؛ ذلك الذي يصنع المعجزات ، بدءاً من إيجاد الإنسان الفعال في الطبيعة ، مع أنه « من علق » •• ومن « ماءٍ مهين » •• ومن « تراب » •••

أسلوب التعجب : يحرك الانفعال النفسانيّ نحو المكان ونحو الزمان ؛ فالأرض الرملية ، رغم مظهرها الرملي ، أنجبت للزمان : بئر زمزم في مكة •• وغيره •• واليوم : تنجب من الثروات ما يعرفه المهتمون بشؤون الاقتصاد والعمران •• وهي مستعدّة دائماً لقوم ينفعلون بالإرادة : فيستعظمون العظيم الذي لا يعجزه شيء •• وينكرون المنكر الذي لا يثبت أمام العزماتِ والنوايا الطيبات ••

لكن قراءةَ أسلوب التعجب في المؤلفات البلاغية : لا تعطي أكثر مما يعطيه مرجٌ واسعٌ فيه آثارُ مواش •• وبمكان ضيق منه فوهة بئر معطّل •• وعلى فم البئر : مثل سيف معطل بلا قبضةٍ أيضاً ••

القراءة الجديدة : ينبغي لها أن تفعل مثل الذي سلف لنا من إحياء « النداء •• والقسَم » •• فما هو أسلوبُ التعجُّبِ المحرِّكُ الفعال ؟

من صور التعريف به في أحدث المؤلفات الجامعية :

١ – « التعجب : وهو تفضيل شخص من الأشخاص ، أو غيره ، على أضرابه ، بوصف من الأوصاف • ويأتي قياسياً بصيغتين : ما أفعله •• أفعل به » •• (ص ٧٧) •• (عتيق)

٢ – والتعجب في حقيقته : أن ترى الشيء يعجبك ، تظن أنك لم ترَ مثله ؛

ويكون قياساً بصيغتين : ما أفعله وأفعل به .. فتقول : ما أجملَ السماءَ .. ! وأكرم بزيدٍ .. ! ويكون سماعاً بصيغ شتى نحو : لله دره عالماً .. وكيفَ تكفرونَ باللهِ وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟ .. ! .. (٧٩) . (بكري)

٣ – هذا هو التعجب بصورتين من كتب علم المعاني ، وهو محظوظ فيهما : إذا قيس الاهتمام به بصورة ثالثة كالتي تذكره ذكراً دون أي إيضاح ، مثل القول :

« الإنشاء غير الطلبي : هو ما لا يستدعي مطلوباً ، نحو : أكلت ، وشربت ، ونعمَ الطالب زيد" ... وللإنشاء غير الطلبي صيغ" كثيرة ؛ كأفعال المدح والذم : نِعْمَ ، بِئْسَ .. وكفعلي التعجب .. وكأفعال المقاربة : عسى ، اخلولق .. وكصيغ العقود : بعت ، اشتريت .. والقسم .. وقد استبعد البلاغيون هذا النوع من مباحث علم المعاني ؛ لأن هذه الأساليب أخبار نقلت إلى الإنشاء » (٣٣).. (نعيم) ..

نوقشت فكرة التراجع بين الخبر والإنشاء في مقدمة أسلوب القسَم ؛ وبدت لنا ضآلة القيمة التي يبني عليها المقسمون بين الطلبي وغير الطلبي ...

والمثال هنا من التعجب ؛

فإذا كان التعجب خبراً نُقِلَ إلى الإنشاء : فهل يستبعد من الإنشاء والخبر معاً ؟

هذه التعليلات السريعة : تسدل الحجب بين طالب علم المعاني وبين حقيقة هذا العلم المتصلة بما هو خبر وإنشاء ، وبما هو طلبيٌّ وغيرُ طلبي من الأساليب .. ولو تأملنا ملياً بصيغتي التعجب وأسلوبه التأثيري : لفهمناه مجدّداً على أوسع مدى ، كما فهمنا من النداء مثالاً .. وكما فهمنا من القسَم تأكيداً لوجهتنا .. فما معنى صيغتي التعجب القياسيتين ؟

علم المعاني : يحمل المركب البنيوي للأسلوب ؛ ومن التحليل : تظهر عناصر

المعنى ؛ ومن ظهور هذه العناصر المعنوية : تنشأ المواقف الإنسانية ، تأثراً وتأثيراً ••
ألا يبدو ذلك من الطلب العميق والرفيع لغـاية التعبير ؟ !

وفي علم النحو : نجد مثل هذا التحليل المنشىء ، ولو بمصطلحات أسلوبية أخـرى ؛

من تحديدات النحو الحديثة :

« إذا أراد امرؤ : أن يُعبِّر عن إعجابه بصفةٍ لشيء مَّا ، اشتقَّ من مصدر هذه الصفة إحدى هاتين الصيغتين : ما أفعله •• أفعل به » (١١) •• (أفغاني)

وسبق التعامل مع أمثلة التعجب في فاتحة هذا البحث التعجبي ؛ « ما أوسعَ ساحة التأليف •• وما أضيقَ بئرها •• ما ألطفَ الأقـدارَ •• أعجِبْ بـأمٍّ جاوزتْ تسعينا » ••

ففي الإعراب المبين للمعنى يقولون بتحليل مثل هـذه الأمثلة :

أعجب بأمٍّ •• بمعنى : عجِبَتْ أمٌّ بعد التسعين ، أي كانت معجِبَة ؛ ومثيرة للعجب والإعجاب والتعجُّب ••

أعجب : فعل ماض جامد ، جـاء على صورة الأمر ؛ مبني على فتح مقدَّر على آخره ، منع من ظهوره السكون العارض لمجيئه على صورة الأمر ••

بأمٍّ : الباء ؛ حرف جر زائد وجوباً •• أم : فاعل مرفوع بضمةٍ مقدرة على الآخر ، منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد ••• فلو كان ما بعد الباء ضميراً ، مثل : « أكرم بهـا » ؛ لكان الهاء فاعلاً ؛ ولوضع ضمير الرفع موضع ضمير الجرِّ لوجود حرف الجر الزائد •••

هذا إعراب المثال الأول في نصنا « أعجبْ بأمٍّ جاوزتْ تسعينا » •• فالأم المجرورة بالظاهر : هي الفاعلة المرفوعة بالواقع المعنويِّ المقدر •• وهذه لملاحظة

المعنى الموحد بين الأعلى المرفوع وبين الأدنى المخفوض ؛ ومجيء الظاهر المخفوض نزولاً : يحتوي الباطن المرفوع تنزلاً ثم تصعداً بالتقدير ، لأن المعنى هو القِيَم المتحكمة بالمظاهر ..

هذه الملاحظة تخص الاسمية ، أي المسند إليه ، الذي هو الفاعل ؛ مخفوضاً نازلاً ، ومرفوعاً صاعداً في الوقت ذاتـه ..

أما ملاحظة الفعل : فتتبع ملاحظة الاسم ؛ لأن مرتبة الفعـل الإسنادية : مرتبة التبعية ؛ فالمسند : يتبع المسند إليه ، كحاج يطوف حول الكعبة .. المسند إليه : محور الدوران ، والاستناد ؛ والمسند : حـركة الدائر الناشط بدورانه لإرضاء المعنى والالتزام بنواياه والتطابق معـه ..

والفعل ، هنا : هو الفعل الأصل لهذا الأسلوب ؛ فأسلوب التعجب : أخـذ اسمه ونسبته من فعل « عجب » المجرد ؛ الذي مزيده : « أُعجب » .. وللفعل جهاتٌ معنوية : لاحظها واضعو المعاجم ، فنسقوها في هـذه المادة ؛ « عجِب يعجَب من الأمر وله : أخذه العَجَبُ منه .. وعجِب إليه : أحبَّه .. والعَجَب : ج أعجاب ؛ انفعال نفساني ، يعتري الإنسان عنـد استعظامه ، أو استطرافه ، أو إنكاره ما يرد عليـه .. والعَجَبُ من الله : الرِّضى .. أما العُجْبُ : فإنكار ما يرد عليك .. والتعجُّب : هو أن ترى الشـيء يُعجبك ، تظـن أنك لم ترَ مثله ؛ أو هو : انفعال النفس عما خفيَ سببه .. والتعجب : مصدر الفعل المزيد « تعجَّبَ تعجباً » ، لكن هذا المزيد بمعنى : « عجب » المجرد .. ومثله ، المزيدات : استعجب منه ، أي عجب ؛ أُعجِب بالأمـر : سرّه وعجِبَ منه .. عجَّبه وأعجَبه ، أي حمله على العجب .. »

وكما تدور الأفعال المزيدة في فلك الفعل المجرد : فإن المصادر والمشتقات ، عموماً ، تظل المحاور المعنوية المتفتحة من معنى المادة الأم ؛ لذلك نجـد في أسرة الكلمة « عجِب » : مفردات اسمية ، تفسَّر بالمعنى التعجّبي الانفعالي .. ونلاحظ أمثلة من المفردات :

« العُجَاب : ما جاوز حدّ العجَب •• فيقال : عجَب" عُجَاب" وعجيب" ، في المبالغة •••

« العُجّاب والعجيب : ما يتعجَّبُ منه ••
« العجباء : التي يتعجب من حسنها ، أو قبحها ••
« العجيبة : جمع عجائب ••
« الأعجوبة : جمع أعاجيب •• اسم لما يتعجب منه ••
« رجل تِعجابة : ذو أعاجيب •••
« التعاجيب : العجائب ••• ولا مفرد لها •• ؟ •• !
« العجباء : من النياق ، الغليظة » •••

لا نجد في هذه المفردات : ما يخرج عن المعنى الأصلي للمادة المجرّدة « عجب » ؛ إنما نجد تأكيداتٍ وإيضاحات يقدمها التفتح الاشتقاقي للمعنى •• أو يمنحها المعنى لتكون صوراً من التفاتيح •••

قد تكون في التفتحات : زيادات تنحرف عن استقامة المعنى ؛ فيكون الشذوذ المظهري للمعنى ؛ ونمثل بفعلٍ واسمٍ من هذا التجاوز ؛

فالمزيد « أعجب » : يخرج من معنى الاستكبار الشاذ ؛ فيقال : أعجب بنفسه ، بمعنى : استكبر •• وحتى في بناء هذا يستخدمون الشذوذ ؛ فيقولون : ما أعجبَه برأيه ؛ شذوذاً لبناء فعل التعجب من المجهول •••

والمصدر الفعلي المجرد : عجب ؛ يأتي بثلاثة مظاهر من الحركات « عَجَباً ؛ عُجْباً ؛ عَجْباً » •••

فالمصدر المطابق لفعله : هو المساوي له وزناً ؛ فحروفه جميعها : متحركة ؛ عَجِبَ عَجَباً •• وقد رأينا العجب : معنى للانفعال النفسي المصاحب لأحوال من استعظام الأشياء أو المواقف ، ومن استطرافها •• وأحياناً من استنكارها

لشدة غرابتها ... وأحياناً من القناعة الراضية ببديع بدائع الله الغامرة في خلق الإنسان ، وجهاً وقواماً وفكراً ؛ وفي خلق الطبيعة ، هواء ، وماء ، وتراباً ، وناراً ونوراً ؛ وما يتركب من كلّ ذلك : مما لا يحصى ...

أما المصدر الذي لا يطابق فعله : فهو الذي يختلف معه وزناً ؛ ونلاحظ المصدرين الآخرين : بضم العين وتسكين الجيم في أولهما .. وبفتح العين وتسكينها في ثانيهما ..

في أولهما ، العُجْبُ : يعني الكِبر والزهو .. والكِبر انحراف عن المعنى الأصلي للسياق التعجبي المطلوب ؛ فرسالة التعجب : ليست رسالة الكِبر والاستكبار ؛ بل هي رسالة الرضى والاستحسان ، أي التطابق مع البديع والتعارف مع المبدعات والخلائق ..

الانحراف المظهريّ هنا : حدث من وجهة نفسية ، تتعلق بمشاعر الاستكبار المزدرية للمقابل ؛ وكيف يكون التفاهمُ بالغاً مبالِغَه إذا كان المتكلم مزدرياً مَن يكلم ؟ !

في ثانيهما ، العَجْب : يأخذ الاتجاه المظهريّ وجهة الأسفل .. لذلك قالوا : العَجْب ؛ جمعه : عُجُوب ؛ ومعناه : مؤخَّر كلّ شيء ؛ وهو : أصل الذَّنَب عند رأس العُصعُص .. » ..

هذه الملاحظة الفعلية : دلتنا إلى شجرة التعجب اللغوية ، وإلى تفتحاتها المظهرة لطاقة المعنى فيها ، بشكل عام .. فكيف نستدل على أسلوبية المعنى في التعبير المعبَّأ برسالةٍ مخصصة ؟

في مثالنا المستخدم ، « أعجب بأم » : نجدُ جواباً ؛ وقد أشير إلى موطنه التاريخي في الثقافة الإنسانية ..

لم يترك التعبير : معناه عائماً باللاشيء ، كالقول : « أعجب بزيدٍ ،

أي زيد » •• بل وضعه في سياق ، وعبّأه بحمولة ذات هدفٍ مقصود ، فقيل « أعجب بأم» •• وأمعن في تلوين الخصائص حتى ظهـرت هـذه الأمُّ بعمرها وقصتها ؛ فهي زوج الخليل إبراهيم •• وهي أمُّ إسـحاق •• وهي المذكورة في القرآن الكريم ؛ ولقصتها ، حياة ولغة ، ما هو التعجب بذاته ؛ فلنر السياق :

« ولقد جاءتْ رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى ••
قالوا : سلاماً ••
قـال : سلامٌ ••
فما لَبِثَ أن جـاءٍ بعجل حنيذ ••
فلما رأى أيديَهم ، لا تصلُ إليـه :
نَكِرَهُم ؛ وأوجَسَ منهم خِيفَةً ••

قالوا : لا تخفْ ؛ إنّا أُرسِلنا إلى قوم لوط •• (٧٠)

وامرأتُه قائمـة : فضحكتْ ••
فبشرناها بإسحاق ، ومن وراءِ إسحاق
يعقوب •• (٧١)

قالت : يا ويلتى ••
أألِدُ وأنا عجوزٌ ••
وهذا بعلي شيخاً ••
إن هـذا لشيءٌ عجيب •• ؟ (٧٢)

قالوا : أتعجَبينَ من أمـرِ اللهِ ••
رحمةُ اللهِ وبركاته عليكم أهـلَ البيتِ ••
إنّهُ حميدٌ مجيد •• (٧٣)

فلما ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ؛
وجاءته البشرى :
يُجادلنا في قوم لوط •• (٧٤)

إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ منيب .. (٧٥) ..

يا إبراهيم .. !
أعرِض عن هــذا ؛
إنه قد جــاءَ أمــرُ ربِّكَ ..
وإنَّهم آتيهِم عذابٌ غـير مردود » .. (٧٦)

هــذه الآيات من سورة هود : تنشىء حــالاً ، بل أحوالاً من التعجب ؛ فالملائكة : بصورة بشرية ، جعلت أبا الأنبياء ، إبراهيم الخليل يقدم لهم ضيافة حسية منها العجــل الحنيذ ، أي المشوي ... ولأنهــم لا يأكلون : تعجَّب من أمرهم ؛ فأباحوا له معرفة السرّ ؛ وأخبروه بأنهم قدموا لإهلاك قوم لوط المفسدين في الأرض ..

كانت زوجه السيد ، « سارة » : تسمَع ؛ فأعجبها قول الملائكة : فضحكت استبشاراً بهلاك المفسدين من قوم لوط .. فبشرها الملائكة بأنها تلد : إسحاق ، الذي يأتي منه يعقوب ، والد يوسف ... فتعجبت من هذه البشارة .. وعبَّرت عن عجبها بالآيــة (٧٢) .. « إنَّ هذا لشيءٌ عجيب » ..

وذكرها الملائكة بأسلوب الاستفهام من فعل التعجب نفسه ، الذي استخدمت مشتقاً من مشتقاته .. « أتعجبين من أمر الله » ... ؟

بلاغــة السِّياق : تمنحها معاودة التأمل في الصورة الإعجازية المرصودة في الآيات ؛ فسارة : تضحك استبشاراً بهلاك المفسدين .. وهذا موقف معجِبٌ .. كأنما سبق البشارة بالمولود : ليدلَّ على أن من كانت بهــذا الذوق العــالي من الانسجام مع أمــر الله ، غضباً لما يُغضبه ، ورضىً بما يرضيه .. تستحق كــلَّ إكرام وتثير كلَّ إعجاب .. وكأنما على هذا الذوق الرفيع المعجب لسارة : جــاء جــواب الملائكة استفهاماً يذكرها بانسجامها مع أمــر الله في إهلاك قــوم لوط المفسدين .. فلماذا لا يكون انسجامها مع أمر الله في إصلاح عقمها وإحياء رحمها ، لتكونَ أمّاً جاوزت تسعينها ؟ ! ..

بلاغة الحوار بين سارة والملائكة : تلفت إلى أذواقِ المعنى في مجالات منوعة من مألوفِ الحياة المعتاد إلى غريبها النادر المحيِّر أحياناً ..

ومن هـذا التنوع : نشير إلى اقتران أسلوب الاستفهام بلفظ التعجب ، كما ورد على لسان رسل البشرى : « أتعجبين من أمر الله ؟ » ...

ففي تاريخ الثقافة القرىبة ، أن أصـل الوضع النحوي : بـدأ من تداخل الاستفهام بالتعجب .. حتى قالوا : إن ابنة أبي الأسود الدؤلي تعجبت من جمال السماء بأسلوب الاستفهام ، فقالت : ما أجمـلُ السماءِ .. ؟ .. فأجابهـا : نجومُها .. فقالت : أردت التعجُّبَ .. فقـال : والغتاه .. !! .. وصحّح لابنته ، نقول : ما أجملَ السماءَ .. !

ويتِمُّون الحكايةَ : بأنه ذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) ، وأخبره ما جرى .. وسأله ما ينقذ اللغـة من تفشي الخطأ ... فلقّنه أسس العـربية ؛ فكان : « أول من أسس العربية ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها [1] » .. ويروون عن أبي الأسود قوله : « ألقى إليَّ علي أصولاً احتذيت عليها [2] » ....

والروايات مختلفة ، كما يذكـر محقق ديوان أبي الأسود الدؤلي ، الشيخ محمد حسين آل ياسين ، في مقدمة التحقيق ..

ننقل من تلك الأصول : ما يؤصل لعلم المعـاني في النحو .. وما يؤصل لعلم النحو في المعاني ؛ لأن مدار الأمـر على المسند إليه والمسند ، اللذين هما : الفاعل والفعـل ..

---

(١) طبقات النحويين : ٢ و ١٣ ؛ أخبار النحويين : ١٠ ؛ سـرح العيون : ١٥٨ ؛ طبقـات فحـول الشعراء : ١٢ ؛ اللبـاب : ١ / ٤٣٠ ؛ والمصون : ١١٨ ؛ ومعجم الأدباء : ١٤٧/١٦ ؛ وفيات الأعيان : ٢١٦/٢ ..
ذلك ما ذكـر في تحقيق ديوان أبي الأسود ؛ ص ١١ .

(٢) طبقات النحويين : ١٣ .

يقول محقق الديوان :

« وقـد روى ياقوت نصّ تلك الأصول ، مروياً عن أبي الأسود نفسه ، حيث قـال :

« دخلت على أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فرأيته مطرقاً مفكراً ، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟

« قـال : إني سمعت ببلدكم هذا لحناً ، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية » ، فقلت :

« إن فعلت هذا ، يا أمير المؤمنين ، أحييتنا ، وبقيت فينا هذه اللغـة » .. ثم أتيته بعد أيام ، فألقى إليّ صحيفة فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيـم :

الكلام كله : اسم وفعل وحرف ؛
والاسم : ما أنبـأ عن المسمَّى ؛
والفعـل : ما أنبـأ عن حركة المسمَّى ؛
والحرف : ما أنبـأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ؛

« ثم قـال لي :

تَتَبَّعه وزدْ فيه ما وقع لك . واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ؛ وشيء ليس بظاهر ولا مضمر ؛

« قـال : فجمعتُ منه أشياء وعرضتُها عليـه ، وكان ذلك من حـروف النصب ، فكان منها : إنّ ، وأنّ ، وليتَ ، ولعلّ ، وكأنّ .. ولم أذكر : لكنّ.. فقال لي : لِمَ تركتَها ؟

فقلت : لم أحسَبْها منها ..

فقـال : بل هي منها ، فزدها فيها [1] .. »

« وأضاف أبو الأسود قائلاً : واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع ، فسُمي ذلكَ نحواً »[2]... وكان أول ما وضع أبو الأسود « باب الفاعل والمفعول »[3]..

النص الثقافيُّ : يؤخَذُ لتأريخ بداية النحو العربي .. وقد يَلوِّنُ الرواة الصيغ استظرافاً أو استلهاماً لمسألة الحركة المغيِّرة للمعنى ؛ .. إنما نريد منه هنا : غرضاً آخر ، يتعلق بعــلم المعاني ؛ وهو : المسمَّى ، واسمه ، وحركته ، وعلاقة ما بينهما ..

أمَّا المسمَّى : فهــو ما يعنى به المعنى .. فمثالنا السابق : أكرِمْ بــأمٍّ جاوزت تسعينا .. يُظهر اسمَ المسمَّى .. فالأم : وصفٌ اسميٌّ لاسمٍ هــو « سارة » .. فسارة : اسمٌ لحضرة إنسانية ، وهي : أم إسحاق ، زوج الخليل .. الحضرة هذه : هي المسمَّى بسارة الموصوف بأم متجاوزة ..

أما حــركةَ الاسم : فهي وصفُ الفعلِ التعجبي « أعجِبْ » من جهــة الإنشاء غــير الطلبي .. وهي وصفُ الفعــل غــير التعجبي من جهــةِ الخبرِ الابتدائيِّ ..

وعلمنا : أن الاسم هو المسند إليــه .. وأن الفعــل هو المسند .. وأن المسمَّى ، أو المعنى ، هو الحضرة وراءَ ما تنشئه البنية اللفظية من صورة معنوية حسية .. أو صورة معنوية معنوية ..

وفي المثال الثاني : « ما ألطفَ الأقدار في إعجازها » .. يستكمل التعجُّبُ نصفه الثاني .. ويقال في تحليله الإعرابي المبيِّن للمعنى :

---

(1) معجــم الأدبــاء : ١٤/٤٩ ـ ٥٠ ؛ انبــاه الرواة : ١/٤ ؛ ونزهة الألبــاء : ٢ ـ ٣ .. والديوان : ١٢

(2) الفهرست : ٦٠ ؛ وفيات الأعيان : ٢/٢١٧

(3) انبــاه الرواة : ١/٦ ؛ طبقات النحويين : ١٥ ؛ الفهرست : ٦٠ ـ ٦١ .

ما ألطفَ ؛ ما : نكرة تامة بمعنى شيء ، مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ ••• ألطفَ : فعل ماض جامد ، لا محل له من الإعراب ؛ وفاعله : ضمير مستتر وجوباً ، تقديره « هو » ، يعود على « ما » ••

الأقدارَ : مفعول به منصوب ؛ •••

وجملة « ألطف الأقدار » في محل رفع خبر المبتدأ « ما » ؛ والتقدير : شيء جعل الأقدارَ لطيفةً ••

وبالإعراب المعنوي نقول :

ما : مسند إليه ؛ لأنها المبتدأ المستفاد من الملَطّف ، أو اللطيف ، الذي يجعل الأقدار ذوات لطف في سياقات من الإعجاز ؛ وكذلك الذي عرفناه من حال إبراهيم •• ومن حال سارة ••• فإبراهيم البادىء بالإنجاب في الثامنة والثمانين : أنجب من أنبياء القرآن اثنين ، هما : اسماعيل من هاجر •• وإسحاق من سارة •• وإلى اسماعيل يُرفع نسب خاتم النبيين ، محمد •• وإلى إسحاق يرفع نسب موسى والمسيح •• صلوات الله على أنبيائه أجمعين ••

ألطفَ : مسند ؛ لأنه الفعل الذي أظهر حركة الاسم « ما » وأخبر عن نوع تلك الحركة التلطيفية لما هو معجز صعب ••

الأقدار : قيد ، أو فضلة ؛ وهذه الفضلة : نوع من امتداد الحركة الاسمية في الفعل المعبِّر عن حركة الاسم كما أفدنا من أولى صحائف النحو •••

في : حرف جر ؛ متعلق بفعل اللطف التعجبيّ ؛ وبهذا التعلق ربط الإعجاز العائد للأقدار باللطف العائد للشيء الملطف « ما » ، وهذا الشيء التام النكرة ، هو « المسمَّى » النحوي ؛ وهو الحضرة المعنوية القائمة وراء التسمية بالكلمة النكرة التامة « ما » •••

إعجازها : إعجاز : مجرور بفي ، وهو مضاف ؛ ها : ضمير متصل مبني على الفتح في محل جر بالإضافة ؛ فهو : مضاف إليه ؛ والألف للإشباع والوزن ••

هاتان هما صيغتا التعجب « ما أفعله •• أفعل بــه » •• وقد ترجمتا إلى استخدام ٍ حيويٍّ من مستوى ثقــافي فيه من تاريخ الإعجاز : إعجاز استمرار ، يحياه الناس في كلِّ مكان من هــذه المعمورة ، وبصورة شديدة الوضوح •• وهي على وضوحها الموجز : حملت تاريخاً واسـعاً ؛ واجتذبت للتعجب طقوساً مختلفة من الإنسان والطبيعة والمجتمع •• ومن النحو والبلاغــة والصرف ••• ومعاودة التأمــل ببيتي الافتتاح : ترفــع إلى معنى العشرين •• وإلى معــاني « عشر مئين » أي عشر مئات •• فما العشرون وعشر المئين ؟

إن العشرين : تصل بأبجدية النبوّة ؛ كما تصــل عشر المئين ، أي الألف بأبجدية الأسماء الحسنى [1] ••

وهاتان الأبجديتان : عولجتا بما لا يُحصى من المعالجات الشعبية والمنهجية ؛ وفي كل معالجة تمنح مواسم المعنى من جديد •• ألاَ يُثير العَجَبَ والإعجاب : ما في قصص أنبياء القرآن ، وما فيه من محاسن أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين ؟

قــد يكون تتبع اللفظ في الاستخدام القرآنيّ : مفاجئاً ببلاغــة المعنى في سياقاتٍ تقتضيها الأحوال •• وقد يكون بالصيغ التعجبية ذاتِها : ما يُفيد من ملاحظته طالبُ علم المعاني ••

وفي التتبعِ والملاحظة : نظلُّ نحمل مسطرة التعجب لمعرفة صوره القياسية والسّماعية ؛ ولنتذوق لطائفَ الاستخدام : لأن تغـير أيِّ حرفٍ في التركيب يُغيِّرُ جهةَ المعنى ؛ وقــد لاحظ الباحثون الفَرْقَ بين « إلى » و « اللام » في أفعال الحب والبغض ؛ فعندما يقال : ما أحبّني إلى أبي •• تكون جهــة المعنى

---

(١) في مقــدمة « أضواء القرآن : صورة من المعالجــة ..
وفي « قصص الأنبياء » : للنجار .. والجزائري .. الوجه النبوي ..
وفي « صفر الحبيب الأول » : صورة انشادية لوجه الحسنى .. الخ
وفي « مفاتيح الجنــان » ، الجوشن الكبير : الف أسم ..

الفعلي من الأب إليّ ؛ فأبي : المحب ؛ وأنا : المحبوب ••• وعندما تنوب « اللام » عن « إلى » ، فيقال : ما أحبَّني لأبي •• تكون جهة المعنى الفعلي مني إلى أبي ؛ فأبي : المحبوب ؛ وأنا : المحبّ ••

وهذه إشارة تفريقية : لنكونَ بحالة انتباه ، تجعلنا نتذوق مذاقات المعنى كيفما كانت حركاته في أسلوب التعجب •• لأن هذا الأسلوب : ذو أفعال وأحكام••

أفعال التعجب قياسية وسماعية ؛

فالقياسية : تصاغ بصيغتي « ما أفعله •• أفعل بـه » •• وصياغتها ذات أوفاقٍ يسمونها شروطاً ؛ ويجعلونها : سبعة •• وإذا لم تتوفـر : عَدِلَ إلى التعجب بكيفية أخرى ••

من شروط الفعل الذي يتعجَّب به قياسيّاً :

١ – أن يكون ثلاثياً ؛ عجب •• لطف ••
٢ – وأن يكون تاماً ؛ أي ليس من الأفعال الناقصة « كان وأخواتها » ••
٣ – وأن يكون متصرّفاً ؛ عجب : يعجب •• أعجب •••
٤ – وأن يكون قـابلاً للتفاوت بمعنى المفاضلة •• فمات مثـلاً : ليس متفاوتاً ••
٥ – وأن يكون مبنيّاً للمعلوم ؛ لأن المبني للمجهول لا يتعجب منه ••
٦ – أن يكون مثبتاً غـير منفي ؛
٧ – أن تكون صفته المشبهة على غير وزن أفعل •••

فإذا لم تتوفر هذه الشروط لما نريد التعجب منه : أجرينا التعجب بأسلوبية مركبة من المصدر بعد صيغة التعجب ••

مثلاً : الخضرة – لا يتعجَّب منها قياساً إلا بذكر مصدرها بعـد صيغة تعجب مستوفية للشروط ؛ فنقـول : أنضر بخضرة الزرع •• ما أنضر خضرة الـزرع ••

نلاحظ : أن الصفة المشبهة من الخضرة على وزن « أفعل » •• يقال : خضِر ••• واخضر ••

لذلك جِيءَ بصيغة التعجب من « نضر » التي صفتها المشبهة على وزن « فعيل » ؛ نضر : نضير •• ثم ذكر مصدر الخضرة الذي نريد التعجب منه •• وبهذه الصورة : تُحلُّ مشكلةُ نقصان الشروط المطلوبة لصيغتي التعجب المشتقتين من الصفة التي يراد التعجب منها •••

لكن هذا القياس بصورتيه : ليس كلَّ ما يعنيه أسلوب التعجب •• فقد سمعت صور تعجب من أفعال غير مستوفية الشروط •• أحصاها الباحثون ، ولم يشجعوا على مقايستها ؛ مثل :

١ — ما أخصر كلامه ؛ من : اختصر ؛ فالفعل غير ثلاثي ••
٢ — ما أملأ القربة ؛ أي : ما أكثر امتلاءها •• فالفعل غير ثلاثي ••
٣ — ما أعطاه للدراهم ؛ ما أولاه للمعروف ؛ ما أتقاه ِلله •• فالفعل غير ثلاثي ••
٤ — ومما لا فعل له ، عندهم : ما أرجله ؛ من الرجولة ••
٥ — ومن المبني للمجهول : ما أزهاه ؛ ما أعناه بأمرك ••
٦ — مما صفته المشبهة على أفعل : ما أحمقه ؛ ما أهوجه ؛ ما أرعنه ••

وما يتممها من معرفةِ مُعادلةِ الاشتقاق •• ومن الأبنية المسموعة ••

هذه ملاحظة الاشتقاق القياسي لصيغتي التعجب « ما أفعله وأفعل به » ••

أسلوب التعجب : عبارةٌ إعجاب بصفةٍ يمتلكها الداعي إلى التعجب ، شيئاً أو شخصاً •• واشتقاق صيغ التعجب من مصدر تلك الصفة : له أحكامه ••

رأينا شروط الاشتقاق لبناء الصيغتين المشهورتين : « ما أفعله •• أفعل به »•• وفهمنا من الصيغ اللفظية : ما وراءها من نوايا المعنى •• والتأمل بتلك النوايا المعنوية : يظهر لنا أحكاماً تعجبية تتضمن بلاغة التعجب ؛

١ – منها ثباتُ الصورة البنيويةً لفعلي التعجب ؛ فهما : مع المفرد والمثنى والجمع •• ومع المذكر والمؤنث •• على صورة واحدة ؛ يقالُ : « أنعِمْ يا علياءُ بأخلاقِ أبيكِ ••• وأنعِمْ بصديقيْ خاليكِ •• وما أعظمَ غايتكم يا جمعَ رفاقي في التبريك •• »

إن خطاب المفرد والمثنى والجمع : لا يُغير ثبات صيغتي التعجب « ما أفعله •• أفعل به » •• وهذه صفة تعاكس صفة الأفعال المتصرفة •• وتمنح التعجب تميُّزه بما يدعى : جمود صيغتيه •• أي مغايرتهما للأفعال المتصرفة بالأحكام •••

٢ – ومنها تصحيح الإعلال وفك الإدغام : تمييزاً عن الأفعال المتصرفة •• عندما يُتعجب بمثل : « جاد •• شدّ » ؛ فيقال :
« ما أجودَ شيخك •• أجوِدْ بالتسليكِ •• وأشدِدْ بالإسراء المملوك » ••

٣ – ومنها التعارف بالمعرفة أو المختصة من النكرات ؛ لأن التعجب : أولى أن يكون بما لنا معه تعارف مّا ؛ فيقال :

« وأكرِمْ بأميرٍ ينفعُ كلَّ الناسِ •• وما أخصبَ جنتَنا ببنيكِ •• »

٤ – ومنها التقدم ؛ فلهما الصدارة ؛ لا يَتقدم على الصيغة التعجبية معمولُها ؛ فلا يقال : بأميرٍ أكرم •• ولا يقال : جنتَنا ما أخصبَ •••

٥ – ومنها التسامح بالفصل بين الصيغة ومعمولها ، إفساحاً : للنداء •• والكينونة •• والظرف •• والتعلق •• كقولنا : ما كان أجملَه •• « أكرم علياءُ بقدوسٍ نحملُه •• ما أحسن يا نعماءُ مفصَّلَه •• ما أزهى اليومَ مراقيَنا •• أنعم في الجنة بالتمليك » •••

هذا عن أسلوب التعجب : وقد انتقل بوره بالحركة إلى مشروع معمور ؛ « فاعجَبْ بأمٍّ جاوزت تسعينا ••• حييتَ إبراهيمُ عشرَ مئين » •••

اساليب العقود

شجَرٌ واضحُ الظلالِ مُحالُ
كيف من بذرةِ النخيلِ الظلالُ ؟
وَهبَ التمرَ باهتزازٍ عجيبٍ
أمْ عيسَى بلا حسابٍ تَنالُ ...

وغيوبُ الكلامِ جودُ غيوب
قَبلَ الوصلَ بالوجودِ الغريبِ
إنه العقدُ بالرضى واحتمالُ
آنَ وقتي على أنينِ القلوبِ ...

كان تشرينُ للربيعِ خيالا
ولكانونَ أنْ يُطيلَ المقالاَ
فربيعُ النبيِّ أهدى سبيلاً
وجمادى إلى البروج استطالا ...

١٩٨٧/١٠/١



عِقْدُ الربيعِ على الوجودِ ممثّلٌ
عَقْدَ النفوسِ بعهدها المحتومِ

عندَ الجوادِ محاسنٌ لا تنتهي
أعراسُها الآلافُ بيتُ علومِ ..

مُحيِيَ التخيُّلُ فالمعاني حضرةٌ
لحقيقةٍ كُشِفَتْ مع التعليم ...

بين العِقْد والعَقد : ما يُظهر تلوناتِ المعنى بأشكالِ المبنى ؛ فالعِقد : بخفْض العين ، يَعني القِلادة ؛ يقال : عقَدَ الدُرَّ يعقِدُه .. واعتقده : إذا اتخذ منه عِقداً .. إذا نظَم الجواهر في سِلكها المعلوم ، وجعل واسطة النظم لؤلؤة كبيرة تجمع بين يمين اللآلىء ويسارها ؛ وعِدَّة لآلىء العِقد عادةً ، مع واسطتها : خمس وعشرون ..

أمّا العَقد ، بفتح العين : فيعني سُلَّماً من الدلائلِ إلى درجات المعنى ومستويات تجلّيه ؛

حسابياً : العَقد وجمعه العقود : يعني رؤوس العشرات ؛ فكأنها الأقواس الواصلة بين كل تسعة وتسعة ؛ عشرة .. عشرون .. ثلاثون .. أربعون .. خمسون .. ستون .. سبعون .. ثمانون .. تسعون ..

طبيعياً : عقَد الزهر يعقِد عَقْداً ؛ بمعنى : انضمت أجزاؤه فصار ثمراً .. فهو : عاقد .. وعقد العَسَل وما يشبهه : إذا غلظ وتماسك ..

واقتصادياً ، يقولون : اعتقدَ المال ، إذا جمعه ؛ ومنه : العُقْدة ، بمعنى الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً واقتناه ...

وعمرانياً : العَقد من البنـــاء ما عُقِـدَ منه ؛ وجمعه : أعقاد وعقود ••
وموضع العقـــد : ما يمسك الشيء ويوثقه •• والعُقدة من كل شيء : وجوبه وإحكامه وإبرامه •• وتطلق على المكان الكثير الشجر والأعشاب ••

واجتماعياً ؛ عُقِدتِ البَيعة للولاة على البلد : بمعنى وُلّوا أمر سياستها وتدبير شؤونها •• وعُقدة النكاح : تعني عَقد الزواج ••

وأخلاقياً ؛ يقال : اعتقد الأمـــر ، إذا صدّقه ، وعقد عليه قلبه وضميره ؛ وذلك التديّن به •• واعتقاد الإخاء بين الناس : ثبات الصدق والصداقة ••

وفي المعاملة ؛ يقولون : عقد البيعَ إذا أحكمه •• وعقد اليمينَ إذا أكّدها •• وعقده على الشيء إذا عاهده •• وعقد له الشيء إذا ضمنه •• وعقد له الرئاسة إذا ولاه •• وعقد اللواء لأمير البحر على سفينته •••

إنّ مظاهر البنى اللغوية : مثل الأصدافِ للمعنى ؛ كلما فتحت عَين العَقد باتجاه : أراك رؤىً وثرواتٍ في الإنسان والطَبيعة ؛ وفي أعماق ما يعقد عليـــه القلب والضمير : منشآتٌ للمعنى لا تحدّ ولا تحصى ••

مؤلفو البلاغة : على حـــق ؛ لقولهم : أساليب العقود ؛ وصيغ العقود •• لكنهم وقفوا على الشواطىء القريبة ، فلم يتجاوزوا رمل الشاطىء ؛ فمثل : هـــذا ما قيل في كتاب عـــلم المعاني للدكتور عتيق :

« صيغ العقود : من نحو قولك : بعت ، واشتريت ، ووهبت ؛ وقولك لمن أوجب الزواج : قبلت هذا الزواج » •• (٧٩)

وفي على المعـــاني الدكتور أمين ، قـــال :

« أساليب العقود : ويستعمل الفعل الماضي معها كثيراً ؛ فتقول : بعتك هذا الثوبَ ؛ واشتريت منك هذه الأرض ؛ ووهبت لكَ هذه الزجاجة ؛ وأعتقت ذلك العبدَ ؛ وقبلت منك هذا الزواج ؛ وهكذا ••• (ص ٧٨) ••

ولم يتوقف مبسطو البلاغــة ، قديماً وحديثاً ، عند بلاغة العقود ؛ وعنــد ما تعنيه برزخيتها بين الخبر والإنشاء الطلبي ؛ أي بين ماضٍ وآتٍ ••

بلاغة هــذا الأسلوب في امتــداده الموحي بيقين الماضي الخبريّ وبصدق المستقبل الطلبيّ ؛ والبلاغة الممارسة : أقربُ للإقناع ؛ لذلك نتوقف مع آيــة التوبة ، الحادية عشرة بعد المئــة :

إنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم :
بأنَّ لهمُ الجنَّةَ ؛
يُقاتلونَ في سـبيل اللهِ ؛ فيَقتُلونَ ويُقتَلون ؛
وعــداً عليه حقّاً ، في التوراةِ والإنجيلِ والقرآن ؛
ومَن أوفى بعهدِه من الله •• ؟
فاستبشِروا ببيعِكم الذي بايعتُم به ••
وذلك هو الفــوزُ العظيم •• ٩/١١١

إنَّ الفعــل « اشترى » : من ألفاظ العقود ؛ وسياق الاستعمال : مثــل مِسطرة لا التواء ولا نتوء فيها ؛ وتظهر خطوط المعنى واصلة بالطلبِ الذي هو من خصائص الإنشاء الطلبيّ المستقبلية ، باعتبــار أن وجود الإنشاء الطلبي : يلي معناه لفظَه ، كما علمنا من أساليب النداء والاستفهام ••• كما تظهر واصلة بالوجود القطعيّ المؤكد الذي هو من خصائص الخبر الماضوية ، باعتبار أن الخبر : حقيقة ابتدائية أو طلبية أو إنكارية ، وفق مقتضى حــال المخاطب ••

هنا ، أسلوب العقد : خبر طلبيٌّ يؤدي حكماً مؤكداً ؛ فالله قــد اشترى من المؤمنين : أنفسَهم وأموالَهم •• وهــذا العقــد الشرائيُّ المؤكد الإبرام والإحكام : مؤكد النتائج أيضاً ؛ فلهؤلاء المؤمنين : الجنة ؛ وذلك وعد الله الحق في كتبه المنزلة جميعاً ؛ وهو الأصدق والأوفى ••

إحكامُ العقــد كما كان •• ونتائجه كما ستكون : تتناول مؤمني الماضي في التوراة والإنجيل وما قبلهما ومؤمني الحاضر الذي أنزل به القرآن ومَن يؤمن بما آمنوا بعد ذلك الحاضر الذي صار ماضياً ••

بلاغة هذا الأسلوب العقدي : تؤخذ من مثل هذا النصِّ عند مَن اقتدوا صراط البيـان المستقيم •• ولا نجد لهذه البلاغة « شجراً واضحاً ولا ظـلاًّ » في كتب البلاغة التي تمرُّ خطفاً بذكر العقود ••

في كتب التفسير الحديثة والسريعة ، يرون مثل مبسّطي البلاغة : تعريف العقـد السريع ؛ بمثل القول : « عقد البيعَ واليمينَ والعهدَ : أكده ؛ وعقـد قلبَه على الشيء : لزمه ؛ وعقَدَ الحبلَ : جعل فيه عُقدة •• وعقدته اليمين : أكدت له حقّاً ؛ والعقد : العهد ؛ وعُقدة النكاح : عقد الزواج » ••

في لسان العرب : تتجلى مظاهر المعنى في غنى الألفاظ التي تصوِّر اتجاهات الحياةِ وما بعدها ؛ كما تبين صحيحها ومريضها ؛ وقـد رأينا أمثلة الصِحة من « عقَد يعقِد عَقْداً •• » ولأمثلة المرض مكانها في تغيير الحركات ؛ يقولون : « عقِد يعقَد عَقَداً •• إذا كان في لِسانه عُقدة •• وعقِد اللسانُ : إذا احتبس ؛ فهو : أعقَد ؛ وعَقِد" ؛ » ••

إن تذوقَ الروح البلاغي المؤثر : يقتضي همةً وتطلّعاً ؛ يحملان المتطلعَ ذا الهمة : إلى التأمّل بنصوص البلاغة الممارسة ، شعراً ونثراً •• وقبـل ذلك ، وحيـاً •••

وقد فُتح بابُ الآية من عقد الشراء الذي « هو الفوز العظيم » •• لكن عظمة الفوز لها ثمنُها من « الثقة الجوادية » ••

وفي أبيـاتِ المدخل : عِقدُ الربيع •• وعَقدُ النفوس : من محاسِنِ الجوادِ وأعراسِها •• تلك هي الحضرات المعنوية وراء أساليب العقود •• تحضُّ على بلوغِها أهل الهمم الأوفياء للعهود •• فأين أهل الحضرات وراء الكلمات ؟! ••

اسـلوب الرجـاء

ورجـائي ورا الفصولِ استظلا
بضياءٍ مـع القداسةِ حـلا
رائـعُ الطهـرِ بالمودّةِ ناشٍ
فلعـلَّ الحبَّ أن يُحلّقَ أعلى ...

حيٌّ دَرّي مبـارَكٌ بريـاشٍ
جوهرٌ طـارَ والوجودُ حَواشٍ
متنكَ الحيُّ في الرجـاءِ تجـلّى
معجزٌ خـالِدٌ .. سواكَ تلاشٍ ..

١٩٨٧/١٠/١



أسلوب الرجاء : من أساليب الإنشاء غير الطلبي ؛ يذكر بأسلوبِ التمني من أساليب الإنشاء الطلبي ..

وهذا التذكير : ذو دلائل معنوية ؛ يقربها الوجود النحوي لوظيفة إعرابية واحــدة ؛

فأداة التمني الرئيسة ، هي « ليت » .. وليت : من أخوات الحرف المشبَّه بالفعل « إن » ؛ وعلمنا أنَّها تطلب محبوباً لا يُرجى : لبُعد مناله ، أو لاستحالة بلوغه .. ويتمنى بخمس أدوات أخرى ، هي : هل ، لو ، هلاَّ ، ألا .. ولعلَّ ..

ويقال في تعريف « لعل » ، هي : أداةُ ترجٍّ ؛ وفي معاني الترجِّي : أنــه ممَّا يمكن الحصول عليه .. وبذلك يختلف عن أسلوب التمنِّي ..

الملاحظة الجاذبة ، هنا : تتعلق بتفتحات المعنى من « لعل » ؛ فهي : تعني الترجِّي الــذي يمكن حصوله .. وتعني التمني الــذي لا يمكــن حصوله أو يستبعد منــاله ..

وبهذين المعنيين : يلتقي الأسلوب الطلبي مع ما يعد أسلوباً غير طلبي ... كما يلتقي الأسلوبان بالوظيفة الإعرابية ، أي البيانية ، مـع أدواتٍ حرفية تشبه الفعل وتنسخ الابتداء ، أي تحدث تغييراً على جملة المبتدأ والخبر ؛ فتنصبِ المبتدأ وترفع الخبر .. وهــذه الحروف المشبهة ، هي : إنَّ ، أنَّ ، لكنَّ ، ليتَ ، لعــلَّ ..

ليتَ الشبابَ يَستمرُّ فنحققَ نعيمَ الخلودِ ..
لعــلَّ رحمةَ اللهِ تُدفقُ عين السعادة لنــا ..

في المثالين : يظهر حكم الإعراب الواحد ؛ فالشبابَ : نصِب بعــد ليت ، اسماً لهــا ؛ وجاء خبرها جملة فعليةً « يستمر» ؛ كأنما يقــال : ليتَ الشباب مستمرٌ .. وهيهات .. فهو : تمنٍّ بعيدُ المنال ، إن لم يكن مستحيلاً بالقياس على الممكن للناس ..

ومثل الشباب : رحمة الله ؛ فقــد نصبت اسماً لأداة الترجي « لعل » ..

وجاء خبرها : جملة فعلية « تدفق » ؛ وكأننا نقول : لعل رحمةَ الله مدفَّقة" ...
وهذا ممكن ؛ لأن سبل السعادة معطاة للإنسان في أية مرحلة من مراحل عمره ..
أليس للطفولة سعادتها مثلاً ؟ .. وهذه السعادة المتبادلة بين الأطفال والأمهات :
أليست من رحمة الله ؟ .. إن هذا الرجاء ممكن التحقق بالقياس على وقائع من
الحيـاة الواقعية معلومة ومجربـة ..

أخـذنا المعنى وفق مقتضاه : إلى مجمع الطلب وغير الطلب في الإنشاء ..
وإلى ملتقى النحو مع المعنى باللفظ الواحد .. وبأخوات هذا اللفظ ..

فأخوات « لعل » : هي الأحرف المشبهة بالفعل ، وهي من نواسخ الابتداء ،
كما تقـدم .. لكن « لعل » : لها أخوات أخرى من النواسخ الفعلية ؛ ومثلهـا
تعني الترجي .. وهي ، ما يُسمَّى : « أفعـال الرجـاء » من أخوات « كاد »
الشقيقة لـ « كان » ، الأخت الكبرى للأفعال الناسخة ، ما لم تكن أمَّها .. فهذه
الأفعال : ترفع المبتـدأ وتنصب الخبر ؛ فكأنها تراجح الحروف الناسخة ، تلك
التي تنصب المبتدأ وترفع الخبر ...

وأفعالُ الرجاء المتآخية مع « لعل » ، هي عسى ، حرى ، اخلولق ؛ وجملتها :
تبنى بلفظ الماضي ؛ ويشترط في خبرها : أن يكون فعلاً مضارعاً ، غير متقـدم
عليها ، ومقترناً مع « أن » ؛ مثـال :

حرى أن يقـول الحبُّ واخلولق الشذى
بروضتها أن يستطيلَ عسـاه ذا ..

الجملة الأولى من المثال : حرى أن يقولَ الحبُّ ..

وهذا الفعل الرجائي « حرى » : يعني ما يعنيه الفعلان الآخران من ترجٍّ ؛
يتجـه إلى طلب ما هو الأنسب والأهم والأولى والأفضل .. وبهـذا المعنى ..
يتضح ما لبنية الجملة من إحكام وأحلامٍ ؛ فهي جملة فعلية ؛ فعلها : ناقص" ،
أو مقارب من « كان » ؛ لأنـه مماثل لفعل « كاد » .. واسمه : مستتر جوازاً
تقديره : ذلك الذي يقول الحب .. والخبر : جملة « أن يقولَ الحبُّ » .. كأنما
نقول : حراه قائلَ الحبِّ .. مثل : عساه قائلَ الحبِّ » ..

تتبع أحوال اللفظ : يرينا أن خبر « حرى » : جاء فعلاً مضارعاً ، مقترناً بأن •• وأن فاعل الفعل المضارع ضمير مستتر يعود على الاسم ••

والملاحظة ذاتها بالنسبة لفعل : اخلولق •• فقد جاء الخبر فعلاً مضارعاً مقارناً « أن » ؛ وفاعله : ضمير مستتر عائد على الاسم الظاهر « واخلولق الشذى أن يستطيل بروضتها » ، بمعنى : يؤمل غنى الروضة وازدهار أزهارها حتى يعمّ العبير أرجاءها •••

أما بشأن « عسى » : فقد أجيز أن يكون فاعل المضارع : اسماً ظاهراً ، مشتملاً على ضمير يعود على الاسم ؛ كقولهم : عسى وطنك أن يغتنيَ سكانُه•• ففاعل المضارع : سكانُ ؛ وهو اسم ظاهر مشتمل على ضمير « الهاء » ، العائد إلى اسم فعل الرجاء « عسى » •• وفي مثالنا : جاء على نحو شديد الإيجاز « عساه ذا » ؛ أي عسى الحبّ أن يظهر هذا الشذى •• أو : عسى هذا الشذى أن يقول الحبّ •• والتركيب : بني للرجاءِ لعلّ الحالَ يبوح بالرضى •••

إن بلاغةَ الرجاء : أوسَعُ وأعمق وأعلى ، مما قال مبسطو أساليب الإنشاء الطلبي •• وأحسن ابن هشام في « مغني اللبيب عن كتب الأعاريب » ، عندما أشار إلى غنى « لعل » بالمعاني ؛ فقال : « وفيها عشر لغاتٍ مشهورة ؛ ولها معان ، : أحدها التوقع ؛ والثاني التعليل ؛ والثالث الاستفهام ••• »

وحدد التوقع : بترجي المحبوب والإشفاق من المكروه ، نحو « لعل الحبيب واصل ، ولعل الرقيب حاصل » •• وبيّن أنها تختص بالممكن •••

وأشار إلى من أثبت لها معنى التعليل •• وإلى من حمل معناها على الرجاء •• « فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّرُ أو يخشى [1] » •• كما ذكر الكوفيين في إثبات معنى الاستفهام لها ؛ ولهذا علّق بها الفعل في نحو : « لا تدري لعلّ اللهَ يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً [2] » •• ونحو « وما يُدريك لعله يزّكى [3] » ••

---

(١) سورة طه : ٢٠/٤٤
(٢) سورة الطلاق : ٦٥/١
(٣) سورة عبس : ٨٠/٣

وفي تقصّي استعمالات « لعل » : ما يؤكد غنى الدلالة فيها ؛ وهي ملتقى بنيوي لمعانٍ غير رجائية ، أيضاً ؛ فقد تفيد من فروع المعنى ما هو للظن كما فُهِم من بعض تراكيبها ...

عدتُ لما بدأت به : من خصب « لعل » المعنوي ؛ لأشيرَ إلى بلاغة اللقاء والافتراق ؛ فهي حرف مشبه بالفعل : وبذلك أعطت من أحوال البناء اللفظي ما تعطيه أخواتها الناسخة « إنّ ، أنّ ، كأنّ ، لكنّ ، ليت .. » .. لكنها بأخوة الوظيفة : اجتذبت إلى مقتضيات الحال الملتمسة في تراكيب النواسخ الفعلية « عسى ، حرى ، اخلولق » .. التي هي من أخوات « كاد » التي تعمل عمل « كان » ..

إن التوقف مع هذه الإثارة : يأخذ إلى بلاغة أسلوب الرجاء .. ويفتح أبواباً إلى معاني النسخ بالحرف أو بالفعل .. ولذلك مفصله في « اللغة والحياة » .. لكن « شاعرية القواعد في القصص اللغوي[1] » : ترجو من يسبر أغوار رجائها .. وإلا فهي من التمنّي ..

---

(٤) هذه العناوين كلها ترجع إلى برنامج اللغة والحياة ، الذي أذيع أسبوعياً بثلاثة وخمسين شهراً ؛ بين ١٩٧٦ و ١٩٨٠ .. من إذاعة دمشق .. وبعضه من إذاعة الكويت .. بعنوان : « اللغة والحياة » ... وقد أثار حركة لغوية إعلامية ، فصدرت عدة برامج إذاعية وتلفزيونية تدور في فلك الإثارة .. حتى استقر صديقنا الدكتور رضوان الداية على العنوان ذاته في برنامجه الموفق ، وإن كان المحتوى يختلف عما كان له برنامجنا « اللغة والحياة » .. وقد لاحظ مراقبو الإذاعات ملاحظاتهم حول تفرد البرنامج بفلسفته المجدّدة ؛ انظر : جريدة البعث / س ٢٣ ع ٤٧٣١ / بتاريخ ٢٢/ ٧ / ١٩٧٨ .

كما لاحظ هذه الملاحظة الدارسون المنهجيون .. انظر : المقالة اللغوية .. في رسالة الدكتوراه التي كتبتها : مها العطار .. بعنوان : فن المقالة في سورية ..

وانظر النماذج والآراء في الملحق من قسم النصوص ؛ في كتابنا هذا .. وانظر ما تقدم حول ما يخص أسلوب النداء : تجد بسطاً موجزاً لغايتنا المعنوية من « اللغة والحياة في شاعرية القواعد .. وفي : قصصنا اللغوي » .. ص (١٩٠ ـ ١٩١) ..

أسالب المـدح والـذم

مثلمـا نشربُ الحليبَ نصـلِّي
يابْنَ إبليسَ لا توسوسْ لِأهلِي
نعمَ ماءُ الحياة ، عندي ، المصَفَّى
ومن النـور : زيتونتي بالتجلِّي ..

بئس إبليسُ نـافخُ النفثـاتِ
بغـرورٍ يُدَلِّـلُ السَّوْءاتِ
فأعِـذْني مِنَ الغويِّ إلـهي
نعمَ ربِّي مُوسِّعُ الخـيراتِ

عُنُقي قبضـةُ النبيِّ .. صَلاحُ
أسْعَدَ الحُرَّ بالكتاب الفـلاحْ
ألـفُ زيٍّ مُرَيَّشٍ بالمعـاني
نعم صقري على الزمـان انفتاحْ ..

١٩٨٧/١٠/١



أساليب المدح : تذكر بأساليب التعجب ؛ لأن المعبِّرَ عن المــدح : يضمنُ تعجبًّا يَشيعُ منه الإعجابُ ؛ فإذا ترجمنا لمحمد إقبال الملقب بفيلسوف الشرق مدحه للحسن : ماذا نجــد ؟

حافِظُ وحدةَ خيرِ الأمَمِ نعم سِبْطاً حسَنٌ في القِيَم

فالمعنى المدحي : يضمرُ ما يعنيــه التعجب من موقف الإمــام الحسن بن علي (ع) ، الذي ترفع عما يثير الخلافَ بين ناس زمانه ؛ وكان في ترفعه : نوعٌ من عطاء ما هو له من حكمٍ لغــيره ..

وبنية الأسلوب : من بُنى الإنشاء غير الطلبي ؛ وصورتها « نعم سبطاً حسن في القيــم » ..

والمدح بهــذا الأسلوب : له أحكامه البنيوية ؛ ففعله : جامِدٌ مخففٌ من نِعمَ ؛ وفاعله له شروطه ؛

فإما أن يكون : محلًّى بـ « أل » الجنسية ، أو مضافاً إلى محلًّى بهــا ، أو مضافاً إلى مضافٍ إليها .. أمثلته : نِعم الخلق الصبر .. نِعم أدبُ الفتاةِ الصدوقةِ .. نعم ابنُ عمِّ الصديق مهنَّدٌ ..

وإمَّا أن يكون الفاعل : ضميراً مميَّزاً ، أي يكون مفسَّراً بتمييز ، كما في مثالنا الإقباليّ .. نعم سبطاً حسن في القيم ..

يقال في إعراب الأسلوب لبيــان المعنى :

نِعم : فعل ماض جامد لإنشاء المدح ... فاعله الضمير المستتر ؛ الــذي فسَّره التمييز : سبطاً ..

حسن : مخصوص بالمدح .. وهو خبر لمبتدأ محذوف وجوباً ، تقديره : هو .. وكأنما الجملة : جواب لسؤال يقتضيه سياق الكلام ؛ مثل : من عنيت بقولك « نعم سبطاً » ؟ ويكون الجواب : هو الحسن ..

وقد يكون الفاعل كلمة « ما » ؛ كقولهم : نعم ما فعل صديقك ••

إذا كان الفاعل : ضميراً مفسراً بتمييز ؛ فتمييزه : هو الذي يطابق المخصوص تثنية وجمعاً •• أما هو : فيلازم الإفـراد ، مهما يكـن المخصوص ، مثنى ، أو جمعاً •• مثل : نعم طالبين ، خـالد" وفريد" •• نعم ، أو نعمت طالبات ، غيثاء' وريم ونهلا ••• ونعم أخلاقاً ، الصدق' والأمانة والاستقامة ••

وفي جملة المدح هـذه : قد يتقدم المخصوص عليها ؛ فيقال : صالح نعم الرجل ؛ فيعرب : مبتدأ •• وجملة المدح : خبره ••

ويمدح بفعل « حب » ؛ مثل : حبذا عشير الخير ••

نقول لإبانـة المعنى في الإعراب :

حبّ : فعل ماض جامد ؛ ذا : اسم إشارة فاعل ؛ والمخصوص بالمـدح « عشير » : خبر لمبتدأ محذوف وجوبـاً ، تقديره « هو » •• ولا يتقـدم على الفعل ، ولا يشترط فيه ما اشترط لمخصوص « نعم » •• ويجوز أن يكون فاعل « حب » غير « ذا » : وعند ذاك يجوز زجره بالباء الزائدة ؛ مثل : أبوك حب به مربّياً ••

كلّ فعـل يقبل التعجب : يمكن تحويله إلى صيغة « فعُل يفعل » ، إذا أريد به : المدح أو الذم مع التعجّب •• فيقال : فهُم الطفل ؛ تعجّباً من سرعة فهمه ، واعترافاً بأن « الفهم صار ملكة فيه وغريزة ثابتة » ••• وعند نقل المعتلّ اليائي إلى باب « فعُل » : يحوّل إلى الواو •• فيقال : هيُؤ راجي ؛ أي : صار ذا هيئة حسنة ••

ما قيل في أسلوب المدح بـ « نعم وحبذا » : يصحّ في أسلوب الذم مـع « بئس ولا حبذا » •• ويسمى ما يخصص الفاعل مخصوصاً بالذم ؛ ومن أمثلة ذلك : « بئس الجار ثعلب •• لاحبذا التلميذ' يهوذا » •• ومنها : خبث برقوع' أصلاً •• لؤمت ضلّيلة طبعاً ••

بلاغـة المدح والذم : في إنشائه مواقف من المخصوص بالمدح أو بالذم ، بلا طلب ؛ فقول المتنبي « وعداوة الشعراء بئس المقتنى » : ينشيء حـذراً من معاداة الشعراء •• والقول : بعداوة الشيطان نعم المجتنى : ما ينشيء إقـداماً على معاداة إبليس وبلا طلب مباشر •• وعلى هذا تقاس بلاغة هذه الأساليب •• واظر الأمثلة المدخلية ؛ فهي لإنشاء ما يُعجب وما يمدح •••

وانظر كذلك الرباعية التالية ، وتأمل مقتضى حال المعنى في أحوال التركيب اللفظي ؛

هاجـرٌ : تسكبُ الشـرابَ لآتِ
نعـمَ هـذا : عنايـةُ الأمَّهـاتِ
نرجسُ الفـلِّ مقتضـى لاجتبـاءٍ
صبـغَ المـزجُ بالصفاء حيـاتي ••

جـاء اسم الإشارة « هذا » : فاعل فعل المـدح « نعم » •• والمخصوص بالمدح : عنـاية الأمهات ••

بلاغة المثال المدحي : تذكرنا بأسلوب التعجب في سياق « عناية الأمهات » ؛ كذلك تذكـر بالصحبة التاريخية بـين الأم التي ذكـرت في التعجب والأم في المـدح ، هنـا ••

لفتةٌ إلى مثـال التعجب « أعجِبْ بأمٍّ جاوزت تسعينا » •• لنظـل في التنبه لمسألة المثال الحكْميِّ المعبَّأ بالمعنى الزماني المقتضى •• أما قلنـا بأن المدح يضمر تعجبًا يشيعُ منه الإعجاب ؟ !



خاتمة الأساليب
طلبية
وغير طلبية

يُحرِّضُني التفكيرُ فالقلبُ منبَعُ
وأكرِمْ بفجرٍ من الرملِ يطلعُ
لزمزمَ تخييلٌ يحققُ هاجراً
ومن عرب التفكير في الروح نزرع

تحديتُ إبليساً فقامَ نشاطي
بفاتح تشرينٍ ومدَّ بِساطي
توهج برّادي فنعم شموسي
دلائل إعجاز .. عرفت صراطي

١٩٨٧/١٠/١



هذه عَشرةٌ أساليب الإنشاء ، طلبياً وغير طلبي ؛ وقد تحسب معها أساليب أخرى ، أقل منها شهرة ، مثل أسلوبي العرض والتتحضيض ؛ فهما من أساليب الإنشاء الطلبي ؛

أداة أسلوب العرض : أَلاَ .. وأداة التحضيض « هلاّ » .. والأسلوبان ينبهان على الفعل مع شدة التنبيه في أسلوب التحضيض وخفته في أسلوب العرض ؛

ومن أمثلتهما : ألا تصغي فتفهمَ ما يقال وما يجري .. ؟
: هلاّ سألتَ الصادقين .. ؟

ففي المثال الأول : طلبٌ مع لين ورفق ؛ فالمتكلم يحب أن تصل رسالته إلى المخاطب ؛ لكنه يعرض عليه عرضاً مرغباً ..

وفي المثال الثاني : طلب مع حث وإزعاج ؛ لأن المتكلم : منفعل غاضبٌ من إشاعة الفساد الإبليسي بين الناس ؛ وهذا الفساد يوزعه الكاذبون ؛ لأن الأكذبَ هو إبليس ، وقد بدأ مسيرته الإفسادية بالكذب .. لذلك كانت بلاغة التركيب التحضيضي : من مقتضى الحال ؛ باعتبار وعي المتكلم لخطورة المسألة وأهمية الانتقال بالإنسان إلى حرية الصدق ...

لقد فرّق الباحثون بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي : بالارتكاز على وجود « اللفظ والمعنى » ؛ فاللفظ : يسبق المعنى في أساليب الطلب ، كقول الأم لولدها « اغسل يديك وفمك قبل الأكل وبعده » .. فالأمر « اغسل » أسلوب إنشاء طلبيٌّ ؛ وهو لفظ سبق معناه ؛ لأن المطلوب من غسل اليدين والفم : يتلو ذلك .. وهي حجّةٌ واضحة ومبسّطة .. أما اللفظ في أساليب الإنشاء غير الطلبي : فيقترن معْ وجود لفظه ومعناه ، عند تمام التلفظ .. كما يمثلون بعقد الزواج ؛

فإذا قال شخص لآخر : زوّجتك ابنتي •• فقال الآخر : « قبلت هذا الزواج » •• فإن معنى الزِواج أو وجوده : يتحقق بكلمة القبول [1] ••

وهذا تبسيط واضحٌ ••

أما ما قيل في أساليب غير الطلب : من قلة أغراضها البلاغية •• ومن خبريتها المنقولة إلى الإنشاء •• ومن طردها من مباحث علم المعاني [2] : فآراء عرفنا قيَمها في معالجة كل أسلوب من هذه الأساليب •• وعلمنا أن أساليب : القسم •• والتعجب •• والعقود •• والرجاء •• والمدح والذم ••• تماثل برزخ الحاضر : يُطَلّ منه على ماضي الخبر وعلى مستقبل الطلب ••

وربما ظهر لنا من شأن هذه الأساليب : ما يحقق تحديدات البلاغة والفصاحة والحال والمقتضى والمعاني ، على مستوياتٍ لم تكن بيّنة •• وكيف تستبان عذوبة صوت من لا نبيح له الغناء أو التكلم في الحضرة البلاغية ••

ليست أساليب الإنشاء غير الطلبي ، وحدها : من كانت في مثل الوأد •• بل أساليب الإنشاء الطلبي ، أيضاً ؛ وقد طلع الفجرُ لذوي الألباب في « رسالة النداء » خصوصاً •• وفي « القسَم والتعجّب » وسواهما من الأساليب غير الطلبية •• إن مقدمة الإنشاء : تفترض معاني الكلمة فيمن يقيم سنن التفكير •• فما بالك بالفرائض •• ؟ ! لكن تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة •• فكيف إذا كانت العبادة تفكيراً •• وكان التفكر عبادة ؟ !

---

(١) انظر : علم المعاني ؛ للدكتور عتيق ؛ ٧٩ ـ ٨٠ .
(٢) انظر : علم المعاني ؛ للدكتور شيخ أمين ؛ ٨٠ .
وانظر : علم المعاني ؛ للدكتور نعيم ؛ ٣٣

معالجـات ندائيـة

أ - شُعَبُ النحو وشُعَبُ المعنى
ب - أدباء وراء الميكرفون
جـ - الخَضِرُ وعـينُ الحياة ..
د - معالجةُ النداءِ الحيوية في « اللغة والحياة » :

١ - الرحمة والقوة في النـداء والاستغاثة
٢ - صمتكِ المتوهج في أساليب النـداء
٣ - مَن أنادي - وبمن أستغيث.. وكيف أندب ؟

أأقولُ سلاماً يا خَضِرَ اللهِ الحيِّ .. ؟
أحبُّكَ فامنح روحيَ ماءَ حيـاةٍ
وتقبَّلْ مني بعض أزاهـيرك ..
يكتُبُ ماءُ العـينِ تقاسيمَ الزهر المتفتح
في الروضات
تبتلَ شـوقُ الطيب فكان مِظلات ..

١٩٨٧/١٠/٦



- ١ -

في المعالجاتِ الندائية : نرى شُعَبَ النحوِ وشُعَبَ المعنى •• ونرى استناد النوعين إلى بلاغة الموروثِ الممارسة ؛

فمن البلاغة الممارسة : دعاءُ السقيا ، الذي جعلناه مثالاً لمبادىء التجميل •• وهو سبعُ فِقَرٍ ؛ جاء في فِقرتهِ الخامسة :

« اللهمَّ
سُقيَا منكَ •••••
تُنعشُ بها الضعيفَ من عبادكَ
وتحيي بها الميتَ من بلادك •• »

صورة الإنشاء البلاغي ، هنا : صورةٌ ندائية ؛ والمنادى فيها : لفظ الجلالة ، الله ؛ إنما بأسلوبٍ تبادليٌّ ، حذفت فيه أداةُ النداءِ « يا » وعُوِّض عنها بميم مشدَّدة في الآخرِ ••

هذه البنية الندائية : ذات أحكامٍ في علم النحو ؛ وذاتُ أحلامٍ في علم المعاني ؛ وذات بعدٍ ثالثٍ في بلاغة الاستعمال الهادف ••

في النحو : يُسمون تحليلَ البنية إعراباً ، فيقولون :

اللهُ : لفظ الجلالة ؛ منادى مفرد علم ؛ مبنيٌّ على الضمِّ ، في محل نصب بفعل محذوف ، يقدر بمثل : أسأل ؛ أدعو ؛ أرجو ؛ أستسقي ؛

والميم : عوض بها عن « يا » ، أداة النداء الخاصة بمناداة اللفظ الجليل ؛ للتعظيم المكنون في نفس المنادي للمنادى ••

وإعراب هذه البنية : يمثل الحكمَ الثاني من أحكام المنادى النحوية ؛ وهو حكم البناء ؛ وملخّصه :

« يُبنى المنادى على ما يرفع بـه :

أ - إذا كان مفرداً معرفةً ، مثل : يا عليُّ ..
ب - إذا كان نكرة قصد بها معيّن ، مثل :

يا شرطيُّ ؛ خطاباً لشرطيٍّ أمامَك ؛ ..
يا رجلان ؛ خطاباً لرجلين تخاطبهما ؛ ..
يا مؤمنون ؛ خطاباً لرجالٍ يتعبدون ؛ ..

والمنادى المبنيُّ على الحركة أو الحرف : يُعتبر في محل نصب بفعل النداء المقتضى ..

والحكم الثالث من أحكام المنادى الإعرابية : هو حكم المبني ، سماعاً ، مثل : « يا سيبويه ، يا هذا » ..

يبقى المنادى على حركة بنائه الأصلية ؛ ويقال : إنه مبني على ضمٍّ مقدَّرٍ ؛ منع من ظهوره : اشتغال آخره بحركة البناء الأصلية ، في محل نصب [1] ..

أما حكم المنادى الأول : فهو المنصوب لفظاً ومحلاً ؛ إذا كان مضافاً ، أو شبيهاً بالمضاف ، أو نكرة غير مقصودة ؛

مثال المنادى المضاف : يا عبدَ الله .. يا أهلَ الذوق .. فالاسم بعد « يا » : منادى منصوب لفظاً ؛ وهو مضاف ؛ وما بعده : مضاف إليه ..

ومثال الشبيه بالمضاف ، وهو ما اتصل به شيءٌ مما يتمم معناه ؛ كقولهم : يا حَسَناً وجهُه .. يا رؤوفاً بالفقراءِ .. « يا أربعة وأربعينَ - اسماً لرجل » ..

---

(١) لاحظ : الأفغاني ؛ الموجز : ٢٩٢ ؛
وكتب النحو المدرسية ؛ قديمة وحديثة ..

الاسم بعد « يا » : شبيه بالمضافِ منصوب ؛ وجهه : يتمم معنى الحسن ؛ وهو فاعِلُ الوصف في المثال الأول ..

ومثال النكرة غير المقصودة : يا نائماً تيقَّظْ .. يا معلّماً لا تيأسْ من إفهامِ تلاميذك ..

فالاسم بعد « يا » : منادى منصوب ؛ لأنه نكرة غير مقصودة ؛ فالتوجه : يشمل كل نائم .. وكل معلّم ... ولا يقصد معلّماً مُعيَّناً ..

- ٢ -

هذه أحكامُ النداءِ في علم النحو .. وتمكن قراءتها في الكتب المدرسية [١] .. أو كتب نقد النحو [٢] .. وقد أشرت إلى نموذجين لهذين النوعين من كتب النحو ، التي عالجتِ النداء ..

كما أشرت إلى أسلوبٍ ثالث في معالجة النداء النحوية ..
هذا الأسلوب الثالث : نجده في حلقات « اللغة والحياة » ؛

بدىء بتطبيق هذا الأسلوب في « مدارس المقاصد الإسلامية » ، ببيروت ؛ ١٩٦٢ – ١٩٧٠ ..

ثم صدر كتاب : قصة القواعد ، ١٩٧١ ؛ وفيه بسط لأمّات كتب النحو والصرف ، مثل : كتاب سيبويه .. ومغني اللبيب ، وشرح شذور الذهب ، وقطر الندى : لابن هشام .. وغيرها ..

ثم أذيع مسلسل « اللغة والحياة » من إذاعة دمشق ، منذ ١٩٧٦ – حتى ١٩٨٠ ..

---

(١) افغاني ، الموجز : ٢٩٢ – ٣٠٢
(٢) مخزومي ، النحو : ٣٠١ – ٣١١

ثم طوّر إلى « الصوت العربي في لغات أخرى » •• بعـد أن مرّ بتجارب « عام اللغة » ومحاولات جامعية ومجتمعية ، في سورية ، وبلدان عربية كالكويت ، وغـير عربية كإيران ••

- ٣ -

ومما قيل بهذا الأسلوب ، بعنوان : « أدباء وراء الميكرفون » ، جريـدة البعث ؛ (س ٣٢ ع ٤٧٣١ ؛ تاريخ ١٩٧٨/٧/٢٢) :

« يزيح غبار الظواهر عن كنه اللغـة وغوصها في الوجود : إلى البدايات والنهايات وما بينهما ؛ فيصل بك من خلال علاقات اللغة وقواعدها – على المدى البعيد – إلى المطلق » ••

« لا مكان للمصادفة في فلسفة « برنامج اللغة والحياة » ، للغة وامتداداتها في الحياة •• وهو لا يدرس اللغـة من حيث هي حروف لها مدلولاتها في الطبيعة وقيمها الصوتية ، بل يدرسها كعلاقات : لها معادلها الموضوعي في حركة الطبيعة والوجود ؛ فإذا كان العرب قد نطقوا باللغـة : كما ندرسها بقوانينها وقواعدها ، لأنها هكذا أبلغ وأعمق وأجمل ، فهـذا صحيح ، ولكن لماذا هي هكذا : أبلغ وأعمـق وأجمـل ؟

يجيب « أسعد علي » •• في برنامج « اللغة والحياة » : لقيام هذه العلاقات في الطبيعة والإنسان والوجود كله ••• فالإنسان دون أن يدرك ، وربما أدرك : نطق بالشكل الأمثل للغة ، الذي يتوافق مع نفسه وعقله والطبيعة المحيطة بـه ، وعلاقات التغير والتحول التي تحكم حـركة الوجود والإنسان ، والإنسان في الوجـود ••

« إنها فلسفة وحـدة الوجود بمعادلها اللغوي ، وهي الفكرة التي اعتنقها صوفيو الأديان كلهـا ••

« هناك ، إبداع في هذا الميدان : تفتقده معظم كتاباتنا المعاصرة عن اللغة العربية ؛ وصاحبه : يمتلك الرأي والمنهج ..

اللغة والحياة : عمره الاذاعي حوالي أربع سنوات ، والبرنامج في كل حلقة يتناول جانباً من جوانب اللغة أو قاعدة من قواعدها ، يغوص في كتبها وسبب وجودها وامتدادات دلالاتها ، وبالتالي يستخلص أبعاداً جديدة في لغتنا الغنية ، والقول بالجدة ليس معناه الاختراع أو الايجاد من العدم ، بل الكشف عن بُعد جديد من أبعاد هذه القواعد ، أو بالأحرى من أبعاد العلاقات القائمة في صلبها ، مما يغني الدلالات ويخرج المعنى إلى حيز الممكن والمحتمل ، لتتوالد الأسئلة ، وتضيع الأجوبة اليقينية المطلقة ، بينما الكاتب يبحث عن المطلق في الوجود بما فيه اللغة ...

هذه القواعد والعلاقات هي نفسها التي ما زلنا نستعملها في لغتنا الفصحى وندرسها في مدارسنا وجامعاتنا .. ولو سأل طالب أستاذه في المدرسة أو الجامعة : لماذا هذه القاعدة هكذا ؟ لكان الجواب الذي اعتدناه دائما : هكذا نطق العرب قديماً ، وقعدت القواعد على أساس ما نطق أولئك الذين لم تشب لغتهم شائبة ، وكان من جراء ذلك أن رسخ في الذهن أن أولئك الأجداد القدماء لا يجارون في سعة الخيال ، ودقة التعبير ، وجمالياته ، ونحن على مرّ القرون نحتذي حذوهم .. هكذا تعلمنا ، وهذه هي الأجوبة التي اعتدنا على سماعها ، بينما برنامج اللغة والحياة يريد أن يخرجنا من العادة إلى الأحكام المترتبة عليها ، فهو يلتزم بالقواعد والعلاقات القائمة في اللغة ، وبنطق القدماء لها ، وتقعيد القواعد على أساس ذلك النطق ، لكنه يضيف بأن يتساءل عن سبب النطق هكذا وهل هو محض مصادفة أم أنه يخضع لقانون طبيعي ، له معادله في اللغة والحياة .. ! ولكل تساؤل عنده جواب ، وأجوبته تساؤلات ، وليس عنده أمور وقفية على السمع ، وتقعيد القواعد على أساس ما سمع .. ! .

في تاريخنا الثقافي اللغوي نقطة مضيئة متميزة على مر العصور ، لقيت بعض الاهتمام في الدراسات الأكاديمية ، وهي دراسات ابن جني في اللغة .. هذا

العبقري درس اللغــة بعمق فريد وذكاء نادر ، ووضع بدراساته أسساً فيها مـن الخصوصية الابداعية ما يستحق إعادة النظـر كلياً في لغتنا على ضوئها •• ومع الأيام تتناسى الدراسات الأكاديمية هذا العبقري ••• والتفتُّ إليه الآن وأنا بصدد الحديث عن اللغــة والحياة – برنامج – الدكتور أسعد علي ••

ابن جني أعطى للحرف معنى ، ودرس أصوات الحروف كلها ، وحدد لكل منها قيمة صوتية ، ونقل الحروف في الكلمة الواحدة من مواضعها ، ولاحظ المعاني المشتركة من اجتماع هذه الأحرف كيفما اجتمعت ، إذ جمع القيم الصوتية لأحرف الكلمة ، ومزجها بترتيب أحرف الكلمة في كل حــالة ، وخرج بترتيب جديد هو مزيج من المعاني تلك ، لكنه مزيج لا تذوب فيه الجزئيات ، بـل تجتمع ويحافظ الكل على خصائص الأجزاء ، فيبقى التركيب في دلالاته •• ثم إنــه بوضع القيم الصوتية للحرف يقــارن ذلك مع الطبيعة المحيطــة بالإنسان ، ويلاحظ التداخل والتقارب ما بين الحرف ثــم الكلمة ومعناها ، ودلالتها في الطبيعة •• وتلك كانت بدايــة ••• !

أما الشمول ، والمنهجية المذهبية في تطبيق هــذه النظرة ، فهــذا ما يحاول تحقيقه حالياً الدكتور أسعد علي في برنامجه – اللغة والحياة – • »
انتهى كلام المراقب في جريدة البعث ١٩٧٨

هــذه الملاحظات : في صميم رسالة المعنى ، التي نصورها بعلم المعــاني ، عموماً ؛ وبرسالة النداء نموذجاً •• وكاتب هذه المقالة الذي وقع عليها باسم الفاعل « مراقب » اعترف لي بأنه « عادل اليازجي » ••

وتلاحظ النظرات النافذة إلى رسالة المعنى في كل قاعــدة ؛ أمثال ما كتبه : عبد الهادي أبو ريدة ؛ وموفق بني المرجة ؛ وسعيد فرحات ؛ وعصام نور الدين ؛ ومها العطار ؛ وهند هارون •• وآخرون [١] ••

---

(١) من نظرات الدارسين حــول برامجنا اللغويــة :
أ – عــلم نفس اللغــة العــربية وطبيعتها الفنيــة ، بالألفــاظ والمعــاني ؛ سعيد فرحات : الكويت ؛
القبس ؛ ع ١٦٦٣ ؛ ١٩٧٧/١/٥ =

- ٤ -

هنا ننظر بأنفسنا إلى « النداء وفروعه » في ثلاث من حلقات « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ؛ وثلاثتها : تشكّل نموذجاً من « القصص اللغوي والثقافي » عبر « رسالة النـداء » في المستوى النحوي المتجدّد •• ولنجرب قراءة الحلقات (٧١ – ٧٣) •• كما يمكن التجربة مع حلقات أخرى بقضايا أخرى غير النداء •• مثل : « ليلة القدر في ظروف الزمان والمكان » (حلقة ٦٨) ••

هـذا من أساليب النحو في معالجة النداء •• فماذا يكشف فيهـا لأساليب عـلم المعاني ؟ !

- ٥ -

إن التأمل بأساليب النداء عند الباحثين في النحو •• وعند الباحثين في المعنى : يضعنا في ملتقى « المعاني والنحو » •• والإفاضة في « النـداء » : مقصودة ؛ لأنني أردت التأكيد على طريقة النظر في أية قضية من قضايا علم المعاني •• وثـم في أية قضية لغوية ، أو تراثية ؛ فلا بد من : التقصي والتأمل ؛ ••

رأينا ثلاثة أساليب النحو : مدرسية •• نقدية •• حيوية •• وهنا : نرى ثلاثة نماذج حديثة من معالجة النداء ؛ وثلاثتها من المعالجة المدرسية •• وقد تقدّم

= ب ــ العـربية لغـة الحضارة الإنسانية عبر التاريخ ؛ موفـق بني المرجـة ؛ الكويت ؛ الرأي العام : ١٩٧٧/١/٥

ج ــ وأيضاً عـام اللغـة ؛ عبد الهـادي أبو ريدة ؛ مجـلة البيـان ؛ الكويت : ع ١٣١ س ١٩٧٧

د ــ تقريب النحو بتحديث شواهده : عصام نـور الدين ؛ بيروت : السفير ، ١٩٨٠/٣/١٧

هـ ــ لغـة العـين ؛ عفيفة حصني ؛ مجـلة البيـان الكويتية ؛ ع : ١٩٧٧/١٣٢

و ــ مسرح اللغة والحياة : إخراج أحمد سالم ولينا باتع. إذاعة الكويت

تناول النـداء بالأسلوب النقدي : فيما دُعِيَ « رسالة النداء » ؛ وظهرت لنا مستويات الرسالة في شمولها •• فليُعَدْ النظرُ فيها مراراً ، وخصوصاً في نتائجها ؛ لأن ذلك يتيح : اكتشافَ قضايانا الموروثة ، أصيلة في طبيعة الحيـاة والحيّ ، التي هي طبيعتنا ••

معالجات النداء المشار إليها : موجودة في كتب المؤلفين الخمسة : نعيم •• عتيق •• أمين •• وقد تقدم التوقف معها والإشارة إلى أهمية المقارنة فيما بينها : لإنشاء خلاصة ، تحذف المكرر ، وتبقي على جوهريّ ما رآه الجميع لهذا الأسلوب الندائيّ من أساليب الإنشاء الطلبيّ •••

إعادة النظر بهذه الصورة : تمكن من رؤيـة الملتقى بين المعنى والنحو •• وتلهم بلاغة هذا الأسلوب •• بل تحرض على إبلاغ رسالته ••

- ٦ -

أخذني هذا التحريضُ : منذ ربع قـرن ؛ عندما بدأت تعليم النحو والبلاغة لطلاب « المقاصد الإسلامية » ببيروت •• وتعاونت مع شبان صغار في « تأسيس القصص اللغوي » •• وفي محاورات متكررة ، صبر عليها بعضنا •• ونفـر منها آخرون : تفهمت « مقتضى الحال » بين النساء والرجال ، من مختلف الأجيال •• وسار بي التفهم : مسارات ومدارات ، علمت من محصّلِها ما لم أكـن أعلم •• وبنيت عليها : نية الإهـداء ؛

من يقـرأ إهداء « قصة القواعد » ١٩٧١ : يلمح أشعة سرٍّ ••

ومن يـقرأ إهداء « فن المنتجب وعرفانه » ١٩٦٧ : يلمح أشعة فجر سابق ••

وعندما تصل حلقات « اللغة والحياة في شاعرية القواعد » ، وهي شـاملة لمباحث النحو والصرف ، إلى القراء : سيدركون من الإهداء كيف تجري المنابع إلى رؤوس الأشجار •• وإلى أجفان العيون •• إن الحـركة مختلفة عن المألوف ؛

لكنها واقعية لا ينحرف عن صدقها موجود •• وإذا اختلفت الآراء في ذلك : فمرد الاختلاف إلى مستويات اتصال المختلفين بالحقائق العينية كما هي •• أو بظلالها •• أو بانعكاساتها •• أو بصورها •••

أشير إلى حكاية ساطعة الوضوح من سورة الكهف ؛ ففي ثلاث وعشرين آية منها (٦٠ – ٨٢) : يلتقي كليم الله موسى ، عند مجمع البحرين ، بعبدٍ مُعلَّمٍ تعليماً خاصاً من عباد الله ، هو الخَضِرُ ، المشهور : بالخضر الحيِّ ؛ ويرجو موسى من الخضر أن يقبله متبعاً : ليُعلمه رشداً مما علمه الله •• وينبه الخضر إلى شرطيِّ الخبرة والصبر لتكون استطاعته التعلم الرشدي •• وتتم التجربة بأسلوب يفتح لعلم المعاني : أبواباً تقوِّم اعوجاج الأساليب بمنتهى الرضى والحبِّ ؛ لأن مستويات المعنى : مثل سلم أوله في الأرض وآخره في السماوات •• والسالكون بتذوق مظاهر المعنى : يسعدهم اكتشاف الدرجات العلى •• ويتوددون لمن هم خزنتها : فيتبعونهم ليتعلموا علماً جديداً بتواضع كليم الله المؤثِّر ••• ثم بلهفة أهل الذوق الطامحين إلى تناول الكأس من يد الخضر الحيّ ، سادن « عين الحياة » ، كما فعل « حافظ الشيرازي » من الشرق •• وكما فعل « غوته الألماني » من الغرب••وكما فعل غيرهم من الشعراء•• أو العلماء •• أو الأطباء •••

ما رأيته لي ولطلاب المعاني : في البلاغة •• وفي الوحي ••• وفي التعبير عموماً •• أن أعترفَ بتقديم « اللغة والحياة » لمن أحسست حيوية شرابه : تنشيني في كل محاورة من محاوراتها ••

« أأقول : سلاماً يا خضر الله الحيِّ •• تقبَّلْ منِّي بعض أزاهيرك •• يكتب ماء العين تقاسيم الزهر المتفتح في الروضات •• أراك بكل الأكمام حنانَ الماء على البتلات •• تبتلَ شوقُ الطيب ليكتبَ فوق الأزهار مظلات الطيبِ •• كما تنهض روح المعنى بالكلمات •• أحبُّ التعبير عن الحب المسرور •• ولكن الطثورَ يطير على البحر المغمور برقٌ مستور في معنى الماء الساري في القوة والقوتِ •• أموت بهذا الحبِّ لأبقى حيّاً يا خضر الله الحيِّ •• أقول سلاماً وتحيَّاتٍ •• من كل الأحرفِ والكلماتِ •• ومن كل الحركات وكل السكناتِ ••

فصدقني باللفظ ومعنى اللفظ ومعنى المعنَى •• لِسرار القمر البعثُ هلالاً •• ومــدار الحالات لعين القلب يُجنّح بالأوقاتِ •• يقــول حكاياتٍ •• ويقول لعشاق المعنى بفتوّةٍ هذا الطيب الطائر بالنسمات •• يزور صدوراً باللطف ويعطي لرئات الخلقِ نفوسَ النسماتِ •• ليكتبَ بالحب وبالذوق شبابُ الأوقاتِ : أحبك فامنح روحيَ ماء حياة • »

هــذا المقطع من الإهداء ، الذي أقدّم به مسلسل « اللغــة والحياة » في قصصه اللغوي •• لهذا المعلم الحيّ : الذي لقيه موسى عند مجمع البحرين •• وكان ما كان من دروس الاتباع لتعلم الرشد ••

« قال له موسى : هل أتَّبعك على أن تعلمني مما عُلِّمتَ رُشْداً ؟

قال : إنك لن تستطيع معيَ صبراً •• وكيف تصبرُ على ما لـم تُحِطْ بــه خُبراً ؟

قال : ستجدني إن شاء اللهُ صابراً ولا أعصي لك أمراً »

الكهف : ٦٦ ـ ٦٩

- ٧ -

فلنصبر على « الرحمة والقوة في النداء والاستغاثة » ؛ لعلنا نبلغ رشداً من معاني « رسالة النداء » في قصصنا اللغوي •• والله الحيُّ يعين ••

الرحمة والقوة

في

النـــداء والاستغاثة

(٧١)

– « تمرُّ الأيَّامُ .. والناسُ همُ الناسُ .. والأشياءُ هيَ الأشياء .. فكيف تُبصِرُ حسانَ الدَّهشةِ في طرقاتِ المألوف ؟ .. كيف تجعَلُ الحياةَ فرَحاً غامراً ينهضُ مِن سجونِ الأحزانِ ؟

لقد تابعتُكَ في « مسيرة الجمعةِ الأخيرة » ..

رفاقُكَ الأشــدَّاء مِنَ الحكماء الأذكياء ، ينصتونَ إلى دقَّاتِ قلبكَ كيف تَعزِفُ الزَّمان في المكان .. »

– كذلكَ قــالَ سطوعُ عينيكِ وأنتِ تكاتمينَ أمواجَ الصَّمتِ .. « وجهُكِ دفترُ مذكَّراتٍ .. كتبَ اللهُ به أجملَ أسراره » .. كما كتبَ في قلوبِ الحكماء من رفاقي الأشدَّاء موسيقى الرَّحمةِ والقوَّة ؛ ألم يُدهشْكِ حديثُ العصفور عندما أصغينا إلى القصَّةِ معاً ؟

« يتمهَّلُ القــائدُ العسكريُّ بسيارته لكي لا تقتــلَ عصفوراً ، فيذكِّرُ بأبي العلاء ، عندما يتحدَّثُ عن مخلوقاتِ اللهِ الضعيفة ، كقوله :

تسريحُ كفِّكَ برغوثــاً ظفــرتَ بــه
أجــلُّ مِنْ درهمٍ تُعطيهِ محتاجا ..

هذا القائدُ المملوءُ بالرَّحمة على ضعافِ المخلوقاتِ تعرفه الدُّنيا في أيَّام الشدائدِ جبَّاراً يقتلعُ عزمُه جبالَ الأحداثِ ، فيذكرنا بالمتنبِّي عندما يَصِفُ قوَّةَ البطلِ القوميِّ وهو يَردُّ عن قومه هجماتِ الأعداءِ ، فيقول :

ضممتَ جناحيهم عـلى القلبِ ضمَّةً
تموتُ الخوافي تحتها والقـوادمُ .. »

كانَ سطوعُ عينيكِ يملأُ سماءَ الحركة بالتطلّع والتأمّل في مغزى اتحاد الرَّحمة والقوَّةِ في قلبٍ واحد .. لكنَّكِ اتجهتِ إلى « صبايا الوزال وأشجار المفعول على نهـرِ الإعراب » ، عندما صرنا على مشارفِ « عـينِ الجديدة » .. وصرختِ : هذه « اليابسةُ الخضراء » عندما وصلنا إلى بيروت .. وطال حديثكِ الصَّامتِ فهـل تتكلمين ؟

ــ قلتِ : لماذا تشتغلُ بصمتي عـن صمتِ الأبطالِ من أصدقائك ؟ إنَّ مِن رفاقكَ مَن عشق الصَّمتَ وهو معبَّأ بأسرارِ الكلامِ وطاقاتِ الحركة .. فلماذا لا تطارد صمتَ البطولةِ الصَّامتةِ وتتركُ صمتَ صبايا الوزَّال ؟ لعلَّكَ تريدُ تخبئة البطولة فيهم ؛ لأنها منك تضفيها عليهم كما تجعل اليابسة خضراء ..

ــ وضحكنَا معاً ، ونحن في حديقـة « عروس البحر » .. ــ وقلتُ . : لا أطاردُ صمتَ البطولةِ ولا صمتَ صبايا الوزَّال ؛ لأنَّ أشجار المفعول تملأُ بالنداء والاستغاثةِ فضاءَ المكان .. ألا تسمعين النـداء ؟

حركتِ غيومَ الصَّمتِ فانهمرَ مطـرُ الصَّوتِ يقول :

ــ « النِّداءُ شجرةٌ جـديدةٌ مِن أشجار المفعول على نهـرِ الإعراب ، تتمايَلُ ، إعراباً وبنـاءً وترخيماً ، وفي كلِّ التمايلاتِ تضيءُ قناديلَ النَّصبِ ، فيقولونَ في وصفِ النـداء :

أحبُّكَ يا جمالَ الطبيعة ِ في كلِّ موجـود ..

أحبُّكَ يا مبدِعاً مجتمعَ الإنسان أنَّى وجدتَ ..
أحبُّكَ يا إنساناً يرفَعُ سويَّةَ بني جنسِه بقوله وعمله ..
أحبُّكَ يا قلبُ ففي تقلباتكَ دورةُ الحياةِ الخالدة ..
أحبُّكَ يا صاحِ ففي الحبِّ تصحو السَّماءُ وتصبحُ منزلَ النجوم والكواكبِ وحديقةَ القمر .. وروضةَ الشمس .. » ..

— رفعتُ مظلَّةَ انتباهي لأستقبل نداءَ المطر في ما يُشبهُ « ليلة القدر » ومواسِمَ « الساعة الخضراء » .. وهمستُ لكِ :

أعيدي « محبَّة النـداء » ، ففي نشيد الحبِّ أصولُ النداء الجوهريَّة ، فالمنادى ينصَبُ بالفتح الظاهر إذا كان : مضافاً ، أو شبيهاً بالمضاف ، أو نكرةً مجهولة ، كمـا في عباراتِك الثلاثِ الأولى : « يا جمالَ الطبيعة .. يا مبـدعاً مجتمعَ الإنسان .. يا إنساناً يرفع سويَّة بني جنسه » ..

ومن المنادى ما يبنى على ما يُرفَعُ به ، كما في العبارة الرابعة : « يا قلبُ » .. قلبُ : منادى مبنيٌّ على الضمِّ في محلِّ نصبٍ لفعلِ النداء المحذوف ، لأنـه اسـمُ علم مفـرد ..

والمنادَى يُرخَّم بحذفِ آخره ، كما في عبارتك الخامسة : « يا صاح » .. صاح : منادى مرخَّم ، أصلُها : يا صاحبُ .. وهو مبنيٌّ على ضمِّ الحـرف المحذوف في محل نصب ..

هـذه شجرة المفعول الندائي في الإعراب والبناء والترخيم .. فهـل ترين جارتها المستغيثة ؟

— تمـرُّ الأيَّام .. والنَّاسُ همُ الناسُ .. والأشياء هيَ الأشياء .. لكنـك تُغيِّرُ النظـرةَ إلى النَّاسِ والأشـياء ؛ فتكشفُ في النَّاسِ معنى النَّوسَانِ ، « ناس ينوسُ نوساناً » وتصِلُ النوسانَ بالحركة فـإذا بالناس ذراتُ الذريَّة المنتقلةَ على بحر الزَّمان ببواخِرِ المستقبل الباحثِ عن « الساعة

الخضراء » في « ليلة قدر » قادرة •• وتكتشف في الأشياء معنى المشيئة ؛ فالشيءُ كلٌّ شيءٍ ، مهيَّأ لتلقّي الرَّغبةِ الإنسانيَّة المخلصة •• كلٌّ شيءٍ يُصغي إلى الإنسانِ وينتظرُ رغبتَه ليتحوَّل كما تريد له المشيئة ••

– كنتِ مستغرقةً في فهمكِ المتعمّقِ للكلماتِ المكرَّرة •• كانت عيناكِ تسبحانِ في نور « ليلة القدر » ، كما تسبحُ عيونُ الشباب في بحار انتباهٍ يبحثُ عن معرفةٍ جديدة •• ألم يكن ملتقى « بدء الدروس الجامعيةِ » غايةً في الإثارة • ؟ ألم تريْ سماءً تنفتحُ من عيون الطلاب ••

لقد قرأتُ في عيونهم سماءَ التطلّع وأرضَ الخِصبِ •• أما سمعتِ موسيقى الأغصان الطموحة وهي تستغيث باللغةِ والحياة ؟

أدرتِ وجهكِ ، كأنّكِ تخلّصينه من جاذبيّةِ عالمٍ جديد ، وقلتِ :

إنَّ شجرةَ الاستغاثة تجاورُ شجرةَ النداء ؛ بل هِيَ نوعٌ جديدٌ من أنواعِها •• وصحيحٌ ما يقولون في تحديد الاستغاثة :

« فالاستغاثةُ نوعٌ من أنواع النداء غايتُها دفعُ الشدّة الواقعة ، وصيغتُها تتكوَّن من : حرف النداء « يا » ؛ ومن المستَغاثِ المجرور بلامٍ أصليَّةٍ مبنيَّةٍ على الكسرِ •• ومن أمثلتها : يا لَلمعلّمِ لِلطالِبِ ••

يا : حرف نداء •• اللام : حرْفُ جرٍّ مبنيٌّ على الفتح •• المعلّم : اسم مجرور باللام ، في محلٍّ نصب ؛ لأنه منادى مستغاثٌ بـه •• والجار والمجرور يعلّقان بحرف النداء لأنّه بمعنى الفعل « أدعو أو أنادي » •• أو بالفعل المحذوف مباشرة •• للطالب : جار ومجرور ، يعلّقان بما علّقَ به المستغات وجارُّه •• والطالب : مستغاث له •• فهل يُغاث من أخطاء التفكير ومن أخطاء التعبير ؟

– كيف عبّأت بمثالٍ صغيرٍ مشكلاتٍ تربويّةً عديدةً ؟ كأنَّ مثالَكِ اللغويَّ تعبئةٌ لحياةٍ جديدةٍ تريدينها منقذةً من أخطاء التفكير وأخطاء التعبير •• إنّكِ عبأتِ في المثالِ قوّةً قادرةً يمكنُها أن تكونَ فعلاً منقذاً •• فهل أردتِ هذه المعانيَ الثلاثةَ في قولكِ : يا لَلمعلّمِ للطالبِ ؟

ضحكتِ ولم تقولي شيئاً •• ففهمتُ موسيقَى الضحكِ تجاوزاً يُؤكِّدُ إيحاءاتِ قولكِ : « يا لَلمعلِّمِ للطالبِ » •• ففي هـذا القول معـانٍ من : التعبئةِ النفسيَّةَ والاجتماعية •• ومن القوَّةِ والفعل •• ومن الكلمة المنقذة •• وإدراكَ « فنِّ الكتابة » كفيلٌ بجعلِ أساتذةِ المستقبل يُحرِّرون هذه المعاني من العبـارة ••

لماذا انتبهتِ كمن يَستيقظُ من حـلم ؟

— قلت : لأنَّ مصطلح « فن الكتابة » ، في مجالِ أشجار النداء والاستغاثةِ شدَّني إلى قيمةِ كلِّ حرفٍ •• فلامُ المعلِّم المستغاث ، قد تحذفُ وتنوبُ عَنها ألفٌ في آخره •• ويجبُ بناؤها على الفتح أحياناً ، كما يجب بناؤها على الكسر أحياناً أخرى •• كما يجوز فتحها وكسرها في أماكن أخرى ••

ومثلُ هـذه الملاحظةِ تصحُّ في لام الطلابِ المستغاث لهـم •• فكسرها واجبٌ حيناً وفتحُها واجبٌ حيناً آخر ••

إنَّ تغيُّرَ حركةِ اللاَّم يَعني تغيُّرَ المعنى •• وفي فـنِّ الكتابةِ يُراعي الأذكياء هـذه الفروقَ الدقيقةَ العميقة ؛ فكيفَ تتـأمَّلُ تَمايُلَ « شـجرة الاستغاثة » ، وهي ترسُمُ فتحَ اللاَّمين وكسرَهما ؟

— كانتِ المركبةُ تَطوي المسافةَ طيّاً •• وكانت صبايا الوزال في عـين الجديدة •• وأشجارُ المفعول على نهر الإعراب •• واليابسةُ الخضراء على مقربةٍ من بحـر بيروت •• وليـلةُ القدر تخترق ضبابَ المكان •• كان كلُّ هـؤلاء الأصدقاءِ من الأشياء يتراجعونَ إلى الوراء •• وكان نداءُ الوصولِ أقوى مِنَ استغاثةِ لَام المعلِّمِ ولامِ الطلابِ ، فوعدتُكِ أن نتأمَّلَ مـرَّةً أخـرى في رقصة اللامين بين الكسر والفتح لتجسيد موسيقى «فن الكتابة » ، لغة وحياةً •• فهـل تعدين بعيد العودة •• ؟

إلى اللقـاء ••

صمتك المتوهج
في
اساليب النداء

(٧٢)

– تمرُّ الأيّام •• والنّاسُ همُ الناسُ •• والأشياءُ هيَ الأشياء ••
لكنك تقرأ اليومَ قراءة الشروقِ المجدّد فكلُّ يومٍ عندك ، حياة" جديدة" ؛ والحياةُ ، عندكَ ، فرَح" يُنادي للسّعادةِ من كلِّ مخلوق •• كيف ترفعني لأظلَّ في مرتفعَ الحياةِ السّعيد ؟ إنّ قلبي « نداء واستغاثة » • فمتى تُقبلُ « الرّحمةُ والقوّة » على قلبي ؟

– كذلكَ قال صمتكِ المتوهّجُ •• أتعرفين لغةَ الصّمتِ المتوهّج ؟ عندما يدقُّ القلبُ دقاتِ الطموحِ إلى النّجاح ، وتتموّجُ في الجبين أمواجُ التفكير ، وتتلألأ في العينين مجرّاتُ الحنينِ •• عندما يَحنُّ الوجودُ وتشعرينَ أنّ الموسيقى تنبعثُ بحنانٍ من كلِّ مخلوقٍ •• عند ذلك ترغبين بالصّمت وتتحدين بالفرح الكليّ وتكونين في حالةِ صمتٍ متوهّج •• لكن وهجَ الصّمتِ يُشعلُ في الإنسان نداء الحنين •• فكيف يفهَمُ الناسُ النداء ؟ وكيف تتحوّلُ الأشياءُ نداءً ؟ كيف يُبصَر وجهُ المنادَى في كلِّ الوجوه ؟

– أومأتْ عيناكِ بموسيقى الإشارة ، فهمتُ أنّكِ تقولين :

ليتكَ لا تترجِمُ الموسيقى •• بل ليتكَ تقتربُ من شاطىءِ الوضوح •• أشعرُ أنّ الصّمتَ المتوهّجَ مُحرِق" •• وأعرف أنّك ستزيّنُ ليَ الحريقَ •• لقد قلتَ لي مرّةً : إنّ حروفَ الحريق تتضمّن مربّعاً يُنادي الباحثين عن

ارتواءٍ كلّيٍّ .. لقد أدهشني تحويلك حروف الكلمة الواحدة إلى كلمتين هما : حقٌّ وريٌّ .. أيُّ حريقٍ ذلك الذي يتضمَّن الحقَّ والريَّ .. ؟

قلتَ لي : عندما نحرق الكسل والتراخي والأنانيَّة تسطَعُ شمسُ الحقِّ فينا .. وتندفقُ ينابيعُ الريِّ منَّا .. عند ذاك نكونُ للآخرين دعوةَ حـقٍّ وارتواء .. قبلتُ معكَ يومذاك .. لكنني عندما ابتعدتُ عنكَ قليـلاً عادت الأشياء إلى طباعـها .. فالحريق هو الحريقُ .. والناسُ هم الناسُ .. والأشياء هيَ الأشياء .. فهل تصغي إلى ندائي المجدَّدِ ؟ وكيف تـُعلـّمني قاعدة النداءِ العاديِّ الملبَّى ؟ قلبيَ يستغيث بروح الحيــاة لتمنحني الحقَّ والريَّ وتحقيق الذات .. فهل في اللغــة إغاثة" لحيٍّ يستغيث ؟

ـ في اللّغةِ أصولُ حياة ؛ والنّداءُ أصل" من هذه الأصول .. وتعرفين أنَّ المنادى شجرة" من أشجار المفعول على نهر الإعراب .. وهذه الشجرة الندائية تتمايلُ إعراباً وبناءً ؛ فهل تذكرين أشكالَ إعرابها وأشكال البناء ؟

ـ قلتِ : هذه الصّياغةُ قريبة" واضحة" .. وأذكرُ أنَّ المنادى يُنصَبُ بالفتح إذا كانَ مضافاً ، أو شبيهاً بالمضاف ، أو نكرة غير مقصودة .. ويبنى على ما يرفَعُ بـه إذا كان مفرداً علمـاً أو نكرة مقصودةً .. ومن أناشيد الشروقِ الندائية على بحيرةِ البناء ونهر الإعراب :

أحبّك يا شمسُ .. يا أمَّ الوجودِ .. وأنتِ يا نجمَ .. يا عينَ الصَّباحِ ..
أحبّك يا طبيعةُ .. يا مفتّحةً حياةَ الخلائق .. وأنتِ يا فتـاةُ تشبَّهي بروح الطبيعة ..
أحبّك يا أرضاً .. تختزنُ للكادحينَ مواسِمَ الغنى .. أجيبي ندائي ..

ـ أستمهلك بامغنّيةَ الصَّباحِ ؛ لنتأمَّلَ في معزوفةِ الشروقِ ، ففيهـا ثلاثـةُ أحوالِ المنادى المعربِ المنصوب ، وفيها حالتا المنادى المبنيِّ على الضمِّ في محلِّ نصب ، وفيها حالةُ المنادى المرخَّمِ .. وفيها ما يؤصّلُ قاعدة المنادى لحياةٍ عليا .. فهل اجتذبكِ نداءُ الأصولِ إلى رحمة الفروع ؟

– يبنى المنادى على ما يُرفَع به إذا كان مفرداً علماً أو نكرةً مقصودة ..
والعلمُ المفردُ ما ليسَ مضافاً ولا شبيهاً بالمضاف .. يا شمسُ .. ياطبيعةُ ..
والنكرة المقصودة هي التي تُقصَدُ قصداً في النداء فتميّزُ من النكرات ، ومثالُها من نشيدِ الشروق : يا فتاةُ تشبّهي بروح الطّبيعة ..

وأمثلةُ المنادى المعرب المنصوب : يا أمَّ الوجودِ .. يا عينَ الصَّباح .. يا مفتّحةً حياةَ الخلائق .. يا أرضاً أجيبي ندائي ..

ومثالُ المنادى المرخَّم : يا نجمَ ، والأصل : يا نجمةُ .. حذفت التاء للترخيم .. نقول : نجمَ : منادى مبنيٌ على ضم الحرف المحذوف للترخيم في محل نصب بفعل النداء المحذوف ، والتقدير : أنادي نجمةً ، والمقصودُ بها نجمةُ الصّبح ..

عندما ذكرتُ نجمَةَ الصّبحِ التمعَ بريقُ الحياة في عينيك ، فكشفَ آفاق الشعور وينابيعَ السّرور .. لكنّكَ سرعانَ ما طويتِ البرق في يد الذوق ، وقلتِ :

– هذه أصولُ النداء تتفتّح بألوانٍ وألوانٍ من بناء الجملةِ الملوّنةِ بنداء الأسماء : المقصورة والمنقوصة ، أو الموصولة والإشارة .. أو الضمير والوصفِ بابن وابنة .. أو المضاف إلى ياء المتكلّم .. أو المعرّفِ بالألفِ واللام .. أو أيٌّ وأيّةُ .. أليس الأصلُ واحداً في جميع الصّيَغ ؟

– مِن أناشيد الشروقِ الندائيةِ ، أنشدتِني بين صبايا الوزّال نشيدَ أناشيدِ السّعادة ، قلتِ فيه :

١ – يا سعيدُ .. يا سعيدان .. يا سعيدون .. تأمّلوا فرحةَ الصَّباح ..
٢ – يا سعيدُ بنَ مسعودٍ .. تأمّلْ نشوةَ النّجاح ..
٣ – يا أنتَ .. يا مصطفى .. يا هؤلاء .. يا مَن يحبون الآخرين .. يا راضي .. كيف ترون موسِمَ الرّياضِ ؟

٤ – يا صديقي على الحياةِ أعنِّي أيُّها الحبُّ بالسَّعادةِ صِلْني

٥ – يا أللهُ يا بديعَ السَّماواتِ والأرض •• يا ربُّ •• يا نورَ الأنوار نوِّر حياتي ••

– تأملَّتُ موسيقى النشيد ووصلتُ الأمثلةَ بأصولِ النداء ، فبدَتْ لنا صياغةُ القواعدِ للغةِ والحياة :

في المثالِ الأوَّلِ : يا سعيدُ •• يا سعيدان •• يا سعيدون •• بُني المنادى المفرد العلم على ما يرفعُ به في محلٍّ نصبٍ •• فبنيَ على الضمِّ •• ثمَّ على ألف التثنية •• ثمَّ على واو الجماعة ••

في المثالِ الثاني : يا سعيدُ بنَ مسعود •• جاء العَلمُ المفردُ موصوفاً بابْنٍ ، مضافاً إلى عَلَمٍ أيضاً •• فبنيَ على الضمِّ : « سعيدُ » •• ولنا حقُّ البناء على الفتح فنقول : يا سعيدَ بنَ مسعود •• سعيدَ : منادى مبنيٌّ على الضمِّ المقدر ، منع من ظهوره حركةُ الاتباع ••

في المثال الثالث : جاء المنادى : ضميرَ المخاطبِ « أنتَ » •• وجاء مقصوراً ومنقوصاً •• وفي الإعراب يقال :

يا أنتَ : منادى مبنيٌّ على ضمٍّ مقدر ، منع من ظهوره حركةُ البناءُ الأصلية ، في محلٍّ نصب ••

يا مصطفى : منادى مبني على ضمٍّ مقدر ، منع من ظهوره التعذر في محلٍّ نصب ••

يا راضي : منادى مبنيٌّ على ضمٍّ مقدر ، منع من ظهوره الثقل ، في محلٍّ نصب ••

ولنا أن نحذف ألف المقصور وياء المنقوص ونقدرَ الضمَّ عليهما رغمَ الحذف ••

وينادى اسمُ الإشارة نداءَ العلم المفرد ، فيقال : يا هؤلاء انتبهوا •• وكذلك الموصول فيقال : يا مَن أحبَّ الآخرين لكَ الحبُّ •• هؤلاء : منادى مبنيٌّ على ضمٍّ مقدَّر منع من ظهوره حركة البناء الأصلية •• مَنْ : اسمٌ موصول ، مبني على ضمٍّ مقدر منع من ظهوره وضع البناء الأصلي ••• فكيف تقدرين أصول الإعراب في أمثلة النداء الأخرى ؟

– تقولين : إنَّ النكرةَ المقصودةَ مثلُ العلمِ المفرد في الحكم الإعرابي ، تُبنى على ما تُرفَعُ به ، وإذا كانتِ اسماً منقوصاً أو مقصوراً عوملت معاملة العلم المفرد •• وإذا كانت موصوفةً فالأغلبُ أن تُنصَبَ ، فيقال : يا طالباً ذكياً رزقكَ اللهُ معلّماً مخلِصاً صادقاً وفيّاً •• طالباً : نكرةٌ مقصودةٌ ، منادى منصوبٌ بالفتحةِ الظاهرة ، والأصل أن تكون النكرة المقصودة مبنيّةً على الضمِّ في محلِّ نصب •• تغيَّرَ الوضعُ ، هنا لأن النكرة المقصودة وُصِفَتْ ••

– وماذا تجدين في أصول النداء في المثال الرَّابع من نشيد الشروق ؟

– أنشدتِ المثالَ ثانيةً : يا صديقي على الحياةِ أعنّي
أيّها الحبُّ بالسّعادةِ صِلْني ••

– فبانَ في المثالِ نداءُ المضافِ إلى ياء المتكلم •• ونداء أيّ •• فهل لهذين الأسلوبين ، في النّداء ، حالةُ إعرابٍ خاصّة ؟

– قلتِ : يا صديقي •• أيّها الحبُّ •• يُعربانِ إعراباً تطبيقيّاً ، يقولون فيه :

صديقي : منادى منصوب بفتحةٍ مقدَّرة على القاف ، منع من ظهورها اشتغالُ المحلِّ بحركة الجرِّ المناسبة للياء •• والياء : ضمير متصل مبني على السكون في محلِّ جرِّ مضاف إليه •• ولياء المتكلّم هذه وجوهٌ تؤثّر على المنادى ، منها :

أ – أن تبقى مبنيّةً على السكون ••

ب – أو أن تبقى وتُبنى على الفتح .. فنقول : يا صديقيَ ..

جـ – أو أن تبقى وتُبنى على الفتح ، ثمَّ يُفتَحُ ما قبلها وتقلَبُ ألِفاً ، ويجوز أن تُتبَعَ عند الوقفِ بهاءِ السكت : يا صديقا .. يا صديقاه ..

صديقاه : صديقَ : منادى منصوب بالفتحة الظاهرة .. والياء المنقلبة ألِفاً ضمير متصلٌ مبنيٌّ على السكون في محلِّ جر مضاف إليه .. والهاء : هاء السكت لا محلَّ لها من الإعراب ..

د – ويجوز حذفُها وإبقاء الكسرة التي قبلها دليلاً عليها : يا صديقِ أعنِّي ..

هـ – يجوزُ حذفُها وبناءُ ما قبلَها على الضمِّ ، فنقولِ : يا صديقُ أعنِّي..

– أومأتُ إليكِ أن تتأمَّلي المسافةَ التي قطعناها في تلبيةِ النِّداء .. فالأشجارُ الخضرُ تَغمُرُ شاطِئَي الطريقِ .. وأمامنا امتدادٌ ندائيٌّ فسيحٌ فسحةَ الأمَلِ .. فهل تستريحين عند عونِ الصديق لنستأنِفَ تلبيةَ النداء في حركةٍ أخرى .. إنَّ النداء لا يُجابُ كلُّه مرَّةً واحدة ، كما لا تمنح الشمس نورها في شروقٍ سعيد واحدٍ ..

فإلى الشروق .. كل شروق ..

من انادي ؟
وبمن أستغيث ؟
وكيف أنــدب ؟

(٧٣)

– تمــرُّ الأيَّام •• والنَّاسُ همُ الناسُ •• والأشياءُ هيَ الأشياء ••
تصحو السَّماء في أيَّام وتبتهج بتألُّقِ الأشعَّةِ في الشروقِ •• لكــنَّ
غيومَ كانون تحجُبُ صحوَ السَّماء وتغمُرُ فرحــةَ الأشعَّةِ بغميرٍ كثيفٍ
فلا ترى ما كنتَ تنتظرهُ من حسانِ الشروق •• فماذا أنتَ صانعٌ لبناتِ الضِّياءِ
التي وأدَتْها غيوم كانون ؟

– كذلكَ فهمتُ رنينَ الصَّوتِ وهو يَقفزُ من موسيقى العينين كما يقفزُ
عصفور ، يطارده المطر ، من غصنٍ إلى آخر •• أو من شجرةٍ إلى أخرى ••

شعرتُ أنَّ لجــةً عميقةً من التفكير تمصُّني كما ابتلَعَ الحوتُ مرمياً
مِن السفينة ، فداءً للمسافرين •• أتَعرفينَ قصَّةَ السفينة والحوت ؟

يتحدثون عن يونان بن أمتاي •• كيف أُرسلَ لهدايةِ قومٍ ، في مكان مَّا
من الأرضِ •• وكيف تركهم بعد اليأس من هدايتهم •• وكَيف أوَى إلى سفينةِ
مسافرين •• واضطربتِ السَّفينةُ وكادت تغرَقُ فاقترعَ ركابُها على فديــةٍ
منهم •• وخرجتِ القُرعــةُ على يونان ، فألقِيَ في البحــر ، فــداءً للسفينة
والمسافرين فالتقطه حوتٌ كبيرٌ مِن حيتانِ البحــر •• ويقولون : إنَّ يونانَ
ظــلَّ في بطنِ الحوتِ يُسبِّحُ بحمدِ اللهِ ويَستغفره •• حتى لفظَهُ الحوتُ

إلى الشاطىء وهو سقيم •• فأظلته شجرةٌ كبيرةٌ من يقطين •• لكن الشجرةَ ، بعدَ حين ، ذبلت وماتت •• فَحَزِنَ على الشجرة المتيبِّسة حزناً شديداً ••

وجاءت حكمةُ التدريب العليا •• فأُلهِمَ يونانُ بنُ أمتاي : « كيف تشفقُ على شجرةِ يقطينٍ تيبَّستْ ولا تُشفقُ على قومٍ ضلوا ؟ •• عُدْ لإنقاذهم مِنَ الضَّلال يا يونان ، واصبر عليهم صبراً جميلاً » ••

وعادَ يونانُ إلى القومِ ، وصبَرَ عليهم صبراً جميلاً •• فآمنوا به •• وأُنقِذَ القومُ ••

كانَ رنينُ صوتكِ يعلو كسفينةٍ تضطربُ فوقَ موجٍ يتلاطَمُ •• لكنني فهمتُ رنينَ الصَّوت ، وصبرَ الصَّمتِ ، ودويَّ الأعماقِ أمام موكب الموت •• قلتِ :

– « ولِمَ النِّداءُ والاستغاثةُ والندبة ؟ مَن أنادي ؟ وبمن أستغيث ؟ وبأيَّةِ لهجةٍ أندبُ بَضْعةً مني يبتلعُها حوتُ الموت ؟

– مِن أساليبِ النِّداءِ نداءُ اسم الجلالة •• وفي نشيد الشروق يقولون :

يا أللهُ ••

يا بديعَ السَّماواتِ والأرضِ ••

يا ربُّ ••

يا نورَ الأنوار ••

نوِّرْ حياتي ••

أللهُ هو المنادَى الأعظَمُ والأرحَمُ ؛ لأنَّه القاهرُ فوق عباده ، والقادرُ على كلِّ شيء •• فهل اتَّجه قلبُك ، صادقاً مخلِصاً ، إلى ندائه ؟ هل أحسستِ موجةَ الصَّبرِ تحمِلُ سفينة الرِّضى وتُعيد إلى الشاطىء مَن ابتلَعَه الحوتُ ؟

يعربون صيغةَ النِّداء هـذه ، فيقولون :

يا : أداة نداء •• ألله : لفظُ الجلالةِ ، منادى مبنيٌ على الضمِّ ، في محلِّ نصبٍ بفعلِ النداء ، أو فعل الدّعاء المحذوف : أنادي الله •• أي : أدعو اللهَ ••

وغالباً يحذفون حرفَ النِّداء ، ويُعوِّضون عنه بميم مشدّدة ، فيقولون : اللهمَّ •• يا بديعَ السّماواتِ والأرض •• يا نور الأنوار •• نوِّر حياتي ••

ذلكَ المنادى الأعظَمُ يناديه كلُّ محتاجٍ ويطلبُ منـه كَفَاءَ حاجاته ، وينشَطُ ليقتربَ من آفاقِ الحكمةِ في الصَّبر والرِّضا •• فهل تنشَطين ؟

– قال صمتكِ ما تقولُه الأشـعَّةُ تحت الغيوم :

« آه •• يا الأجملُ صبراً •• أيُّها لإنسانُ في صميمي •• أيَّتُها القدرةُ في نفسي كيف تستطيعين تجـاوز الآلام » ؟

– قلتُ : إنَّكِ ناديتِ المعرَّفَ بـ « ال » •• واستخدمت « أيّ وأيَّةُ » ، وفي كلٍّ منها يُبنى المنادى على الضمِّ في محلِّ نصبٍ •• ألا يفتحُ لكِ هـذا التناغمُ بين الظاهرِ والباطنِ حكمةَ المنصوباتِ على نهـر الإعراب ؟ هل أعربَ لكِ الغيابُ العَياني عن حضور في القلب أكيد ؟

– قلتِ : أشعرُ بالحضور والغيابِ معـاً •• غيمـةٌ من غيومِ كانون ، تحجُبُ سطوعَ الشمسِ عـن آلافِ العيونِ •• فمن أعطى للغيومِ حـقَّ إخفـاء السطوع ؟

– أستمهلكِ أمامَ الغيمةِ والشمس •• تأمَّلي زمانَ الحيـاة •• في كلِّ عام فصولٌ •• في كلِّ يوم شـروقٌ وغروب •• ملايين الغيوم حجبتْ سطوع الشمس في الزمان ، لكن الشمسَ تظلُّ خالدة الوجود •• أليس الإنسانُ مثـلَ الشمسِ شروقاً وغروباً ؟ أليس الموتُ مثلَ الغيوم ؟ ألم تمتْ حـوّاء وآلافُ

النّساء في كلّ العصور ، لكنّ حواءَ خالدة الوجود بكل بنتٍ عائشة أو تعيش ..
ألم يمت آدمُ وملايين الرّجال في كلّ الأجيال .. لكن روح آدمَ لا تزال تسري
بكلّ العائشين وفيمن يعيشون ..

– نظرتِ في الفراغِ ، كمن يرى للكلماتِ أجساداً .. وقالت نظراتكِ :

– فهمتُ للحيـاةِ معنىً كلّياً .. الإنسانُ الكليّ يستمرّ .. والشمس
الكلية تتجدّدُ .. لكن الغيوم تحجُبُ جزئياتٍ من عمرِ الشمس .. والموت
يحجب جزئياتٍ من حياة الإنسان .. كأن الإنسانيّة شجرةٌ أوراقها الأفرادُ ،
فإذا سقطت أوراقٌ عـن الشجرة بقيت روحها لتورق وتزهر وتثمرَ في أوقاتٍ
أخرى .. لكنني لا أكتم ضعفي أمـام الجزئيات .. فكلما سقطت ورقةٌ عـن
شجرة الحياة أقرأ فيها سقوطي وتنبعثُ من أعماقي صيغٌ جديدةٌ من الاستغاثةِ
والندبة .. فكيف أكتم استغاثاتي وندبتي ؟

يا لله لِقلبيَ .. وا قلباه .. كيف أحتملُ الغياب ؟

– أستمهلكِ مرّةً أخرى .. فأسلوبُ الاستغاثةِ .. وأسلوبُ النّدبةِ ..
لتفريغِ القلبِ من همومه وليس لشحنه بمركّزات الهمـوم .. فعندما تقولين :
« واقلباه » يَعني أنّكِ تُطهّرين قلبَك الحيّ الحقيقيّ ممّا قذفته به الحياة ،
وتنقلين ذلكَ إلى الصّيغة اللغوية ، كما تُفرّغُ طاقةُ الصّاعقة في ما يسمّونه
« الهوائيّ » ، الذي يتلقّى الصّاعقةَ ويحوّلها قطـراتٍ من المـاء .. أليس
لذلك قالوا : إنّ الفنّ يُطهّرُ النفوس ؟ وهـل فهمتِ المغـزى من الدّعوة
إلى « عيـادة لغـويّة » ؟

– تمـرّ الأيّام .. والناسُ هم الناسُ .. والأشياء هي الأشياء .. لكنّكِ
تظـلّ على بوّابةِ التّغيير ، إنّكِ تبدعُ للتفكير فصول حياةٍ ، وتقلبُ الألم
أملاً ، والهمّ همّةً ، والمحنةَ منحةً .. إنّ إيمانكَ المحوّل أفقٌ عليٌّ بعيدٌ ..
يتجاوز المُطلّ منه تناقضاتِ الوجود .. حتى المـوت القهّار يُصيّرُ أمنيـةً

تحرِّضُ على التضحيةِ والشجاعة •• أليس الشهداء همُ الأحياءَ ؟ أليس الخالقُ الأعظَمُ مَن يتلقَّى أنفسَ الميتين بِيَدِ رحمتهِ الشاملة الواسعة •• ؟ كم مِن نشيدٍ يُذكِّر الإنسان بمنابع الاطمئنان •• لكن كيف يَستطيع الإنسان هضمَ هذا الدَّرس اللغويِّ المريح ؟ أإذا فهمتُ وظيفة الاستغاثة والنـدبة في اللّغـةِ تستريح الحيـاة ؟

– قلتُ لانفعالكِ الصَّادق ، بهدوء واثقٍ ، ما قالهُ الصوفيُّ المعذَّب :

الوجودُ الحـقُّ ما أوسعَ في النفسِ مَداهْ
والسكونُ المحضُ ما أوثـقَ بالروحِ عُراه
كلُّ ما في الكـونِ يمشي في حنـاياهُ الإلـه
هـذه النمـلةُ في رقتهـا رجـعُ صَـداه
هو يَحيـا في حواشـيها وتحيـا في ثَـراه
وهي إن أسـلمتِ الـروحَ تَلَقَّتْها يـداه
لم تمتْ فيها حيـاةُ اللهِ إن كنتَ تراه ••• [1]

– وأجابت نظراتكِ بنوعٍ من الرِّضى ؛ والعودة إلى الشعور الهـادىء المنسجم مع الحيـاة •• وقلتِ :

– لنعُدْ إلى أسلوبِ النُّدبة : « واقلباه •• » هل يُفرِّغُ إعرابُه ما في نفسيَ من انفعـال ؟

قلتُ : إنَّ النُّدبة نوعٌ ندائيٌّ •• يوجَّه للمتوجَّع منـه ، أو المتفجَّع عليه ، ويُسمَّى المتفجَّعُ عليه : مندوباً •• نقول :

وا : حرف ندبة •• قلبا : منادى مبني على ضمٍّ مقدَّر ، منع من ظهوره فتحةُ المناسبة للألفِ ، في محل نصب•• والألف حرف زائد •• والهاء : للسكت••

أنسكتُ عند هذا الحدِّ ؟ وهل امتصَّ انفعالَكِ هـذا البناءُ على الضمِّ المقـدَّر •• ؟

إنَّ التفكير بالمقـدَّر يضعُنا أمـام حقيقة الحيـاة منـذ كان الإنسان والشمس ! ! ••• يا ابنةَ الإنسان •• يا صديقةَ الشمسِ •• ! •••

---

(١) من ديوان « الإشـراقة » ؛ ليوسف بشير اليجاني ؛
لاحظ : مختارات من الشعر العربي الحديث ؛ ص : ١٠٦ – ١٠٧

تـاج الانشاء

عـلى

مبادىء التجميل وجمال التراث

١ – أبواب عـلم المعاني ومبادىء التأسيس

٢ – السُّقيا : مثال للتجميل ومصاحِبَاته السبع

٣ – حـدو البلاغـة تحت التـاج

من البلاغة الممارسة لتربية نقـدية :

أسلوب الاستفهام الحديث

ومناداة المستفهم ..

كقول الإعلامي المعاصر :

« سيدي

أمـيرَ المؤمنين

ما هـذا الزمان الرديءُ الذي

تعيشه أمتكَ »

رياض نجيب الريس

(المستقبل : ع ٣١٤ / شباط ١٩٨٣)



مبادىء التأسيس

- ١ -

لمبادىء التجميل في علم المعاني : قواعدُ التأسيس ؛ فهو « علمُ التعرُّفِ إلى أحوال اللفظ المطابقة لمقتضى حال المعنى » •• لأن الكلامَ خبرٌ وإنشاء ؛ وكلاهما قائم بالجملة ؛ وقد حصر السكاكي والقزويني أبواب علم المعاني في ثمانية ؛ هي : أحوال الإسناد الخبري ؛ والمسند إليه ؛ والمسند •• وهذه الثلاثة ضروريات الإسناد الخبري •• ثمَّ أحوال متعلقات الفعل ؛ لأن المسند : يكون له متعلّقات إذا كان فعلاً ؛ أو متصلاً به ؛ أو في معناه ، كاسم الفاعل ونحوه •• وهذا التعلق : يشكل الباب الرابع ••• والإسناد في الأبواب الثلاثة الأولى ، والتعلق في الباب الرابع : يتطلبان الباب الخامس ؛ لأنَّ كل واحدٍ منهما : يكون إما بقصر ، أو بغير قصر ••• ثم يأتي الباب السادس : للإنشاء •••

أما البابان ، السابع والثامن : فللجملة واللفظ ؛

فإذا قرنت الجملة بأخرى : إما أن تعطف الثانية على الأولى ؛ وذلك الوصل •• وإما ألاَّ تعطف ؛ وذلك الفصل •• وهذا سابع الأبواب ••

أما ثامنها : فلعلاقة اللفظ بمعناه ؛ فإذا زاد لفظ الكلام البليغ على أصل المراد لفائدةٍ : كان الإطناب •• وإذا لم يزد عليه : كانت المساواة •• وإذا كان اللفظ وسيطاً إلى ما هو زائد عليه : كان الإيجاز •••

وهذه الأبواب : تصل بحدود البلاغة جميعها ••

ذِكْرُ الأبواب التراثية لعلم المعاني : ليس لمناقشة وضعها ، هنا ؛ إنما للتنبه إلى ارتباطها المبدئي بالجملة وحدودها ؛ لذا رأينا بمعرفة مبادىء التجميل :

تأسيساً لهـذا العلم بأحوال البنية اللفظية ، توصلاً إلى التطابق مع نيـة المعنى في مقتضاه ...

وقد كان تحليل خطبة « السقيا العامة » : ممارسة عملية لبلاغـة التجميل ومبادئه .. كما يُعتبر إخراجها المرقّم ، فِقَراً وجملاً : تجسيماً ناطقاً للمبادىء ..

وأما مصاحبات النص ، من قواعـد الضبط ، ومن كيفية الشرح : فلإنشاء أصول التحسين الممكنة لقراءة التراث قراءة إحياء واقعي .. ثمّ لإنشاء مجدّدات التفتح النافعة من هذا الغنى الذي لا يُنفده الاستعطاء الحديث أو المستقبلي ..

فالنص بذاته : سبع فِقَرٍ ، وثمانٍ وخمسون جملة ، كما ذكـر في فصل النـداء الأعلى « بالميم » .. لكنها ظهرت في الإخراج التجميلي بأربعٍ وخمسين جملةً : لإظهارِ وجهة أخرى في اعتبار الجمل ، تظهر بالشكل التالي :

أ – وملتِ التردد في مراتعها
والحنين إلى مواردها

ب – فارحم أنين الآنّة
وحنينَ الحانّة

جـ – ارحم حيرتها في مذاهبها
وأنينها في موالجها

د – فكنتَ الرجـاءَ للمبتئس
والبلاغَ للملتمس

هذه أربع جمل في إخراج النص ، هي ذوات الأرقام : ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٦ .. لكنها محسوبة في التحليل : جملاً مزدوجة ، باعتبار فعـل مكرر محذوف بعد واو العطف ، فتكون صورة عطف جملة على جملة ، كأننا نقول : فارحم أنـينَ الآنّة ، وارحم حنين الحانّة ... وهو اعتبار مقبول كالاعتبار الآخر الذي يعطف مفـرداً على مفرد : أنين وحنين .. وكذلك الجمل الأخرى ..

إخراجُ النصِّ بهذه الصورة : يظهرُ تموجاتِ المعنَى عبر البُنى اللفظية في مثل الدفقاتِ التنفسية المطابَقَةِ بالتقطيعات الصوتية ..

إنَّ التأمّلَ المجرَّدَ بتوزّعِ الجُمَلِ في هـذا الإخـراج المستعار من « نهج البلاغة ذي الفِقَر » : يُمثّلُ علم المعاني ، كما عُرِّف وبُوِّب في موروثِ البلاغة .. كما تمثل مصاحباته أموراً : للتحقيق والشرح .. ؛

المصاحب الأول : ضبط رقم النص في سبع نسخ مطبوعة ؛ فهو في بعضها : 114 ، وهـذا الرقم الذي اعتمدته في شرح « ذي الفِقَر » العصري .. وهو في شروح أخرى : 112 ، 115 ، — 113 .. وجُعل ضبط المصادر فرعاً ثانياً لهذا المصاحب ؛ فللنص أسانيده السابقة لجمع النهج ..

المصاحب الثاني : اختلافات النسخ وجديد المخطوطات السبع ، التي أعطيت هـذه الرموز وفق مقابلات السيد جواد المصطفوي الخراساني ، المتعاون مـع « بنياد نهـج البلاغة » ومؤسسه السيد « جمال الدين دين برور الحسيني » .. وهذه الرموز وتأويلها :

س = تعني ، مخطوطة : حسن سعيد ..
عش ١ و ٢ و ٣ ؛ = مرعشي ١ و ٢ و ٣
م = مدرسة شهيد مطهري
ن = نوّاب
آ = آستان قدس
+ = موجود في النسخة
— = غير موجود في النسخة
خ = نسخة بـدل
معاً = كلاهما (هذه الكلمة تقع على ضبط) ..
متن = يعني ضبط الحاشية مختلف عن المتن ..
كذا = يعني درنسخه جنين است ولي بنظر مي رسدكه جنين نباشد .
ظ = يعني درست خوانده نمي شود ظاهراً جنين است .

المصاحب الثالث : تحديد الألفاظ المفردة ، وفق السياق ؛ وقد مثلت بنماذج من الشروح المطبوعة •• وبنماذج أخرى من جديد المخطوطات المميَّز عما في سائر الشروح المطبوعة •• ولماذا يختار المحقق ما في مخطوطة مَّا ، ويثبته في المتن ثم يشير إلى خلافه بالحاشية ••

في هذه النماذج من هذا المصاحب : يظهر للمتأمل معنى قول كتب التراث في علم المعاني « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بـه من الاستحسان وغـيره ؛ ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطـأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكـره » ••

هذا التعريف للسكاكي ، كما أورده القزويني في لإيضاح •• وقـد وضع القزويني تعريفاً منه قال فيه : « وهو علمٌ يُعرَف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقْتضى الحـال » ••

(الإيضاح : ٨٤)

وقيمة هذا التحديد السياقي المطابق للطبيعة اللفظية : تجعلنا على بينة من المستويات الشرحية لحدود الألفاظ ، وتدعونا إلى إعادة النظر بالنص على ضوءِ سياقه وطبيعة الألفاظ المطابقة لمقتضى حـال ذلك السياق ؛ وتعود الشروح إلى حجمها الحقيقيّ فهي للاستئناس لا أكثر ؛ وهذا ما نلاحظه في المصاحب السَّادس : فقـد استأنس « رياض نجيب الريس » بشروح الشيخ محمد عبـده وتعليقات الشريف الرضي ؛ لكنه لم يأخذ منها شيئاً ، ولم تحتج أسئلته الحديثة إلاّ لاختيارات واضحة محكمة الوضـع في أماكنها الجوابية ••• وهـذا الاستئناس : كان في « شرحنا العصري » لنصٍّ « السقيا » ، لكننا وضعنا شرحاً مستلهماً من النصِّ الأصليِّ ؛ فاللفظة الواحدة : تتلون بصبغة فقرتها المعنوية ؛ ولفظـة « اللهم » : مثالٌ عمليٌّ واضح •• فلتنظر في أصبغتها المتوهجة ، وفق مقتضى الحال :

١ – فاللهم في الفقرة الأولى : تتوهج بصبغة العظمة ؛ لذلك يصبح نـداء الاستلهام ، « يا ألله يا عظيم » ••

٢ – ويصبح في الفقرة الثانية : يا ألله ، يا عظيم ، يا رحمن ، يا حنان ••
٣ – ويصبح في الفقرة الثالثة : يا ألله ، يا عظيم ، يا رحيم ، يا هادي ، يا شافي ••
٤ – ويصبح في الفقرة الرابعة : يا الله ، يا عظيم ، يا كريم ••
٥ – ويصبح في الفقرة الخامسة : يا الله ، يا عظيم ، يا مغيث ••
٦ – وفي السادسة : يا الله ، يا عظيم ، يا مدبِّر •••
٧ – وفي السابعة : يا الله ، يا عظيم ، يا منزل الغيث •••

إن المتأملَ بفقر الشرح العصري : يرى ما للسياق من دلائل إعجاز ؛ ويتذوق التفتحات العشرة من لفظة « اللهم » •• ويعجب لكل تفتح : كيف يضيء ويظلل جمل فقرته في سياق بُنيوي واحد ؛ غرضه : السقيا ••

ليست الألفاظ : متساوية مع هذا اللفظ الجليل ؛ لكنها جميعاً تبوح بهذه الألوان المتعاونة مع أحوال اللفظ ؛ إسناداً ، وتعلقاً ، وإلزاماً : لتكون مطابقة البنية اللفظية لمقتضى النية المعنوية ••

أما تفسير المفردات بمثلها : فعمل مدرسي ، بدائيّ مقبول ؛ وهو معطى بصورة الشرح العصري على مستوى السياق ومقتضى الحال من طبيعة اللغة •• ويمكن للدارس المعنوي : أن يتوقف مع النص المجرَّد من التفاسير ، فإذا استوقفته كلمة غامضة بحث عنها في سياق الشرح •• وهذه كلمات افترض المفسرون أن القارىء : يحتاج لها تفسيراً ؛ ويمكن مقارنة معانيها المفردة مع تأليفها الدال في السياق ••

أ – انصاحت : تشققت ••
ب – هامت : عطشت أشد العطش ••
جـ – المربض ، ج مرابض : مكان بروك الماشية ••
د – عجت : صاحت بأعلى صوتها ••
هـ – الآنَّة : الشاة ••

و – الحائة : الناقة ..

ز – الموالج : مداخل المرابض ..

ح – مخايل : السحب الموهمة بالمطر ولا تمطر ، ومفردها : مَخيلة ..

ط – الجَود : المطر ..

ي – المبتئس : الذي أصابته شدة ..

ك – البلاغ : الكفاية

ل – السائمة ، ج : سوام : مثل الإبل ..

م – انبعق المزن : تصبب المطر

ن – أغدق المطر : غزر هطوله ..

س – المونِق : المعجب ، المفرح ..

ع – سحاً وابلاً : صباً كبيراً لقطرات من المطر ..

ف – المَريعة : الخصيبة

ص – زاكياً ثامراً : نامياً ، مثمراً

ق – النجاد والوهاد : ما ارتفع وانخفض من الأرض ..

ر – الجَناب والأقاصي : الناحية القريبة والأطراف البعيدة ..

ش – الضواحي : للبلدة نواحيها ؛ وللحوض جوانبه ..

ت – المرملة : الرملية ؛ والفقيرة ..

ث – سماء مخضلة : مطر يبلل ويروي

خ – الودق : المطر .. يحفز : يحرض ويدفع ..

ذ – البرق الخلب : ما يُطمع بالمطر ولا يعطي ..

ض – الجهام وعارضه : السحاب العارضُ بلا مطر ..

ظ – قزع الرباب : قطع السحاب الأبيض ..

الشَّفان : الريح الباردة ..

الذِّهاب : ج ذِهبة : الأمطار اللينة ..

غ – المسنتون : المقحطون .. ولاحظ ما قيل بهذه الكلمة وبالمجدبين أو المحدبين ...

هذه هي الكلمات المكررة في شروح النص ؛ وهذا هو أسلوب في تحديد المفردات ؛ أثبته : لتلاحَظ قيمُ المعنى في السياق ..

أما المصاحب الرابع : فهو الشرح العصري ، المستلهم من فِقَرِ النصِّ بعد تجميلها وملاحظة الإيقاعات المعنوية فيها ، متجلية من وراء ستور الألفاظ في مقتضيات أحوالها ..

وقد توقف صديقنا الدكتور مازن المبارك ، توقفاً مشكوراً : عند إثارات هذا الشرح .. ودار حوار بينه وبين صديقنا المشترك الدكتور عمر موسى باشا ؛ وكنت مشغوفاً بسماعه .. أشير منه إلى توقفهما مع « اللهم » ؛ وقد ذكرت ست مرات في نص « السقيا العامة » ، في مداخل الفقرات الست الأولى ؛ لكن المثير في الشرح : أنه أظهر لها ستة معان ، وفق سياق الفقرة التي أسست عليها ..

هذا التوقف وتوقفي معه ، هنا : يعنيان أن السياق يجتذب مقتضى الحال المناسب له ويلونه بصبغته.. كما يعنيان تلاقي أهل الذوق مع تنوع الاختصاصات ؛ فهم أمة واحدة ..

هذه المصاحِبات وما سبقها منَ التحليل الجملي للنص في باب « النداء الأعلى بالميم » : تمثل دوائر الألفاظ الطائفة حول المعنى ؛ لتطابق مقتضاه .. ولهذه المطابقة : كانت علوم البلاغة المستنبطة من بلاغة البلغاء الممارسة .. ولها كذلك : نجرب مبادىء التربية النقدية ، توصلاً إلى غايات الذوقِ العليا ..

في مُركَّز هذا الشرح العصري : محاولة مركبة من الوفاء للتراث والأمانة مع فطرة الأصالة ؛ ليكون الانسجام المطابق مع خفق الإبداع في قلب الوجود ..

إن مَن لهم إخلاص التأمل : واجدون « سعادة وعي في رؤى الأول الذي وضع نص السقيا .. وفي رؤى الآخر الذي شرحه مُستلهماً » ..

ومع الإخلاص : لا بد من الأصول التقنية ؛ لذلك مثلت لنظريات منها وممارسات ؛ فهل تُنْظَرُ وتمارس ؟

المصاحب الخامس : يتعلق بعلامات الترقيم ؛ لأنها : تمثل قواعد الحركة المعيارية في تجميل النص ، وفي إظهار مفاصل الجملة الواحدة عند المقتضى .. ولأنني لم أثبت أية علامة منها في النص المجمَّل ، « السقيا العامة » : عوَّضتُ عنها بالأرقام ، وشبه التوزيع الموسيقي المصوَّر بأساليب ترتيب الجمل وأشباهها في الفقر .. ومن جهة أخرى : ذكَّرتُ بما اصطلح عليه الباحثون من علامات الترقيم .. ووضعت تطبيقاً عملياً على صفحة واحدة من كلام الشريف الرضي ، هي فاتحة « خصائص الأئمة » (ع) .. وهذا الأثر كان منطلقاً للشريف الرضي : توصل منه إلى اختيارات نهج البلاغة ، كما ذكر في مقدمة النهج ..

ما يخصُّ « مبادىء التجميل » من هذه الصفحة : أنها أي « المبادىء » مكنتني من إجراء ستةٍ وثلاثين تحسيناً على صفحة تراثية واحدة .. لذلك أضع صورة الصفحة وحركات التحسين عليها ، ثم أضع مقابلَها الصفحة المحسَّنة وفق مبادىء التجميل المعتمدة على « علامات الترقيم » لا على الترقيم هذه المرة .. فليتأمل الراغبون بعلم المعاني وما يقتضيه من تتبع أحوال اللفظ لاستكشاف يطابق مقتضى الحال ... وبعد الصفحتين ألحقت مجمل علامات الترقيم ؛ ليكون المرقمون على بيِّنة من المعايير العامة .. ولها خصوص أشرنا إليه في مقدمة « صناعة الكتابة » .. ورأينا أن نذكره هنا ، وأن ننقله إلى مقدمة الكتاب ..

والمصاحب السادس : اختيار حديث من أطرف أنواع التعامل مع التراث .. وهو يمثل الاستفادة من أسلوبي الاستفهام والنداء معاً .. لكن هذا المُحاور المستفيد بذكاء : هو « رياض نجيب الريس » .. وقد أجرى حواره مع الإمام عليّ (ع)، كما لو كنتَ في مقابلة صحفية تجري أمامك ؛ فتسمع وترى ؛ وهي من تجميل التراث على نحو فنيٍّ يقنع بمعاصرة التراث ...

لقد سأل هذا المحاور المعاصر : ثلاثةً وثلاثين سؤالاً .. وفي معظمها : أدخل أسلوب النداء لمن يحاوره ، كقوله في السؤال الأول :

سيدي .. !

أمـير المؤمنين •• !
ما هذا الزمانُ الرديء الذي تعيشه أمّتُكَ ؟ !

وكان جواب الأمير : ما اختاره السائلُ من كلام المسؤول التراثيّ الذي اختاره من قبلُ الشريف الرضيّ ، من كلام جـدّه علي بن أبي طالب ، (ع) •• ثم شرحه كثيرون •• ومنهم مفتي الديار المصرية ، الشيخ محمد عبده ؛ وعلى هذا الشرح كان الاعتماد ، كما ذكر واضعُ الأسئلة ••

لكن الملاحظة المفيدة جداً : أن الأجوبة التي اختيرت لكل سؤال ، لم تُمزج بأي شرح من الرضي ، أو من عبده •• بـل أخذت صافيةً من فمِ النبـع ، أي من صاحبِها الأول في بلاغة الممارسة ••

والملاحظة الثانية : أن السائل ذكر الرضيّ وعبده •• وذكر الأسابيع الطويلة التي قضاها : مع اختيارات الرضي ومع شروح عبده •• ولم ينس الاعتراف بالراحة الكبرى التي قدمتها النصوص وساعدت على بلوغها الشروح •• وذلك من الأمانة العلمية والخلقية •••

والملاحظة الثالثة : أن السائل ، وهو يقـدم ما يقدمه الصحافي في عصرنا ، لم يغفل عن خلق الباحثِ المتأني لبلوغ الحق والجوهري ؛ وفي مقـدمة الدخول إلى الأسئلة والحاشية المرجعية : تشابه في واقعية الانطلاق ومصداقية الخبـر ؛ وإشاراته الإحدى والثلاثون إلى أماكنِ الأجوبة في أجزاء نهج البلاغة الأربعـة : واقعية تحقق صـدق الخبر ، والعودة إليها ممكنة لكل من يشاء تتبعه المتيقّن أو المستزيد •• وإذا كانت عملية التيقن هذه : تتم بالمطابقة بين ما نقله رياض نجيب الريس وبين ما هو في صفحات نهج البلاغة ••• فإن عملية التيقن النفسي في مقدمة الأسئلة : تتم على نحو تأملي في واقع المجتمع العـربي ؛ فإن المتأمّلَ يصل بنفسه إلى إنشاءِ وعيٍ يقرره لِنفسه ••

المصاحب السّابع : تاج الإنشاء على حـدود البلاغة والفصاحة •• هـذا

المصاحب يعني خاتمة ما دعوناه « أبواب المعاني ومبادىء التجميل » •• لكن هذا الختام : كان مصاحباً للنصِّ المجمَّل « سقيا عامة تامة » ، هنا •• وفي « رسالة النداء » •• وامتدت صحبته إلى البلاغة والفصاحة والحال والمقتضى ؛ فهذه حدود عرفها بها الباحثون ؛ لكن تلك التعريفات أخفت الجوهري وأظهرت العرضيَّ •• وصحبتنا لنصِّ « السقيا » في « رسالة النداء » •• وهنا : فتحت أبواب المعاني وحدود البلاغة على جوهري الأمور في بلاغة الخبر والإنشاء وفصاحتهما ••

لذلك سمينا هذا المصاحب : « تاج الإنشاء » ؛ فهو يعلو دليلاً مشيراً إلى جهاتِ المعاني العليا وعلى صراط رفيع مستقيم •• والإشارة إلى التاجية : تعني ما اقتضته أحوال الاتصال المطابقة بين الأساليب البُنيوية المركبة من اللفظ وبين المعاني الإدراكية المشعة من وراء الألفاظ بشمس المعنى ونفس العاني ••

حجم التاج : لا يكون كبيراً •• لكنه يظلُّ أميراً •• وتظلُّ دلالته الواسعة متصلة به : كما تعلو الثمار اللطيفة أشجارها الكبيرة الوارفة ••• وهكذا جاء تاج الإنشاء كما نرجوه ؛ بل كما رجاه أبو تراب في طلب « سقيا عامة تامة » : أرادها « ثامراً فرعُها » •• كأنما أراد الثمر : تاجاً لفرعه •• لكنه لإنعاش الضعيف من العباد ، ولإحياء الميت من البلاد •• لا يحتكر خيره بل يعمِّمه حتى يصيب البرية المرملة والوحش المهملة ••• أليست البلاغة : بلوغ المعنى وتبليغه في أحوال اللفظ ولفائفِ تراكيبه ؟

نصٌّ

السـقيا

مثـال التجميـل

- ٢ -

١ - النص المُجَمَّل : خطبة ١١٤ = 114

من « نهج البلاغة ذي الفِقَر »

و

« الشرح العصريّ »

٢ - مصاحبات النص :

أ - رقم الخطبة ومصادرها في المطبوع

ب - مخطوطاتها وإضافاتها

جـ - ألفاظُها وفق مقتضى السياق

د - شرحها في سياق « الشرح العصري »

هـ - مبادىء التجميل وعلامات الترقيم (لاحظ : المقدمة)

و - حوار معاصر مع التراث : بأسلوبي النداء والاستفهام

ز - تاج الإنشاء على حـدود البلاغة والفصاحة

1

اللّهمَّ ١
قد انْصاحَتْ جِبالُنا ٢
وَاغبَرَّتْ أرْضُنا ٣
وَهامَتْ دَوابُّنا ٤
وَتَحيَّرَتْ في مَرابِضِها ٥
وَعَجَّتْ عَجيجَ ٦
الثَّكالى على أوْلادِها
وَمَلَّتِ التَّردُّدَ في مَراتِعِها ٧
وَالحَنينَ إلى مَوارِدِها

2

اللّهمَّ ٨
فارْحَمْ أنينَ الآنَّةِ ٩
وَحَنينَ الحانَّةِ

3

اللّهمَّ ١٠
فارْحَمْ حَيْرَتَها في مَذاهِبِها ١١
وَأنينَها في مَوالِجِها

4

اللّهمَّ ١٢
خَرَجْنا إليْكَ ١٣
حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنا ١٤
حَدابيرُ السِّنينَ
وَأخْلَفَتْنا مَخايِلُ الجُودِ ١٥
فَكُنْتَ الرَّجاءَ لِلْمُبْتَئِسِ ١٦
وَالبَلاغَ لِلْمُلْتَمِسِ
نَدْعُوكَ ١٧
حينَ قَنَطَ الأَنامُ ١٨
وَمُنِعَ الغَمامُ ١٩
وَهَلَكَ السَّوامُ ٢٠
ألاّ تُؤاخِذْنا بِأعْمالِنا ٢١
وَلا تَأْخُذْنا بِذُنوبِنا ٢٢
وَانْشُرْ عَلَيْنا رَحْمَتَكَ ٢٣
بِالسَّحابِ المُنْبَعِقِ
وَالرَّبيعِ المُغْدِقِ
وَالنَّباتِ المُونِقِ
سَحّاً وَابِلاً
تُحْيي بِهِ ما قَدْ ماتَ ٢٤–٥
وَتَرُدُّ بِهِ ما قَدْ فاتَ ٢٦–٧

ف ٢ ج ٩ / خ ن : حنين الحانة وانين الآنــة
ف ٣ ج ١٠ / خ ـ عش ٣ : اللهم ارحم
لاصطلاحات التحقيق : ف = فقرة .. ج = جملة ..
ط = مطبوع .. خ = مخطوط ..
ن و عش ٢ ـ ٣ = رموز المخطوطات ..

5

٢٨ اللّهُمَّ

٢٩ سُقْيَا مِنْكَ

مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً تَامَّةً عَامَّةً
طَيِّبَةً مُبَارَكَةً هَنِيئَةً مَرِيعَةً
زَاكِياً نَبْتُهَا ثَامِراً فَرْعُهَا
نَاضِراً وَرَقُهَا

٣٠ تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ
مِنْ عِبَادِكَ

٣١ وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ
مِنْ بِلَادِكَ

6

٣٢ اللّهُمَّ

٣٣ سُقْيَا مِنْكَ

٣٤ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا

٣٥ وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا

٣٦ وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا

٣٧ وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا

٣٨ وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا

٣٩ وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا

٤٠ وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا

مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ
وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ
عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ
وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ

7

٤١ وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا
سَمَاءً مُخْضِلَةً مِدْرَاراً هَاطِلَةً

٤٢ يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ

٤٣ وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ

٤٤ غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا

٤٥ وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا

٤٦ وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا

٤٧ وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا

٤٨ حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا
الْمُجْدِبُونَ

٤٩ وَيَحْيَا بِبَرَكَاتِهَا الْمُسْنِتُونَ

٥٠ فَإِنَّكَ

٥١ تُنْزِلُ الْغَيْثَ

٥٢ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا

٥٣ وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ

٥٤ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ

ف ٥ ج ٢٩ / خ ــ عش ٢ : ناضراً ورقها ، غامراً ارزاقها ..
ف ٦ ج ٣٧ / خ ــ ن ، و : عش ٢ : وتزكو بها ثمارنا ..
ف ٦ ج ٤٠ / خ ــ ن : وتستغني بها ضواحينا
ف ٧ ج ٤٨ / خ ــ ن : المحدبون

مصاحبات النص 114

- ١ -

أ – رقمُ الخطبة ؛ في : شـرح ابن أبي الحديد ، (جـ ٧/٢٦٢ – ٢٧٥) ؛ وفي : منهاج البراعة ، (جـ ٨/٧٢ –) ؛ وفي : ترجمة وشرح فيض الإســلام ، (جـ ١/٣٥٨ – ٣٦٣) ..

ورقمها : ١١٣ ، في : مصادر نهج البلاغة وأسانيده ؛ للسيد عبد الزهراء ، (جـ ٢/٢٥٣ – ٢٥٧) .. وكذلك في : شرح الشيخ محمد عبده (جـ ١/٢٢٥) ..

وكذلك ، في النص المقابَل بالمخطوطات السبّع ، المحفوظ في بنياد نهـج البلاغـة ؛ (جـ ١/٩٩ – ١٠٠) ..

ورقمها : ١١٢ ، في : شرح ابن ميثم البحراني ، (جـ ٣/١٠٣ – ١٠٦) ..

ورقمها : ١١٥ ، في : إخراج الدكتور صبحي الصالح ؛

ب – مصادر النص وأسانيده ، وفق تحقيقات السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ؛ وهي : ١ – الصدوق ؛ في : الفقيه ؛ جـ ١/٣٣٥

٢ – الطوسي ؛ في : مصباح المتهجد ..
٣ – هادي كاشف الغطاء ، في مدارك النهج : ٣٥٠
٤ – الزمخشري ؛ في : ربيع الأبرار ؛ باب المطـر ..
٥ – ابن الأثير ؛ في : النهاية ؛ جـ ١/٣٥٠ : حدبر ؛ جـ ٢/١٧٣ : ذهب ؛ جـ ٢/٤٨٨ : شفن ..

٦ – وانظر : عبد الزهراء ؛ مصادر نهج البلاغة ؛ جـ ٢/٢٥٦

- ٢ -

اختلافات النسخ وجديد المخطوطات : لاحظ الفروق الستة في حاشية النص ، (ص ٣٠٠ – ٣٠١)

- ٣ -

تحديد الألفاظ المفردة وفق السياق :

المفردة ، عادة ، تشكل شبكةً من الدلالات ، يُسمّونها : أسرة الكلمة ؛ وفي السياق الكلي للعمل التعبيري : يظهر فرع المعنى المراد نسقه في العمل ؛ لذلك يكون التنبه لوحدة المعنى : منقذاً لمفسري النصّ من الانزياحِ عن المطلوب إلى غيره •• ومفيداً لمحققيه عند اختلاف النسخ المخطوطة ؛ لأنّ الفهمَ الكلي : يسعف في ترجيح ما نقلته مخطوطة على ما أثبتَه غيرها •••

تؤكد قيمة هذه الملاحظة باتجاهين ؛ أحدهما من اختلاف بعض المفسرين باختيار فرع المعنى ، مما هو مطبوع •• وثانيهما من اختلاف النسخ بما لا يزال مخطوطاً ••

أ – مثال المطبوع :

في مطلع « السقيا » ، التي درسناها في « النداء بالميم » : خالف الشيخ محمد عبده والشيخ صبحي الصالح ما اختاره الرضيّ من معنى كلمتي « انصاحت •• هامت » ••

الكلمة الأولى : وردت في النص بهذا السياق « اللهم قد انصاحت جبالنا »••

وقال الرضي ، وهو الذي اختار نصوص « النهج » جميعها •• وعلّق على بعضها ، كلما رأى لذلك ضرورة :

« انصاحت جبالنا : أي تشققت من المُحول ؛ يقال : انصاح الثوب ، إذا انشق ؛ ويقال أيضاً : انصاح النبت ، وصاح ، وصوّح ؛ إذا جفّ ويبس •• »

وقال الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية :

« انصاحت : جفت أعالي بقولها ، ويبست من الجدب ؛ وليس من المناسب : تفسير « انصاحت » « بانشقت » إلا أن يراد المبالغـة في الحرارة التي اشتدت لتأخر المطر حتى اتقد باطن الأرض ناراً ، وتنفست في الجبال فانشقت •• »

وقال الشيخ صبحي الصـالح مختصراً :

« انصاحت : جفت أعالي بقولها ويبست من الجدب ؛ وهـذا أنسب من تفسير الرضي في آخر الدعـاء » ••

لو تمهّل الشيخان : لاحترسا مـن تخطئة الشريف الرضي ؛ ولالتزما بما اختاره : لأنه أدق مطابقةً للسياق الحاليِّ في النص ، وللمعنى اللغوي الذي ربط الانصياح بالانشقاق •• وربط الجفاف واليباس بمصدر آخـر لمزيد آخـر ؛ هو « صوّح » ••

معجمياً ، نجـد هكذا :

صاحه صَوْحاً : شقّه •• تصوّح : تشقق •• انصاح انصياحاً : انشقّ •• وانصاح الفجر : أضاء ، وأصله الانشقاق ••

صوّحَ البقل : يبس •• وصوحته الشمسُ ، أو الريح : جففته ••

نلاحظ ، أنّ اليباسَ والجفاف : من أثر المزيد « صوّح » ؛ وهـذا من خصائص الفروق اللغويـة ؛ لتمييز تغيرات أطوار المعنى في مظاهره ؛ لذلك كان الانصياح بمعنى الانشقاق : ألزمَ لمقتضى الحال ؛ وما قاله الرضيُّ بتشقق الجبال من المحول : هو الانصياح •• ولا ضرورة لمبالغة الشيخ محمد عبده في فهـم التشقق البركاني من اتقاد باطن الأرضِ ناراً ••

وقول الشيخين ، « بجفاف أعالي بقول الجبال ويباسها » : لا يتطلب معنى

الجدب ؛ لأن البقول : تجف أعاليها وتتيبس في الظروف العادية •• ولا موجب لصلاة الاستسقاء عندما تجف سنابل القمح في أعاليها وتتيبس في أسافلها ؛ فذلك وقت الحصاد •• ولكن ما هي البقول ؟

أليس في المعجمات النباتية واللغوية : أن البقـل جمع بقول ، يعني جميع النباتات العشبية التي يتغذى بهـا الإنسان •• ومنهـا : الهندباء ، والكرنب ، واللبلاب ، والفرفَحين أي البقلة اللينة ؛ ومنها بقلة الزهراء ••

هذه البقلات : كيف يكون جفـاف أعاليها •• ؟

السياق : يتطلب فرع المعنى الذي اختاره الرضي ؛ لأن : انصياح الجبال ، واغبرار الأرض ، وهيام الدواب •• مما يستسقى له ؛ ذلك مقتضى الحال ••

والكلمة الثانية : وردت في السطر ذاتـه ؛ « اللهم قـد انصاحت جبالنا ؛ واغبرّت أرضنا ؛ وهامت دوابّنا ؛ وتحيرت في مرابضها ، وعجت عجيج الثكالى على أولادها ، وملت التردد في مراتعها ، والحنين إلى مواردها » ••

قال الرضي : هامت دوابنا ، أي : عطشت ؛ والهيام : العطش ••

وقبل الشيخ محمد عبده هـذا المعنى ••

لكن الشيخ صبحي الصالح : تابع اجتهاده في التصويب للشريف ، فقال :

« هامت : ندّت ، وذهبت على وجوهها ، من شدّة المحل ••• وهذا أنسب من تفسير الهيام بالعطش ، كما يقول الرضي في آخر الدعـاء » ••

يقال : ندت الإبل ، بمعنى نفرت شاردة ؛ لكن هذا النفور والتفرق الشارد : لا يخصّص بمحلٍ ؛ وغالباً يحصل بسبب الخوف مثـل الحمُر المستنفِرة التي فرّت من قسورة ••

والشريف باختياره فـرع المعنى العطشي : طابق مقتضى حـال النص •• ومقتضى الوعي العميق لخصائص الفروق اللغوية الدقيقة ؛

وقد وردت في الفقرة ذاتها : أن تلك الدواب « ملّت التردد في مراتعها والحنين إلى مواردها » •• وذلك معنى الشرود •• ولا يَصحّ التكرار •• لكن الشيخ صبحي أخذ اللفظة مفردة ، ولم يُراع السياق الكليّ الذي راعاه الشريف الرضي ••

وفي الدقائق اللغوية ، يقال : الهُيام أشدّ العطش ، وهو داء يصيب الإبلَ من شدّة العطش ••

وهذا المعنى المرضي لهيمان الدواب : أوجب للاستسقاء الشافي لها ••

إن تحديد الألفاظ المفردة وفق السياق من مسائل تفهم التراث وتفهيمه •• ومن قضايا الفهم المتخصص بدقائق الفروق اللغوية لتذوق المرونة المدهشة التي يتحلّى بها المعنى ، ويحب التظاهر والتخفي في أثنائها ••

بهاتين الملاحظتين : تُلحَظ خصوصيات الإبداع •• وأصولياتُ الفروع ••

وهما ضرورتان للنظر باختلاف المخطوطات أيضاً •• لأن اختيار الكلمة هو هو في مسألة تمييز الدلالة ••

ونأتي إلى الأمثلةِ : لنظلّ بالوضوحِ ••

نلاحظ فِقَر النصّ السبع وجُمَلَ كلّ فقرة ، وتظهر قِيَمُ التجميل في إشارات التحقيق والشرح ، وقد رأينا في « رسالة النداء » : تسهيل الإعادة إلى الجملة لفهم القيمة المعنوية لمنزلتها في النص ••• وهنا نرى فوائد التجميل في التحقيق وإشاراته ••

ف : نعني بها الفقرة ••
ج : نعني بها الجملة ••
ط : نعني بها المطبوع ••
خ : نعني بها المخطوط ••

ف ٢ / ج ٩ ؛ خ/ن : حنين الحانة وأنين الآنة •• المقصود : الإشارة إلى اختلاف المخطوط ، ن ، أي مخطوطة : نوّاب •• عن المختار في المطبوع •• ففي المطبوع : قدم الأنين على الحنين ••

وندع موازنة التقديم والتأخير : للقارىء ؛ فقد تقدم آنّات النعاج لضعفها •• وقد تقدم حانّات النياق لحجمها وفعاليتها ••

ف ٣ / ج ١٠ ؛ خ/عش ٣ : اللهمّ ارحم •• وفي المطبوع « فارحم » ؛ وقد يكون الأصوب ما في مخطوط : عش ٣ ، أي مخطوطة « مرعشي » •• لأن « فارحم » وردت في الفقرة السابقة •• وهذه الفقرة الثالثة : تتابع الموضوع ذاته ••

ف ٥ / ج ٢٩ ؛ خ/عش ٢ : ناضراً ورقها ؛ غامراً أرزاقها ••

ليس في المطبوع « غامراً أرزاقها » ؛ وقد أثبت في المخطوط عش ٢ ، أي مرعشي •• ولعلّه الأصوب ؛ لأن ما يلي ذلك يتطلب : غمر الأرزاق المنعش للضعيف ••

ف ٦ / ج ٣٧ ؛ خ/ن ، وعش ٢ : وتزكو بها ثمارنا •• في المختار لمتن المطبوع : نلاحظ « تقبل بها ثمارنا » •• فمن أولى بالسياق « تزكو •• أم : تقبل » ؟ ••

متروك أمر الاختيار للتذوق اللغوي والسياقي ؛ فالثمار المقبلة : إشارة الخصب وجودة الموسم •• والثمار الذاكية : تخصيص في نوعية الثمار المقبلة ••

ف ٦ / ج ٤٠ ؛ خ/ن : وتستغني بها ضواحينا ؛ في المطبوع المختار : وتستعين بها ضواحينا •• والمفاضلة بين « تستغني •• وتستعين » •• فاستغناء جوانب البلاد : أثرى من استعانتها بالسقيا ؛ لذلك يقتضي السيّاق ما في المخطوط ؛ فهو أولى ••

ف ٧ / ج ٤٨ ؛ خ/ن : المحدِبون •• سـائر النسخ المطبوعة اختـارت « المجدبون » •• والكلمتان متقاربتان •• فأيتهما أولى بالسياق ؟

السياق في الفقرة يقـول :

وأنزل علينا سماءً :

مخضلةً مدراراً هاطلةً •••
حتى يُخصِبَ لإمراعها المُجدبون ••
ويحيا ببركتِها المسنتون ••

الشروح الحديثة الوجيزة : اكتفت بوضع مرادف للمسنتين ؛ وقالت هم : المقحطون ••

ومنهاج البراعة من المطولات قـال :

حتى يخصِب لإمراعها المجدبون : أي يتصف أهل الجدب بالخصب ورفاغة العيش لكثرة الكلأ ••

ويحيى ببَركتها المسنتون : الذين أصابتهم السنـة وجهـد القحـط •• (جـ ٨ / ص ٨٣)

إن ملاحظة ما جاء في شرح الفقرة : وفق « شرحنا العصري » : يعطي ميلاً إلى ترجيح ما عليه المطبوع ، دون اعتبار الشروح ؛ لأنها لا تميط اللثام عن شيء •• لكن التأمل بمادة « حدِب » •• ومادة « سنـت » : تجعل للمتأمل اعتباراً آخر ؛ فالمسنِتون : هم الذين لا شـيء لهم ؛ وهم المنقطعون ؛ وفتح النون : أولى •• وفي مادة « حدِب يحدَب حدَباً » ، يقال : حدباء للسنة الشديدة ، تشبيهاً لها بالدابة ، التي بدت حراقفُها من هزالها وعظم ظهرها ••

والمحدبون : من تقوست ظهورهم من جوع أو مرض •• والمفرد : أحدب ، محدب •• ومؤنثه : حدباء ، وهي : الأمور الشاقة أيضاً ••

يمكن أن تكون هذه القراءة صحيحة ؛ وقد تكون مقنعة على نحو بلاغيٍّ من مستوى أعلى ؛ لأن السقيا : تكون شافية مرض الإنسان •• ومغنية حاجاته في الزمان والمكان •••

وكلٌّ وما يختـــار ••

لكنني أردت : هذا التوقف مع طلاب علم المعاني ؛ ليدركوا جدية « تجميل التراث » ؛ وأن معرفة اتجاه المعنى في اللفظ : محكومة بملاحظة « مقتضى حال السياق في النص الذي نجمّله » •• وحكم القاموس : لم ينقذ عالمين كبيرين من الانزلاق ؛ ومثل هذا كثيرٌ في النصوص المحققة ؛ فقد وقع آخرون من المحققين : بما ينقــذ منه تحديد المقتضى السياقي ، وعــلم المعــاني المدرِّب على مبادىء التجميل ••

وسُلَّم تجميل التراث : رياضة طويلة ؛ لكنهــا مثيرة كالانتصار بكــرة القدم •• لقد عبَّر الناس عن مشاعرهم في « دورة المتوسط العاشرة » •• ويعرف الذين سمعوا طلقات لا تحصى عشية انتصار سورية باللعبة : أبعاد كلماتي ••

لقد قرأت مع صديق من الأذكياء : صفحةً واحدة من تحقيق « خصائص الأئمــة » •• وأجريت عليها ستة وثلاثين تحسيناً •• وكان عجبي من ذوقه المرِن الرفيع : منسياً لما اكتشفناه من إمكانية التحسين ••

أذكر الخصائص : لأنه للشريف الرضي أيضاً •• وقــد كان الأساس الذي شيدت عليه اختيارات « نهج البلاغة » فيما بعد ••

وتجميل التراث : ليس مسألة ماضٍ مضى ؛ بــل هي مسألة من مسائل عصرنا أيضاً •• والذي يتأمل بمحاولة « رياض نجيب الريس » : يدرك أبعــاد ما نقول بصورة عملية •• فأين المجمّلون ؟

الشـــرح العصري

- ٤ -

١

يا الله يا عظيم
جبالنا : تشققت ، وأرضنا : اشتد غبارها ؛
ودوابنا : عطشت أشـــد العطش ؛

وهي : حائرة مضطربة في أمكنتها التي تبرك فيها ، تصيح بأصوات مرتفعة : كما تصيح الأمهات اللواتي فقدن أولادهن ..

وهــذه الدواب التي جَعلتْ لنـــا منافع منها : لشؤون الحياة من ملابس وغذاء وأسفار .. ضجرت من المجيء ، مرة بعد أخرى ، إلى مراعيها التي اعتادت التنعم بمـــا تنبته .. كما سئمت من اشتياقها إلى مناهل المـــاء التي اعتادت أن ترتوي منهـــا .. (١ – ٧)

٢

يا الله يا عظيم يا رحمان يا حنّان
فاعطف على تأوهات المتوجعات من الشياه بالأنين ..
وارحم الأصوات المتشوقة من النياق الحانّات بالحنين .. (٨ – ٩)

٣

يا الله يا عظيم يا رحيم يا هادي يا شافي

فاهدِ اضطرابها في مخارجها وأماكن ذهابها •• وواسِ توجُّعَها في مداخلها وأماكن عودتهــا •• (١٠ – ١١)

٤

يا الله يا عظيم يا كريم

تركنا بيوتنا وجئنا إليك : حــين كرَّتْ علينا بهجومها سنوات عجاف من المحل ، كأنها النياق الهزيلة المنهكَة ؛ وحين لم تمطرنا سحب المطر الغزير ، مع أنها « مخايل جَود » ، أي توهم بالمطر وتمــر بسرعة ولا تنزله •• (١٢ – ١٥)

فكنت يا جوَّاد : أمل الراجي المتضرع الحزين لما أصابه من شدائد الحاجة ••

وكنتَ يا قادر : وُصولَ الطالب الملتمس إلى ما يلتمسه ويطلبه •• (١٦)

ندعوك مستغيثين بك وأنت الحنان ، مالك كلِّ شيء •• حين يئس الناسُ •• وحين حُبسَ المطرُ في الغمام ، فــلم يؤذنْ له بالهطول •• وحين مات ما مات ، من المواشي والإبل التي خرجت إلى المرعى : لعدم وجود ما ترعاه •• (١٧ – ٢٠)

نسألك في هذه الحال ، وأنت الغفَّار ، ألاّ بلومَنا وألاّ تعاتبنا بأعمالنا •• وألاّ تعاقبَنا بذنوبنا ؛ ألاّ تستأصلَنا أخذاً ؛ وألاّ تمحقنا مؤاخذة ؛ (٢١ – ٢٢)

ونسترحمك ، وأنت أرحم الراحمين ، فابسط علينا عطفَك المُوجِبَ لمغفرتك وإحسانك ••

وليكن بسط رحمتك يا مغيث : بالغيم المتفتق عن المطر الغــزير ؛ وبالربيع المخصب لكثرة الماء ؛ بالنبات الحَسَنِ المُعجِب ••

وليكن نشر رحمتك : تتابعَ انصبابٍ لمطرٍ غزيرٍ •• واجعل مطرك محيياً ما قــد مات من أرضنا : بإخصابها وإخراج نباتهــا ؛ فأنت الحي المحيي •••

وأرجع ما قد مضى وقتـه ، ولم ندركه ، من مواسم خيرك ؛ وأنت المبدىء المعيد ••

(٢٣ – ٢٧)

٥

يا الله يا عظيم يا مغيث ••

أغثنا بسُقيا منك ؛ نشرب من مائها ؛ وتشرب دوابنا ؛ وترتوي زروعنا ••

ولتكن سقياك : محيية ؛ تخصب أرضنا فتحيا بها ؛ وتنبت نباتها الحسن ••

ولتكن سقياك : مروية ؛ تحسِّن حالنا ؛ وتكثر نعمتنا ؛ ويشرب منها الناس ويَشبعون •• وتشرب منها الشجر فتنعم وتخضر ؛ ويَجِدُ بها كلُّ عطشان ريَّه••

ولتكن سقياك : تامة ممتلئة ؛ تملأ جيوبَ الأرض ، وتكتمل بها أجـزاء البـلاد ••

ولتكن سقياك : عامة ؛ تشمل الأرض كلها ؛ وتعم الجميع بخيرها ••
ولتكن : طيبةً كثيرة الخير ، آمنة من الضرر ، لا مكروه فيها ولا خبيث ••
ولتكن : مباركة ، كثيرة النفع ، منمّيةً للخيرات ، زائدة في النعم ••
ولتكن : هنيئة لذيذة الطعم ، سائغة المذاق ••
ولتكن سقياك : مَريعةً ؛ تخصب المكان بالنبات ؛ فيتنعم بخصبه أهـل المكان ••
وليكن نباتُ سقياك : طيِّبٌ نـامٍ ••
وليكن فرعُها مثمِرٌ •• وورقها ناعم ، حسن ، جميل ، له بريق ورونق ••

ولتكن سقياك منعشة أيها المعبود ؛ فيتنشط بها الضعيف من عبادك بعـد فتوره ، وتجبر بها فقره ، وتقيمه من الهلاك ، وتقوي عزمـه ••

ولتكن سقياك محركة أيها المحيي ، فتخصِب بهـا كلَّ مكان من الأرض ، عامـراً كان أو خـلاء •• (٢٨ – ٣١)

٦

يا الله يا عظيم يا مدبِّر

جد لنـا بسقيا منك ؛ تنفع المرتفعَ من أرضنا ، والمنخفضَ منها •• يخضر المرتفع بعشه ، وتجري مياه المنخفض بصور أنهار وينابيع ••

نواحينا : تصير بهـا خصبة ؛
وثمارنا : منها تصير آتية غير بعيدة ؛ وزاكية مُقيتة ••
ومواشينا : تعيش بهـا من قريب ؛
وأبعد نواحينا : تهنأ بمطرها الندي ، السخيّ ، الهنيّ ؛
وجوانب بلادنا : تستعين بها •• حتى تستغني بنتاج خصبها ••

ولتكن سقياك : يا واسع ، واحدة من بركاتك الواسعة وعطاياك الكثيرة ، لا تستثني شيئاً ولا أحداً ، بل تصيب البشرَ والوحشَ ؛ فتكون إخصاباً لمن افتقر من البشر ؛ وتكون عناية لمـا أُهمِلَ من الوحش •• (٣٢ – ٤٠)

٧

يا الله يا عظيم يا مُنزِل الغيث

أنزلْ علينا سماءً ؛ بما للسماء من دلالاتٍ أنت أعلم فيها ؛ ومنها : المطر ، والسحاب ، والعشب ••

ولتكن سماؤك المنزلة بسقياك : مُخضِلَةً ؛ تكثر أغصان الشجر وأوراقه ؛ وتجعل العيش ناعماً طيِّباً ••

ولتكن : مدراراً ؛ غزيرة السيلان بمطرها – كأنها مَنابعُ الدَّر الذي هو الحليب •• وحياة الدَّر التي هي النفس ••

ولتكن : هاطلةً ؛ متتابعة النزول ، مُفرَّقاً ما بـين نزلاتها ، ذات قطراتٍ عظيمة ؛ مطـرُها : يزاحم بعضه بعضـاً ؛ وقطراتها : تُحمِّس بعضَها بعضاً ••

(٤١ – ٤٣)

يا الله يا صادق الوعـد

وليكن برقُ سمائك صادقاً يحمل معه المطـر •• وليكن سحابُ أفقها مليئاً بالمـاء •• وليكن سحابُها الأبيض متحداً كبـيراً ، لا نِتَف متفرقة •• ولتكن أمطارها اللينة عذبَة ، غير باردة الريح •• (٤٤ – ٤٧)

ولتكن سقياك في سمائك النازلة : محققة رجاءَ من جاءوا إليك ؛ فيكونَ خِصبُها مُخصباً لمن أصابهم قحطُ المكان ، فكانوا مجدِبين •• أو محدبين •• ويكون خيرُها الواسعُ العميمُ : نافعاً لمن أصابهم محل الزمان فكانوا مسنِتين بسَنتهم العجفاء •• (٤٨ – ٤٩)

يا مَن أنتَ على كلِّ شيءٍ قدير

إنك تنزل الغيث بعـد ما يئسَ الناس •• وإنك تنشـر عطفـك الموجبَ للمغفـرة والإحسان ••

وأنت الوليُّ : الذي يتولى أمرَ كل شيء ، وكل مخلوق ؛ فيتكفل بكفاية الجميـع ••

وأنت الحميد الذي يستحق كل حمـد وشـكر : على ما تُنعم به دائماً ، وعلى كل حـال •••

يا أيها المنعـم المحسن ••

(٥٠ – ٥٤)

ثلاثة وثلاثون نداءً

بأسلوب

استفهام عصري

وضع هذه الأسئلة لمجلة «المستقبل» : (ع ٣١٤/٢٦ شباط ١٩٨٣/س ٧) •• الكاتب والصحافي المشهور «رياض نجيب الريس» •• مستفسراً بها من الإمام علي ابن أبي طالب (ع) : لشؤون معاصرة ، تشغل بال الجميع •• وقد مهد لذلك بمقدمة نفسية وتاريخية : اجتذبت كثيرين من مفكري أوروبا وآسيا •• حتى أن أسئلة مختلفة ، ومن وزراء إعلام عرب •• وردت إلى « الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية » بباريس •• باعتبار « مجلة المستقبل » : تصدر في باريس أيضاً ••• وهذه الأسئلة العصرية وجهها كاتب معاصر إلى « باب أساسي من أبواب المعرفة » ، لعل السائل الحيران يجد إرشاداً وأماناً عند المسؤول العارف ، كما يقول في مقدمة حديثه •• وهذه هي :

« في زمن الأبواب المغلقة ، ليس أمام الصحافي خيارات كثيرة•وفي زمن البحث عن طريق آمن وسط ظلمة هذه الأيام ، ليس هناك من يجرؤ أن يتباسط مع صحافي عن مدلولات اليوم طموحاً للوصول الى معالم الغد •

داخل هذا الزمن العربي الرديء ، وفي أشهر التمزق الذي عاشه المواطن العربي منذ الغزو الاسرائيلي للبنان ، وسقوط الأمة العربية من محيطها إلى خليجها ، باعترافها ومن دون اعترافها ، تحت ظلال « السلام الاسرائيلي » ،

لم أجد أحداً أعرفه في العالم فأطرق بابه لأسأله عن الذي يجري ولماذا جرى وكيف يمكن أن يقف ؟ صار اليأس كلمة نكررها صباح أو مساء كل نهار .

رحت أبحث عمن يقول لي شيئاً . قلت لنفسي : ليس في هـذا العصر مَن هو على استعداد لأن يمد رأسه من أية كوة مهما صغرت . حاولت أن أطرق باباً أساسياً من أبواب المعرفة ، لعل صاحبه يجيب السائل الحيران .

قررت أن أزور الإمام علي بن أبي طالب في « نهج البلاغة » سعياً وراء حديث صحافي مع خليفة رسول الله وسيد الشهداء وأمير المؤمنين . ولـم يسبق لي أن عرفت علي بن أبي طالب من قبل . كانت معرفتي به سطحية تاريخية كمعرفة المئات من المسلمين أمثالي . فكان لا بد أن أطرق كتاب السيد الشريف الرضي ليقودني إلى باب علي بن أبي طالب ويفتحه لي في « نهج البلاغة » وهو الذي اختاره من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه .

وفتح السيد الشريف الرضي الباب في « نهج البلاغة » على مصراعيه ، وكان هـذا الباب بالنسبة لي في ساعات الظلمة الكثيرة التي مرت علينا : نوراً ساطعاً . ومن أنقاض الذل الذي تمسحنا فيه كلنا ومن بين دركات العار التي وصلناها ، أتاح لي الشريف الرضي عبر أسابيع طويلة ، راحة كبرى ، ساعدني فيها شـرح الأستاذ الشيخ محمد عبده .

وتوالت الأسئلة ، وما كان أكثرها . وطالت الأجوبـة وما كان أسخاها . ولأن الأسئلة كانت من واضع اليوم فلم أشـأ أن أجرح سيدي الإمام بأن أضع أجوبته في أيدي رقباء هذا العصر . لذلك ليس في حديثي المنشور اليوم : رأيـه في أهل العراق ولا رأيه في أهـل الشام ولا رأيه في الفرس ولا في الأتراك ولا في أهل مكة والكوفة والبصرة . وكما يقول سيدي الإمام : « مَن تذكَّر بُعد السفر استعد » ، فقد استعددت بأن يكون حديثي بعيداً عن مزالق أيامنا المعاصرة هذه . ولعل أهم ما في آرائه غـير المنشورة هو أنها تختصر الزمن كله . وكأن التاريخ لم يغير من طبائع هذه الشعوب ولم يعلمها درساً واحداً » .

كان لا بـد من بداية لحديثي مع الإمـام علي بن أبي طالب . فاستأذنته بسؤالي الأول :

١ ـ سيدي امير المؤمنين . ما هذا الزمان الذي تعيشه امتك ؟

ـ يأتي على الناس زمان لا يُقرَّب فيه إلا الماحل ولا يظرَّف فيه إلا الفاجر ، ولا يضعف فيه إلا المنصف . يعدون الصدقة فيه غُرماً . وصلة الرحـم منّاً . والعبادة استطالة على الناس . فعند ذلك يكون السلطان بمشورة النساء وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان . (... لكن) إذا تغير السلطان تغير الزمان . (... و) صاحب السلطان كراكب الأسد يُغبَط بموقعه وهو أعلم بموضعِه .. (... و) آلة الرياسة سعة الصدر . (... لكن) مَن مَلَكَ استأثر [١] .

٢ ـ لكن كيف يواجه المـرء ، يا امـير المؤمنين ، آلة الحكم وسلطان الحاكم والوضع العـربي كما نعرفه اليوم عاجز ومشلول ؟

ـ « لا خير في الصمت عن الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل » [٢] .

٣ ـ وهل يعمل الحاكم بمشورة المحكومين يا أمير المؤمنين ؟

ـ « من استبدَّ برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها . (...و) من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الأخطاء » [٣] .

٤ ـ لقد أصبح الظلم من معالم امتك يا سيدي الإمام . أليس لهـذا الظـلم من نهـاية ؟

ـ « الظلم ثلاثة : ظلم لا يُغفر ، وظلم لا يُترك ، وظلم لا يُطلب . (...و) يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم . (...و) يوم العـدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم » [٤] .

٥ ـ لكن سـلطان هـذا الزمان يضيق صدره بالعـدل يا سيدي ؟

ـ « من ضاق عليـه العدل فالجور عليـه أضيق » [٥] .

٦ ـ اليس لهذا السلطان يا سيدي امير المؤمنين ، من مواصفات ؟

– « لا ينبغي أن يكون الوالي (•••) البخيل ، فتكون في أموالهم نهمته • ولا الجاهل ، فيضلهم بجهله • ولا الجافي ،فيقطعهم بجفائه • ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم • ولا المرتشي في الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع » (٦) •

٧ ـ أين الوطن يا سيدي الإمام ، وقد اصبحنا كلنا نعيش في غربة قاسية ؟

– « ليس بلد بأحق بك من بلد ، خير البلاد ما حملك • (•••) الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة » (٧) •

٨ ـ لكن الفقر يا أمير المؤمنين ، ليس هو غربتنا الوحيدة • يكاد الفقر يكون مقيماً معنا في عصر الغنى العربي •

– ألم أقل لابني محمد بن الحنفية : يا بُني إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه • فإن الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل داعية للمقت • (•••) الفقر هو الموت الأكبر (•••) ولو كان الفقر رجلاً لقتلته (٨) ••

٩ ـ لقد شح عطاؤنا يا امير المؤمنين ، حتى يوم كثر مالنا •

– « لا تستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه • (•••) ومن كثرت نِعَمُ الله عليه كثرت حوائج الناس إليه • (•••) إن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ، ويكرّمه في الناس ويهينه عند الله • (••• لكن) ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى • (•••) فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له » (٩) •

١٠ ـ لكن الحاجة تدفع الى الطلب احياناً كثيرة يا سيدي الإمام ؟

– « إن حفظ ما في يديك أحب إليَّ من من طلب ما في يد غيرك • ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس » (١٠) •

١١ ـ والطمـع ؟

ـ « الطمع رق مؤبد » [١١] .

١٢ ـ والعـلم يا سيدي ، اين منه المـال ؟

ـ « العلم خـير من المال . والعلم يحرسك وأنت تحرس المال . المـال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق (...) العلم حاكم والمال محكوم عليه . (...) إن المال من غير علم كالسائر على غير طريق » [١٢] .

١٣ ـ احوال العبادة في عالمنا قد ساءت يا سيدي الإمام . لم تعد تدري كيف يتعبد الناس يا أمير المؤمنين ، وبماذا تؤمن ؟

ـ « إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار . وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار » [١٣] .

١٤ ـ ما الفرق بين العاقل والأحمق يا مير المؤمنين ؟

ـ « لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه » [١٤] .

١٥ ـ والأحمق ماذا يريـد عـادة ؟

ـ « إنه يريد أن ينفعك فيضرك » .

١٦ ـ والبخيـل ؟

ـ « فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إيه » .

١٧ ـ والفاجـر ؟

ـ « فإنه يبيعكَ بالتافـه » .

١٨ ـ والكــذاب ؟

– «فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب » [١٥] .

١٩ ـ والمــرأة يا أمير المؤمنين ، أين هي من كل هــذا ؟

– « إن البهائم همها بطونها . وإن السباع همها العدوان على غيرها . وإن النساء همها زينة الحياة الدنيا والفساد فيها » [١٦] .

٢٠ ـ والغــيرة ؟

– « غيرة المرأة كفر وغيرة الرجــل إيمان » [١٧] .

٢١ ـ أليس من الصعب الحكم على النوايا يا سيدي الإمــام ؟

– « وما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه » [١٨] .

٢٢ ـ كيف نعامل الناس يا أمير المؤمنين في ظل هذه الظروف الصعبة ؟

– « خالطوا الناس مخالطة إن متم معهــا بكوا عليكم ، وإن عشتم حنّوا إليكم . (...و) لا يكن لك الى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك . (... لقد) هانت عليه نفسه من أمَّر لسانه » [١٩] .

٢٣ ـ واعــداؤنا ؟

– « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » [٢٠] .

٢٤ ـ وهل نصــالح اعداءنا يا سيدي الإمــام ؟

– « لا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى ، فإن الصلح دعــة لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد

صلحه . فإن العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن » [٢١] .

٢٥ ـ **كيف نسعى يا سيدي أمير المؤمنين بين الحق والباطل ؟**

ـ « الباطل أن تقول سمعت والحق أن تقول رأيت . (....و) الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم ، وعلى كل داخل في باطل إثمان : إثم العمل به وإثم الرضى به . (....و) مَن صارع الحق صرعه » [٢٢] .

٢٦ ـ **وكيف نعمل إذن يا أمير المؤمنين ؟**

ـ « إحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية . واحذر كل عمل إذا سئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر منه » [٢٣] .

٢٧ ـ **والحياة ، كيف نواجهها والحالة هكذا يا سيدي ؟**

ـ « ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله إلا الحياة فإنه لا يجد له في الموت راحة » [٢٤] .

٢٨ ـ **والدهر كيف نعامله يا مولاي الإمام ؟**

ـ « الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك . فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر » [٢٥] .

٢٩ ـ **لكن اللؤم يكاد ان يطغى على دهرنا هذا يا سيدي ؟**

ـ « احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع » [٢٦] .

٣٠ ـ **بل كيف ندفع التهمة عنا ؟**

ـ « من وضع نفسه مواضع التهمة لا يلومنّ من أساء له الظن » [٢٧] .

٣٠ ـ والإصرار على الجهـل ، كيف نحترس منه يا سيدي ؟

ـ « من كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحــق » [٢٨] .

٣١ ـ حتى لو اصبحنا اليوم من غـير اصدقاء ؟

ـ « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجـز منه مَن ضيَّع من ظفـر بـه منهم . (... لكن) لا تتخذن عـدوَّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك » [٢٩] .

٣٢ ـ اين الأمـل في كل هذا يا امـير المؤمنين ؟

ـ « مَن وثق بمـاء لا يظمـأ » [٣٠] .

٣٣ ـ اليس من مسك لختام حديثنا هذا يا سيدي امـير المؤمنين ؟

ـ « ما أكثر العِبر وأقـل الاعتبار » [٣١] .

المرجـــع

اعتمدت في هذا الحديث على كتاب « نهـج البلاغة » بأجزائه الأربعة ، وهـو مجموع ما اختاره السيد الشريف الرضي من كلام الإمـام عـلي بن أبي طالب ، وكما شرحه الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، في الطبعة القاهرية الأولى . التي أعادت تصويرها وطباعتها دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت .

والرقم المنشور في نهـاية كل جواب يشير (في الجدول المبين ادناه) الى رقـم الصفحة والجزء المأخوذ منه هـذا الحديث . مثلا : رقم (١) ٤/٢٣ يعني الصفحة ٢٣ الجـزء الرابـع .

(١) ٤/٢٣ ـ ٣/٥٦ ـ ٤/٦٣ ـ ٤/٤٢ ـ ٤/٤١ .
(٢) ٤/١٠٨ .

(٣) ٤/٤١ – ٤/٤٢/ .
(٤) ٢/٩٥ – ٤/٥٣ – ٤/٨٠ .
(٥) ١/٤٦ .
(٦) ٢/١٤ .
(٧) ٢/١٤ .
(٨) ٤/٧٦ – ٤/٤١ .
(٩) ٤/١٥ – ٤/٨٨ – ٧/ – ٣/٥٥ – ٤/٣٨ .
(١٠) ٣/٥٢ .
(١١) ٤/٤٢ .
(١٢) ٤/٣٦ – ٢/٤٤ .
(١٣) ٤/٥٣ .
(١٤) ٤/١١ .
(١٥) ٤/١١ .
(١٦) ٢/٤٣ .
(١٧) ٤/٢٩ .
(١٨) ٤/٧ .
(١٩) ٤/٤ – ٣/١٢٧ – ٤/٣ .
(٢٠) ٤/٤ .
(٢١) ٣/١٠٥ .
(٢٢) ٢/٢٤ – ٤/٤٠ – ٤/٩٥ .
(٢٣) ٣/١٢٩ .
(٢٤) ٢/١٦ .
(٢٥) ٤/٩٤ .
(٢٦) ٤/١٤ .
(٢٧) ٤/٤١ .
(٢٨) ٤/٩ .
(٢٩) ٤/٤ – ٣/٥٤ .
(٣٠) ١/٣٩ .
(٣١) ٤/٧٢ .

حـــدود البلاغـــة
تحت التـــاج
- ٣ -

كلٌّ الكلام : خبرٌ وإنشاء ؛ ومنهما فتحت أبواب عــلم المعاني الثمانية ، كما رأينا في « خلاصة التأسيس » •• ومؤدى ذلك : أن الكلام كله يعود إلى علم المعاني ؛ وقد عرفنا تحديد هذا العلم بأحوال اللفظ المطابقة لمقتضى الحــال •• فهل عُرف الحال ومقتضاه ••

مقتضى الحال : هو الاعتبار المناسب ؛ وبلاغــة الكلام أو عدمها : تُقاس بمطابقته لهذا الاعتبار أو عدم مطابقته •• وهذه المطابقة ، أو تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، هو : « النظم » ، عند الشيخ الجرجاني ؛ وقد نقل عنه صاحب « الإيضاح » حدّ النظم ، بأنه : « تأخّي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يُصاغ لهــا الكلام » •• والبلاغــة : « صفة راجعةٌ إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب ، وكثيراً ما يُسمّى ذلك فصاحة ، أيضاً •• » •• لذلك رأوا « عودة الفصاحة والبلاغة إلى المعاني وإلى ما يُدَلّ عليه بالألفاظ » ••

(إيضاح : ٨١) ••

لكن البلاغة والفصاحة والحال المقتضى : من الأمور التراثية المحتاجة للتحرير من حدود المحدّدين ؛ ويكفي لمعرفة هذه الحاجة التحريرية : أن تقرأ مقدمة كتاب « الإيضاح » في الكشف عن الفصاحة والبلاغة •• ولا بأس فاسمع وانظر :

« فصاحة المفرد ، خلوصه من : تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغــوي •••

« فصاحة الكلام ، خلوصه من : ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظي أو المعنوي •• أو خلوصه من : كثرة التكرارات ، وتتابع الإضافات •••

« فصاحة المتكلم : مَلَكَة " يُقْتدرُ بها على التعبير بلفظ فصيح » ••

« وأما بلاغة المتكلم فهي : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ » ••

« وأما بلاغة الكلام فهي : مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته » ••

« ومقتضى الحال مختلف ؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة : فمقام التنكير يباين مقامَ التعريف ؛ ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ؛ ومقام التقديم يباين مقام التأخير ؛ ومقام الذّكر يباين مقام الحذف ؛ ومقام القصر يباين مقام خلافه ؛ ومقام الفصل يباين مقام الوصل ؛ ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ؛ وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبيّ •• وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام ••• »

« وللبلاغة طرفان : أعلى إليه تنتهي ، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ؛ وأسفل منه تبتدىء ، وهو ما إذا غُيِّر الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق ، عند البلغاء ، بأصوات الحيوانات ، وإن كان صحيح الإعراب •• وبين الطرفين مراتب كثيرة » ••

« كلّ بليغ ، كلاماً كان أو متكلماً ، فصيح ؛ وليس كل فصيح بليغاً ••

« البلاغة : مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره » ••

« علم المعاني : يُحترز به عن الخطأ ••

« علم البيان : يحترز به عن التعقيد المعنوي ••

« علم البديع : يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ••

« تمييز الكلام : منه ما يبين في علم متن اللغة ؛ أو التصريف ؛ أو النحو ؛ أو يُدرَك بالحس ، وهو ما عدا التعقيد المعنوي » ••

(إيضاح : ٧٢ – ٨٣)

لقد أوضح هذه الحدود بأمثلة من عيوب فصاحة المفرد وعيوب فصاحة الكلام •• لأن : تنافر الحروف •• وضعف التأليف : لا تعرفان الفصاحة ؛ بل عيوب الفصاحة •• والفصاحة ، عندهم : خلوص من العيوب •• كقولنا لملكة الجمال : أنت ملكة جمال لخلوصك من البلاهة والسفاهة والتعصب •••

إن تأسيس البلاغة على معرفة عيوبها : من قضايا التراث التي تطالب بالتحرير من هذه الحدود الوائدة لما هو الأصلُ والجوهريُّ •••

إن التربية البلاغية : تبدأ من الصحة لا من المرض ؛ ومع التعرف إلى الأمثلة الحسنة : تنشأ ملكات المتعرف وتنمو •• ثم يمتلك مقياس التمييز المستقيم •• ويعلم الناشئون على هذه الأصول الصحية : أن الفصاحة والبلاغة والحال المقتضى غير هذه المستويات المروَّجة في كتب التراث النقدية والبلاغية ••

فالفصاحة : مثل موهبة الصوت الجميل ؛ توجِّه مفردات صاحبها وجمله ، وتطبع كلَّ ما يصدر عنه بالعذوبة ، حروفاً ، وكلمات ، وسلوكاً تعبيرياً ؛ •• عذوبة الفصيح : طابع يطبع المفردة والكلام والخطاب ؛ لذلك قالوا : بفصاحة المفرد •• والكلام •• والمتكلم ••

وأمثلة الفصحاء الأصحاء : أوقع في النفس من أمثلة تنافر الحروف ومخالفة القياس والغرابة وضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ••• وهذا صحيح على البلاغة والبلغاء •••

لقد عمدت في « رسالة النداء » : إلى الأفصح والأبلغ من ملحنات النداء ولوحاته ؛ ليتملَّى الذوق بمحاسن هذا الكلام الذي لا يأتيه الباطل ؛ فهو من نداءات القرآن •• ومما يتبع هذا الإعجاز الرائع الماتع •••

كل مثال : يصور جوهر ما حددوه ؛ ففي نداء زكريا •• أو حوار شعيب •• أو أدعية الأنبياء : تمثيل قريب وواضح لما هي فصاحة المتكلم والكلام والمفرد ••

ولما هي بلاغة المتكلم والكلام •• ولما هو الحال ومقتضى الحال •• ولما هي أحوال اللفظ العربي ساعياً لمطابقة المقتضى الحالي •••

لقد أقنعتنا « رسالة النداء » : بأن البلاغة سلوك إلى النعيم على صراط مستقيم •• وليست احترازاً عن الخطأ وحسب •• إنها اتصال بالصواب •• وحضور مع المعنى واستحضار له بمرونة وعفوية : تشبهان الشهيق والزفير ؛ فمن يحدد علاقتهما المرنة العفوية ؟ !

ومن رسالة النداء : أخذنا نص النداء الأعلى « النهجي » ، ورفعنا عليه علم « التجميل » ؛ فبدت لنا قسمات الجمال الأخّاذة في أسرار التأليف بين الألفاظ ، لتطابق تراكيبها مقتضى حال المعنى •• وبدا علم التجميل : خفاقاً بالدلالة على كنوز المعاني ؛ بل بدا وكأنه : تاج الإنشاء الطلبيّ على حدود البلاغة المحررة ••

أهكذا دخلنا أبواب علم المعاني من مبادىء التجميل : لنتصل بجمال المعنى منعماً ببديعه المبين ، وقابلاً استغاثتنا لنكون تحت تاجه الهادي ؛ منشئيَ طلبٍ مستقبليٍّ ؛ ومنشئيّ طلب عصري ؛ ثمّ مخبَرين الخبر اليقين عن حقائق ما كان وما يكون •• ؟ !

في كل أسلوب من أساليب مقتضى حال الإنشاء : حاولنا هذه المحاولة المحررة ؛ انطلاقاً من مبادىء التجميل الواقعية العملية •• وسعياً متدرجاً إلى نِعَم جمال الوعي وسعادة الاتصال بأصالة التراث وفطرةِ الذات ••

وكذلك رجونا لأساليب مقتضى الخبر •••

ويستطيع أهل الذوق : بلوغ هذه البلاغة عبر النص الذي اختير من « نهج البلاغة ذي الفِقَر وشرحه العصري » ؛ ففيه أذواق من الإنشاء الطلبي بالنداء •• وفيه أذواق الخبر اليقيني في جمل الختام القرارية : « فإنك تنزل الغيث ، من بعد ما قنَطوا ، وتنشر رحمتك ، وأنت الوليّ الحميد » •••

(ف ٧/٥٠ — ٥٤)

خاتمة

ايجاز وقيم ووعود

« مَثَلُ « علم المعاني » : مثل طائر ؛ جناحاه : الإنشاء والخبر »[1] ...

بهذه العبارة افتتحنا « جناح الإنشاء : ماهيته وخفقه » .. ثم تأملنا من هذا المفتتح : مذهبي الإنشاء الواسعين ؛ مذهب الإنشاء الطلبي ؛ ومذهب الإنشاءِ غير الطلبي .. ورأينا لكل مذهب تشعبات ، تسمى : أساليب طلب ، مثل « النداء ، الاستفهام ، الأمر ، النهي ، التمني » .. ويلحق بها فروع أخرى ، مثل « العرض والتحضيض » .. أو تسمّى : أساليب إنشاء غير طلبي ، مثل « القسم ، التعجب ، العقود ، الرجاء ، المدح والذم » ...

ربطت تشعبات الإنشاء بطبيعة المعنى اللغوية .. ثم فتحت المظلة فوق معاني الإنشاء الاصطلاحية .. وكان هدوء الرحلة ماتعاً مع « رسالة النداء » ؛ فقد كشف لنا ما لم يكن مكتشفاً في كتب البلاغة .. وعلمنا من « رسالة النداء » غنى أساليب الإنشاء .. لكنها أشبه بالأراضي المهملة أو البائرة .. وقد قدمت أساليب « التمني ، والاستفهام ، والأمر ، والنهي » بعبارة القزويني ، تقريباً ؛ لأظهر حدة الفروق بين واقع بلاغي ، عليه الدارسون .. وبين ما يمكن لهذا الواقع من التطور والغنى .. ولأنني لست واثقاً من قدرة العطار على إصلاح ما أفسد الدهرُ ، كما يقولون « لا يصلح العطار ما أفسد الدهر » .. لذلك عدت إلى النداء مناقشاً ، خطوةً خطوة ؛ فهذا ما يقوله القزويني في « مختصره

---

(١) ص : ١٩

وإيضاحه » •• وهـذا ما يقوله السكاكي في « معانيه ونحوه » •• كل ما قالاه في « النداء » : صار معلوماً ؛ بلا زيادة ؛ ولا نقصان •• وبلا دعاوى فضفاضة •• هـذا ما عندهم ••• ثم خطوت خطوة واقعيةً أخرى من الماضي إلى الحاضر ، واستقبلت وجوه الآراء بأسلوب النـداء من ثلاثـة كتب حديثة تحمل عنوان « علم المعاني » لأكابر من الباحثين التطوريين •• ومثل ذلك استقبلت وجوه آراء في « النداء » لأكابر من الباحثين في النحو •• وأوضحت قدر الإمكان : ما حصل من تطورات الوعي لمعاني أسلوب النـداء •• ثم عرضت لتجربة تربوية مورست عملياً في مدارس بيروت وجامعاتها ؛ ثمَّ طبقت على نحو شعبي في إذاعات عربية ، مثل إذاعة دمشق ، وإذاعة الكويت •• وقد مرت معانيها بمظاهر من التسميات ، فهي : « القصص اللغوي •• قصة القواعد •• اللغة والحياة في شاعرية القواعد •• ثم هي « محاورات في العيادة اللغوية » ••

ثم دخلنا إلى أساليب الإنشاء غير الطلبي •• فوجدناها بائرة تماماً في « علم المعاني » •• فهي في تقارير الباحثين •• « قليلة الأغراض البلاغية المتعلقة بعـلم المعاني »•• وإذا نالت عطف الباحثين : حسبت « أخباراً نقلت إلى معنى الإنشاء »•• أو هي من مباحث عـلم النحو •• وبكل الأحوال هي قليـلة « المقاصة البلاغية المعنوية » في القناعات الموروثة •• لذلك ظلت في المنطقة البور ؛ كأنما يقال لطلاب البلاغـة : لا قيمة لأساليب « القسم ، والتعجب ، والعقود ، والرجاء ، والمدح والذم » من وجهة البلاغة عموماً •• أو من وجهة علم المعاني [1] •••

يقرر الباحثون في « تاريخ البلاغة وتطورها [2] » : أن « الجرجاني يـُعَدُّ بحق مؤسس البلاغـة العربية » •• وهـذا الجرجاني نفسه : يقرر أن « توخي معاني النحو[3] » هو لب المسألة البلاغية •• فكيف لا يكون لأساليب الإنشاء غير الطلبي قيم في بلاغة المعنى : لأنها أخبار منقولة •• أو لأنها من مباحث النحو ••• ؟!

---

(١) لاحظ : عـلم المعاني ؛ عتيق : ٨٠ ؛ أمين : ٨٠ ؛ نعيـم ٣٣ . وغيرهم دون استثناء ..
(٢) لاحظ : البلاغـة تطور وتاريخ ؛ لشوقي ضيف : ٣٦٩ ..
(٣) دلائل الإعجـاز ؛ للجرجاني : ص ٤١٩ .. والمعـاني مكررة في أماكن عـديدة من كتـابه ..

يفاجأ المتمهل بالوقائع القائمة في القناعات المتراخية عن نشاط البحث وإعادات النظر في مسائل التراث البلاغي ، مع أنه على كل شفة ولسان :

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى هل تقر لهم بذاك ؟

لقد أقنعني التحقيق « بأسلوب النداء » : ألا أقتنع بأية دعوى من الباحثين إلاّ بعد التحقق المنهجي بإخضاع كل مسألة لقواعد البحث الثابتة « تحديداً ، وتقصياً ، وتخيراً ، وتمثلاً ، وتعبيراً » ... لذلك أنشأت في التراث البور : إنشاءات جديدة لما يسمى أساليب غير الطلب .. فرأيت لها من خصب الأغراض البلاغية ما رأيته لأسلوب النداء الذي صار إلى « رسالة النداء » .. كذلك للقسم والتعجب والعقود والرجاء والمدح والذم : رسائل ... لمن يؤمنون بالتطور وضرورة التجدد ..

بعد ذلك عدت إلى النداء من مستوى عصري : أظهرت براعة الأذكياء في استغلال هذه الأساليب التراثية لأغراض يومية ومعاصرة ؛ وقدمت مثالين لهذا الاستغلال الذكي : أحدهما للغة والنحو ، نجده في « أدباء وراء الميكرفون » ، لعادل اليازجي .. وثانيهما للبلاغة والمعاني ، نجده في « ثلاثة وثلاثين نداءً بأسلوب استفهام عصري » ، لرياض نجيب الريس .. وجعلت أولهما في ما سميته « معالجات ندائية » .. وثانيهما في ما سميته « تاج الإنشاء على مبادىء التجميل وجمال التراث » ..

إن الدخول إلى « المعالجات الندائية » .. و « تاج الإنشاء » : يصور للداخل « مخارج الصدق الإبداعي ومداخله » في أصالة قواعدنا الموروثة « كالنداء » .. وفي أصالة تعبيرنا الموروث ، الذي أسميه « البلاغة الممارسة » ، كنص « السقيا » الذي استعرته من « نهج البلاغة ذي الفقر والشرح العصري » ؛ لأستوضح منه : مبادىء التجميل وجمال التراث .. على نحو من بلاغة الأسلوب في العمل الكلي ، لا في « الكلمة والجملة والصورة » [1] فحسب ..

---

(١) لاحظ : تعقيب الدكتور ضيف ؛ على « البلاغة تطور وتاريخ » : ٣٧٦

هذا الإيجاز لـ « مقتضى حال المعاني في بلاغة الإنشاء » : يغـري بالتأني في تفاصيل ما ذكرناه ؛ لأنـه جديد مثمر" •• ولأنـه ذو قِيَم بديئة ؛ وسيرى الملاحظون الأذكياء : أن « أساليب الإنشاء غير الطلبي » تفتح للبلاغة ما لم يكن مفتوحاً من قبـل •• وحسب المتفحِّص أن يقرأ « أسلوب التعجب » ويتحرى ما قيل فيه عبر التاريخ الطويل للبلاغة العربية في تطورها ؛ فهو لا محالة ، خالص" إلى نتيجة تقول « لا نظير لهذا التعجب في أي كتاب بلاغة قديم أو حديث » •• وقد يقول : « ولا قِبَل للباحثين بمثل هذا الإخراج ؛ لأنه حقق للبلاغة معانيها في الغرض والأسلوب » •• ومثل هذه النتيجة : أكيـد" في « رسالة النـداء » مع زيادة الحسنى التي أعطت للموضوع « تكامل البحث المنهجي » في مقدمـة وتفاصيل وخاتمة ذات نتـائج معللة ؛ ومقدرة ؛ وبيِّناتها ملموسة •••

« رسالة النداء •• وأسلوب التعجب » : مثالان يحققان أصوليات وكيفيات ، علمية وأدبية ، لما ينبغي أن تصير إليه أراضي تراثنا البلاغي من تعمير حنون بعـد تبوير عقوق طـويل •••

إن قراءة المقدمة الإنشائية (١) ••• ثم المقدمة الندائية (٢) : تفتح الباب إلى منابع الحنان التربوي الذي نتعامل بـه مع أذواق الناشئة ؛ ليكونوا في الوفـاء لأصلهم ؛ وليكونوا في التهذيب لأنفسهم : فمثل الرغيف على المائدة واضح الدلالة على انتسابه إلى السنابل الناشئة في التراب •• ومثل منشيء البيت في أرض جبلية ذات أحـراج ، ورثها عن الآباء والأجداد : مثل المضطر لكسر الصخور وقص الأشجار أو اقتلاعها ؛ ليكون وارثاً وفياً ومعمِّراً حضارياً ••

كذلك كنت أشعر مع « خفق جناح الإنشاء » ، الذي جعلته قسماً مستقلاً" ، في كتاب مستقل •• يأتي بعده في الجزء الثاني « مقتضى حال المعاني في بلاغـة الخبر » •••

---

(٢) ص : ١٩
(٣) ص : ٢٩

في جزئي البحث : تكمل صورة « علم المعاني » المطلوبة لمتعلميه وطلابه ؛ وفي أصل المقرر : أن يكون مع « أبواب علم المعاني كتاب بلاغي قديم » •• وأن تخصَّصَ ساعة « للتطبيقات البلاغية وتحليل النصوص ، على ضوء علم المعاني وربطها بمفهوم السياق » •• وأن تخصص ساعة أخرى لدراسة كتاب بلاغي قديم » ••• (يلاحظ الرسوم الإداري لمفردات المقرر) ••

في بلاغة الإنشاء : نفذ التطبيق التحليلي على نص « السقيا » ، كعمل تعبير تام ، من « نهج البلاغة » للإمام علي (ع) •• كما نلاحظ في « رسالة النداء » •• ثم في « تاج الإنشاء » •• لكن هذا التطبيق : كان في كل أسلوب ، إنما على نصوص مختارة جزئية •• منها : ما هو قرآني •• ومنها ما هو نبوي •• ومنها ما هو أدبي أو لغوي •• إذاعي أو صحفي •• ليكون تنوع الأمثلة المحلَّلة : جاذباً إلى وحدة الحياة والبلاغة •• وإلى صداقة القول والفعل ؛ لأن البلاغة كلها : بلوغ ذاتي وتبليغ غيري •• ومدار البيان : « الفهم والإفهام » ، كما قرر الجاحظ في « البيان والتبيين » وغيره في كثير من الآثار •• بل كما قررت القوانين الموحاة والموضوعة على حد سواء ؛ أليس « التعارف بين القبائل والشعوب » : توجيهاً موحى به ؟ •• أليس « ميثاق الأمم المتحدة » قائلاً بالتعاون بين الشعوب فيما بينها •• ؟ ••• وتلك هي رسالة البلاغة : الفهم والتفاهم •• وجاهل الآخر يعاديه ؛ لأن « الناس أعداء ما يجهلون » •• ولكن الرب هو الأكرم •• وهو الذي « يعلِّم الإنسان ما لم يعلَم » ••

إن إحياء أمر التواصل بين الناس و « مدبر الأمر من السماء إلى الأرض » : مسألة بلاغية إبلاغية ؛ يقول الإمام الرضى ، علي بن موسى ، (ع) :

« رحم الله عبداً أحيا أمرنا •• يتعلم علومنا ويعلمها الناس •• فإن الناس : لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا ••• والرب تعالى واحد •• والأب واحد •• والأم واحدة •• والجزاء بالأعمال » ••• فهل بقي من سبب لتباعد الناس سوى الجهل بمعنى البلاغة ؟

سعيت ، بمودة خلق الله ، إلى « محاسن الكلام » •• وجربت إحياء « نماذج من أساليب الإنشاء » •• وأسعى لأفجر « عـين الحيـاة » من أعمـاق التراث ووارثيه •• ولئن كان كتابنا القديم ، هو « الإيضاح » •• في « بلاغة الإنشاء » •• فسيكون « دلائل الإعجاز » رفيقاً في « بلاغة الخبر » ••

إن أمثلة المداخل : زيادة حسنى ؛ لتروِّجَ أرج الإعجاز •• وتَشوِّق إلى حقول منـه ؛

ألیس لأهـل الذوق إعجـاز منطقٍ

وعـالم تخييلٍ مـع الحـق يلتقي ؟ ! ! ••

أسـعد عـلي

١٤٠٨/٢/٢٠

محتويـــات

القسم الأول من : عـلم المعاني ومقتضى الحال

مقتضى الحال في بلاغــة الإنشاء